سعد
الفطاطرى

جارة الوادى



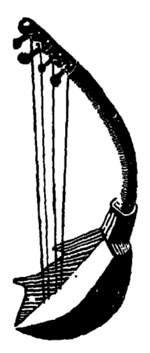
السفير

سعد الفطا لمرى

يا جارة الوادى طربت وعادنى

ما يشبه الأحلام من ذكراك

أحمد شوقى



تقـــديم

د بطرس غالى

يسعدنى أن أقدم المؤلف الثانى الذى ينشره السـفير سعد الفطاطرى ، ولا سيما أنه عن السودان ٠

أنه كتاب قريب الى قلبى وقـــلب كل مصرى وكـل سودانى ، وعن موضوع بالغ الاهمية بالنسبة لكل مصرى وكل سودانى وهو العلاقات بين شطرى وادى النيل ٠

وأن للسودان لدى شخصيا مرتبة خاصة ومعزة قوية ٠٠ أذكر أننى زرت هذا البلد لاول مرة منذ ما يزيد عـن أربعين سنة عندما كنت طالبا فى كلية الحقوق بجامعـة القاهرة ٠٠ وتركت هذه الزيارة أكـبر الاثر فى نفسى ورغم عناء وتعب الرحلة التى استغرقت حوالى ٥ أيام ـ بالقطار بين القاهرة واسوان ، ثم بالباخرة من اسوان

الى وادى حلفا ثم بالقطار مرة أخرى ـ فاننى عدت الى القاهرة أحمل أجمل الذكريات والانطباعات ٠

وقد دونت هذه الانطباعات فى أول مقال نشر لى وكان ذلك فى مجلة الشعلة ٠٠ ورغم اننى زرت السـودان بعد ذلك عشرات المرات فان هـذه الزيارة الاولى كانت أجمل هذه الزيارات وأقربها الى نفسى ٠

ولقد زرت السودان كأستاذ محاضر ، وممتحن خارجى وباحث ومسئول سياسى ٠

كما اننى عمدت الى قراءة عشرات من الدراسـات والكتب والتحليلات عن السودان والى تتبع كل الانتاج العلمى من السودان وعن السودان ، وأشرفت على عدد من رسائل الدكتوراه فى جامعة القاهرة وفى جامعـة الخرطوم السودانية عن مختلف أوجـه الحيـاة السودانية ٠

ولعل هذا الاهتمام بكل ما هو سودانى هو الـذى دفعنى عندما توليت منصب وزير الدولة برئاسة مجلس الوزراء فى اكتوبر ١٩٧٧ ان طلبت أن اكون ضـمن مجموعة الوزراء الذين يعملون فى نطـاق التكـامل بين مصر والسودان ، وقد رحب زميلى وصديقى المرحوم الدكتور محمد حافظ غانم بذلك وكان نائبـا لرئيـس الوزراء حينذاك ومشرفا على برامج التكامل ٠

ورغم زياراتى ودراساتى وقراءاتى عن السـودان فاننى أرى أن معرفتى بالسودان مازالت عاطفية أكثـر ما هى علمية ، ومازلت متعطشا لمزيد من الزيـارات والدراسات والقراءات حتى اتمكن من استكمال معرفتى بهذا البلد العزيز وتفهمى لحقيقة الواقـع السـودانى والتيارات الفكرية والسياسية التى تهب عليه من جنوبه الى شماله ·

ولذلك فعندما طلب منى السفير سعد الفطاطرى تقديم مؤلفه عن السودان تحمست لهذه الفكرة بقدر ما استمتعت بقراءة هذا المؤلف ، الذى هدف كاتبه أن يكون فى متناول كل يد ·

وأرجو متحمسا كذلك أن يكون نشر الصديق سـعد الفطاطرى لهذا الكتاب مشـجعا له على نشر المزيد من ملاحظاته وأفكاره وذكرياته التى جمعها خلال السنوات الطويلة التى عمل خلالها فى سفارات مصر فى انحاء المعمـورة ، وان كنت آمـل أن ينتهى اولا من نشر ما تحتويه مفكرته عن افريقيا - باعتباره عضوا بارزا فى الجمعية الافريقية المصرية - قبل أن ينتقل الى انحاء أخرى من العالم ·

دكتور بطرس غالى
وزير الدولة للشئون الخارجية

مقدمة

د. نعمات أحمد فؤاد

ليس رحلة ، وليس قصة ٠٠ ليس تاريخا وليس تاريخا ٠٠ ليس ذكريات وليس مذكرات ٠٠ انه هذا كله مجتمعا ومتفرقا فى اسلوب نابض حساس ٠٠ رائق وصادق ٠٠ جميل ونبيل ٠٠ ومن السفارة اسلوب النفس وأسلوب التعبير كاسلوب الحديث ٠

« مضغ الماء » ، « سبقت حاجتى حبى » ، « يسبق كل ميلاد حمل » الخ ٠٠ ليست قوافى قصيد ، وليست مقاطع نشيد ولكنها عناوين فصول من الكتاب الذى أكتب مقدمته فى غير اطالة ٠٠ مجرد اطلالة ينتقل القارىء بعدها سريعا الى قراءته فيخلو اليه ويقبل عليه بما هو أهل له

كتب المؤلف السفير ، كتابه بعد أن عاد الى مصر ٠٠ وهذا سر الحنين الذى يطل من اهداء الكتاب فى خفقة شوق ، ودفقة حب البلد الذى يأكل معنا على مائدة واحدة هى الوادى ، ويشرب معنا من اناء واحد هو النيل ٠

الكتاب عن السودان الذى يصفه المؤلف بقوله : (هذا الصندوق من الابنوس المطعم بالعاج حوى داخله الكثير من وثائق التاريخ المصرى ٠)

★★★

« العربية والعامية » ، « الزواج » ، « الطعـــام » ، « اللباس » ،« العادات » ، « المعتقدات الشـــعبية » ، رءوس موضوعات وقف عندها الكاتب طويلا محـــللا مستقصيا ٠٠ ولكننى ، قارئة ، وقفت بدورى طويلا عند قصة الاستعمار فى وادينا أو (التهافت الذبابى الاوربى) على حد تعبير المؤلف السفير فى استقطاب جامع للداء الوباء الذى ابتلى به الشرق لا سيما فى القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين ٠٠ الاستعمار الذى جعل القبائل جنسيات ليلهيها آنا ، ويزدهيها حينا، ويشغلها عنه تارة ، ويفرقها آونة أخرى تطبيقا لقاعدته المشهورة « فرق تسد » ٠

لقد كشف المؤلف القناع ، عن وجه الاستعمار البغيض بالارقام والاحداث والوثائق والاسماء والخلفيات الخافية عن العين المجردة والظاهرة ٠

الاستعمار الذى يتاجر فى الرقيق ثم يذرف الدموع متظاهرا بالحزن عليه ٠٠ الاستعمار الذى يحرم على المواطن السودانى فى الشمال ان يذهب الى الجنــوب ، وعلى سودانى الجنوب ان ينتقل الى الشمـــال ٠٠ انه الاستخراب لا الاستعمار ٠٠ انه التدمير لا التعمــير ٠٠ فلم يترك الاستعمار ، السودان ــ شأنه فى كل مـــكان يحل به ــ الا كما يقول رئيسه (غربه سجين العطش ، وشماله اسير الفقر ، وشرقه رهين المجاعة ، وجنـــوبه مخضب بالدم محكوم عليه بالتخلف ٠)

ويتساءل السفير الكاتب (هل بعد ثلاث عشرة سنة من الثورة وست وعشرين سنة من الاستقلال وطـــرد المستعمر ، روى الغرب عطشه ؟ وقتل الشمال فقـــرد ؟ وطعم الشرق من جوعه ؟ وقضى الجنوب على تخلفه ؟
ثم هل استقرت الصفوة على حال ؟) .
سؤال أرجو ألا يطول انتظاره قبل أن يأتيه الجواب .
ولا تمضي هذه المقدمة دون أن أسجل عتبا سبقني اليه سفيرنا في السودان وكاتبنا اليوم .
هل يجوز في شرعة الاخاء والحب الا يطلق اسم مصر على شارع كبير بالخرطوم حتى الشارع الذى تقوم فيه السفارة المصرية والذى لا يحمل الا رقما (٣٩) كما يقول السفير ؟ ونحن الذين يطربنا ويروى القلوب والاســماع عندنا ، ان نطلق الاسماء السودانية انسانا ومكانا على المعالم المصرية ؟
ولكن لا ضير يكفينا أن تكون لنا فى الخرطوم ، جامعة فاذا ذكرت « القاهرة » علما على الجامعة فقد سرى وروى اسم مصر .
وبعد :
ان كتاب السودان « جارة الوادى » يعد فى ترتيــب الظهور فى سلسلة مذكرات المؤلف ، الكتاب الثانى لـــه ونحن على وعد بكتاب ثالث .
لقد قامت صداقة حلوة بين الكاتب والقراء فكتبه فيها من ودادته ، وبشاشته ، ودبلوماسيته ، ورهافته، الكثير .. وهى بهذا ، عطاء لمكتبتنا العربية .. عطـــاء أدبى تاريخى سياسى يضيفه اليها ، ويضفيه عليها فى احساس المسئول ، ومسئولية الوطنى الحفى الصادق والصديق .
القاهرة ٢٣ـ٣ـ١٩٨٢

نعمات أحمد فؤاد

تمهـــيد

عندما فكرت أن أكتب عن السودان هالتنى كثرة المؤلفـات العربية والافرنجية التى صدرت عن تاريخه وجغرافيته وأهله وعلاقته بمصر ، وعندما أضفت الى ذلك ذكرياتى لمدة خمس سنوات عملت خلالها سفيرا لمصر به ، راعتنى صعاب المهمـة اكثر ، وبدأت أتقاعس على الرغم من وعدى الســـابق لنفسى عقب صدور كتابى عن أفريقيا : « هذه السوداء أحببتها » (١) أن أعد كتابا عن السودان ٠

واخذت أتلمس لنفسى المعاذير ، ولكن الصديقة الفاضلـــة دكتورة نعمات أحمد فؤاد واصلت بقدر تقاعسى تحثنى على ان افى بالوعد وألا انكث به ، كذا أخذت ترن فى أذنى عبـــــارة للسيدة الكاتبة القديرة نعم الباز قالتها مشكورة فى نقدهـا لكتابى عن أفريقيا : « أنها تعيب على سفير التكامل بين مصر والسودان والاب الروحى له أن يبدأ بكتاب عن أفريقيا قبـــل السودان » ٠ (٢)

---

(١) نشرته مؤسسة اخبار اليوم فى اغسطس ١٩٨١ ٠

(٢) نشر بالاخبار فى ١٩٨١/٩/١٥ وقد أسعدنى نشر هذا التعليق قبل ان اتعرف على السيدة الفاضلة ٠

وكان معهما العالم الاستاذ الدكتور بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية الذى دبر لى أمر رحلاتى لافريقيا لاستثمرها موضـــوعا لكتاب عن هذه القارة ، فلقد صـــارحنى الوزير الفاضل فى آبو سمبل خلال اجتماع من اجتماعات مجلـــس الوزراء المشترك (٣) أنه لا يرى ـ وكنا نتحدث عن نقلى من السودان الى دولة أوربية ـ أصلح منى ســـــفيرا لمصر فى السودان ٠٠ وكأنى به ـ وقد أسر الى مشـــكورا هذا التقدير من جانب الخارجية ـ يدعونى الان هو الاخر أن أفى بوعدى فأسجل خواطرى عن الخمس سنوات التى قضيتها بالسودان٠

ولا أنسى الاستاذ عبد الحميد الكاتب ـ الذى لم أتعـــرف عليه بعد ويسعدنى أن القاه فى القريب ـ كلمته المسهبــــة عن كتابى عن افريقيا (٤) فقد كان لها قوة السحر فى دفعى لاعداد هذا الكتاب ٠ لقد قال الكاتب الكبير ضمن ما قـــال

---

(٣) اجتماع اللجنة الوزارية العليا فى ٢٦ ـ ١٩٧٨/٢/٢٧ ٠

(٤) الاخبار فى ١٩٨١/٩/٥ والاستاذ عبد الحميد الكاتب الذى ذاع اسمه كذلك كما سمى نفسه هو السفير عبد الحميد عبد الغنى الذى عمـــل طويلا بالامم المتحدة قديرا نافذ البصر الى مشاكل المستقبل ٠

متفضلا مشكورا « ان المؤلف أحب أفريقيا حبا عظيما تنضح به صفحات كتابه الذى جال فيه جولة سياسية وتاريخيـــة واجتماعية وأدبية ·· جولة متمهلة وئيدة مليئة بالملاحظـات الذكية ·· لقد أضاف اضافة قيمة الى ما عنـــدنا من أدب الرحلات ·· أتمنى ان يكون كتابه عن أفريقيا باكورة تعقبهـا كتب أخرى » ·

وانفعلت بتشجيع الاصدقاء وبردود الفعل ، وبدأت أجمـع مواد (التأليف) وأضفت مذكراتى وأوراقى ولكن يا هول ما فعلت فقد رأيت نفسى لو كتبت على النحو المألوف لكنت ناقلا مرددا الحقائق ومعلومات ان لم يكن قد عفا الزمان عليها فهى لا تعدو أن تكون موادا جافة لا تصلح للنشر الذى ابتغيـه : النشر على مستوى الكافة والكتابة للناس أجمعين وللجيـــل الجديد منهم على وجه أخص ، على نحو متكامل قدر الامكان يسرد قصة السودان من خلال عدسة رؤياى الشخصـــية دون الخوض فى محيط (التأليف) بعيدا عن صنعة الاحتراف ·

كما رأيت أنه ليس فى وسعى مهما بذلت من جهد أن أتقدم

بكتاب عن السودان لفئة المتخصصين الذين أعتقد أن مـا فى المكتبات اليوم عن تاريخ وجغرافية السودان وسياسته مـا يشبع حاجتهم وأكثر ثم انهم فوق كل شيء أجدر مني وأقدر ٠

ولذلك قر قرارى ـ بعد جهد ـ أن أحاول محاولة جـديدة أضمنها خواطرى الشخصية ومشاعرى ازاء عملى كسفير له مهمة رسمية ، وعلاقاتى بالناس كمصرى عاش بالسودان وسط اهله : عايش حياتهم اليومية احب معهم وكره ، جادل معهم وناضل ، سعد معهم وعانى ، احس معهم وشعر على الطبيعة عن كثب قدر الوشائج التى تربطه بهم ٠

قر قرارى أن أكتب بوحى من هذا المزيج بين خواطـرى ومذكراتى وقراءاتى مستثمرا رصيدى من سنوات عمـلى بالسودان لاقدم قصة هذا الكتاب : «جارة الوادى» ، انتفاضة متحمس لا افاضة مؤرخ ٠

وأملى فى توفيق الله كبير ٠

مايو ١٩٨٢

سعد الفطاطرى



١

عمدة بدرجة سفير فوق العـــادة

يحدد اطار العلاقات بين مصر والسودان فى الوقت الحاضر اتفاق تم توقيعه بالاسكندرية فى ١١ فبراير ١٩٧٤ يطلق عليه « منهاج العمل السياسى والتكامل الاقتصادى بين جمهـوريتى السودان ومصر » ويعرف اختصارا باتفاق التكامل ٠

وقد تضمنت مقدمة هذا الاتفاق عبارات حماسية لا شك أنها وقت صياغة الاتفاق كانت تعبر عما يجول فى قلـــوب الموقعين : مصريين وسودانيين ٠ فقد نصت المقدمة عـــلى « أنه منذ فجر التاريخ قامت على ضفاف النيل الخالد حضارة كبرى ربطت بين شمال الوادى وجنوبه برابطة وثقى لا انفصام لها ٠٠ وقد تضافرت شتى عوامل التاريخ والثقافة والعقيدة والمصلحة طوال قرون متعاقبة فنسجت الوشائج الخالدة التى ستظل دواما تربط بين شعبى الســـودان ومصر ٠٠ وعاش الشعبان الشقيقان فى ظل هذه الوشائج يواجهان معا أحداث الحياة وتحديات الزمن شريكين فى تبعات النضال من أجـــل غد أفضل » ٠

ويستطرد الاتفاق ليقول « ان الهدف هو الوصول الى افاق رحبة من العمل الواحد الذى يقوم على وحدة الهدف والمصير. ان (المطلوب) ترجمة طبيعية للعلاقة العضوية بين الشعبين الى منهج علمى وواقع ملموس بحيث يحل التفاعل محل التعامل وتصبح العلاقة وبحكم المناخ الذى تهيأ لها قادرة على مواجهة كل التحديات » .

وهكذا كان يشعر الموقعون على اتفاق التكامل . كالوا له المديح قبل تنفيذه بكل ما أوتوا من فصاحة وبيان . ويبدو أننا كالسودانيين (بل ان السودانيين أكثر) شغوفون بالشعر وانشاده ، بل قل اننا العرب كلنا سواء تستهوينا الكلمات قبل كل شيء : لقد علقناها فى الجاهلية شعرا ، وقدسناها فى الاسلام منزلة .

ولما كانت كلمات اتفاق التكامل غير منزلة ولا مقدسة فقد تعرضت لضغوط السياسة الداخلية والخارجية ولعوامل التعرية المحلية والاقليمية ، وتناولها الحاكمون فى كل من مصر والسودان بالهبوط أحيانا الى درجة الجمود، وبالصعود أحيانا الى قمة الانفعال .

وقد كانمن حظى السعيد أن اعايش هذا الاتفاق منذ ولادته وهو فى قمة الانفعال . لقد بدأ قويا صاعدا وللحفاظ على (قوة دفعه) رأى الرئيس الراحل أنور السادات « لما (له) من شديد الرغبة فى اطراد علاقات المحبة التى تربط - لحسن الحظ - بلدينا أن (يختارنى) (لاكون) سفيرا فوق العادة ومفوضا من (قبله) لدى فخامة الرئيس نميرى . »

كذا قال سيادته فى خطاب اعتمادى بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٩٧٤ سفيرا بالسودان « أن ما خبره من اخلاص وهمة وما رآه من (مقدرتى) فى المناصب العالية التى تقلدتها قد جعل له وطيد الرجاء فى أن يكون النجاح نصيبى فى تأدية المهمة التى عهد الى بها » .

وذهبت الى الخرطوم مزهوا بكلمات رئيس الـــدولة ـ متناسيا أنها تقليدية ـ لاقول للرئيس جعفر محمد نمـــيرى بمناسبة تقديم أوراق اعتمادى سفيرا « وأرانى ياســيادة الرئيس ـ وقد وصلت العلاقات بين السودان ومصر الى اسمى درجاتها ، وزالت جميع الشوائب وانقشعت الغيومالغريبة عن سمائنا الواحدة ـ أرانى يا سيادة الرئيس مستبشرا خـيرا بهذه المهمة . »

وكان الرئيس نميرى متحمسا تحمس الرئيس الســادات نفسه حتى أنه تعمد ان يكون تقديمى لأوراق الاعتماد كسفير لمصر ولبدء مهمتى بالسودان مطلع العام الهجرى الجـــديد ١٣٩٥ (٥) .

***

وبدأت أتحسس خطاى على أرض الســـودان الطيبـــة ، وتحت شمسها الساطعة ، ووسط أهلها الاحباء الاعــــزاء السمر . ورأيت نفسى وكأنى لم أغادر مصر .

رحب الجميع بى لا لشخصى ولكن للدولة التى أمثلهــا : لمصر التى يحبونها . كانوا يرونى بالسيارة فى الطـــريق فيصفقون مهللين : « حبابك عشرة » يعنى أهلا ومرحبا للعلم المصرى الذى يخفق على السارى الصـــغير على يمـــين السيارة (٦) .

---

(٥) يوافق ١٤/١/١٩٧٥ .

(٦) أول سفراء مصر بالسودان كان اللواء سيف اليزل خليفة (اول يناير ١٩٥٦) ولايزال اسمه يتردد حتى اليوم بكل التقدير حيث يرجع اليه فضل توطيد دعائم العلاقات الثنائية فى بداية استقلال السودان . وقـــد توالى على السودان من بعده حتى اليوم الســــفراء كمال خليل ومحمد التابعى وسعد الفطاطرى (المؤلف) ثم احمد عزت عبد اللطيف الســـفير الحـــالى .

وسعدت ووطدت العزم على أن أعمل بكل جوارحى ، فقد أحببت السودان منذ وطئت قدمى أرضه · واستغرقنى العمل وأسرنى الناس : رجالهم ونساؤهم ·

قدرت البساطة فيهم والنقاء ·

فعلت بى كيمياء شمس السودان ما فعلته حتى أنى احيانا كنت أرى صالح السودان صالح مصر بلا تفاوت فى الحب والانتماء مؤمنا بأن العرق دساس ·

كنت أجيب على من يسألنى : ما ظنك بجارك ؟ أنه ظنى بنفسى · و « أن الزيت فى العجين لا يضيع » ·

كذا تعلمت فى السودان ·

وايمانا بأن ما لروحينا عن الحب غنى ـ كما شعرت بالسودان ـ بدأت أرى الناس معى فى كل ما أرى ، وأسمع من الناس من حولى كل ما يقولون وأقول ·

خذ لنا معا العقبات والصعاب وسارت الامور من الحسن للاحسن حتى اتفقنا على ازدواج الجنسية للمصريين والسودانيين كأول خطوة على طريق التكامل فعلا، حتى لا يكون ما نتخيله أو نفعله مستقبلا مجرد سطور على ورق أو خطوات فى الهواء ·

وطوقتنى جارة الوادى بذراعيها وامتلأ البيت (دار السفارة) بالاصدقاء وغير الاصدقاء ، على موعد وغير موعد ، بالنهار والليل ، فرادى وجماعات ، مسئولين وغير مسئولين ، سودانيين ومصريين حتى باتت دار السفارة كالدوار فى ريف مصر · (٧) وكما قال الشاعر :

---

(٧) وصفت السيدة الكاتبة القديرة نعم الباز ذلك فى مقال لها تقول : « كان السفير سعد الفطاطرى سفيرا لنا هناك وسفيرا لهم هنا · وقد كان قمة فى احساسه الشديد بارتباط الشعبين فكان بينه فى الخرطوم مثل بيت الأمة مفتوحا للجميع حوارا وتقاربا وانهاء لخلافات وبداية لعهود · لم

وتسابق سفراء الدول الاجنبية على الاجتماع بى عساهم يعلمون منى عن سير الاحداث واتجاهات الريح ٠ لقد أفزعهم الامر وصاحوا : « ان المصريين قادمون ! » ٠ ولو علموا لكفوا عن أنفسهم هذا العناء ٠ فلم يكن السفير المصرى بالخرطوم على علم بكل شىء بالسودان ٠ كان حاله كحال قائد الاوركسترا يشير بعصاه فى كل اتجاه منفعلا بعصبية يدور حول نفسه ويهز رأسه بالارتفاع والانخفاض ، يلهث مع الموسيقى ويعرق كأنه الملحن ناسيا أنه انما يقرأ من النوتة موسيقى غيره ٠

كانت شئون السودان العليا تعالج على مستوى القمة ٠ حتى كادت زيارات الرئيس حسنى مبارك للخرطوم وكان وقتئذ نائبا للرئيس السادات ، أن تكون دورية كل ستة أشهر فى المتوسط ٠

وأذكر بهذه المناسبة أول زيارة للرئيس الراحل السادات للخرطوم فى ٢٧ فبراير ١٩٧٧ عندما قدم مع الرئيس الاسد رئيس جمهورية سوريا ليتفقا معا مع الرئيس نميرى على اتحاد ثلاثى بينهم ذلك الاتفاق الذى بقدر الحماس اليه بقدر ما طوته يد الزمن سريعا (٨) أذكر هذه الزيارة لانها كانت

اقابل سودانيا مسئولا أو غير مسئول خلال أواخر السبعينات الا وحكى واطنب عما يفعله سفيرنا هناك ٠ لقد كان الرجل يعمل من اجل التكامل فى غير افتعال وباحساس قوى بالضرورة الحتمية لاتمام التكامل بيننا وبين جنوب الوادى » ٠

ما كنت أود هذا الاقتباس لعلاقته بشخصى ولكننى احببته ٠٠ فمعذرة ان تعمدت التسجيل ٠

(٨) احتفظ على سبيل التذكار لهذا المؤتمر الثلاثى بورقة كانت امام الرئيس السادات خلال المناقشات خط عليها رسومات متشابكة متصلة بكلمة (اسرائيل) مكتوبة بالانجليزية ٠

أول لقاء لى مع الرئيس الراحل السادات بالسـودان ولانى لا أزال أسمع كلماته ترن بأذنى عندما قال لى على سـلم الطائرة مودعا بعد السؤال عن حالى بالسودان « شد حيلك» ٠

وقد زار الرئيس الراحل السادات الخرطوم بعد ذلك أثناء وجودى بها ثلاث مرات أخرى فى ٧ ينـاير ١٩٧٨ وفى ١٧ يونيو ١٩٧٨ حيث عقد مؤتمر القمة الافريقى فى الخرطـوم ثم فى ٢٠ يناير ١٩٧٩ عندما اجتمع مجلسى الشعب المصرى والسودانى فى هيئة برلمان مشترك لوادى النيل ٠

وقد أتاحت الزيارات المتكررة للسيد الرئيس حسنى مبارك للسودان (٩) حصوله على خبرة بالغة بشئون السودان يرجى ان تدفع بعلاقاتنا اليوم معه الى شهر عسل اخر كذلك الشهر الذى أعقب توقيع اتفاق التكامل ٠

هذا الشهر الذى أمتد خمس سنوات لم يمر فيه يوم دون اجتماع مشترك للجنة أو لمجلس ادارة شركة أو نقابة أو هيئة أو لقاء أو ندوة أو معرض ٠٠ الخ ٠

لقد تعددت زيارات المسئولين الى الخرطـوم حتى كان يصعب أحيانا كثيرة تدبير الفنادق لهم عندما يفيض تدفقهـم على استراحات الرى والتعليم والجامعـة المصرية (فى الخرطوم) ٠

---

(٩) فيما يلى التواريخ التى زار السيد الرئيس حسنى مبارك الخرطوم فيها عندما كان نائبا للرئيس :

١٨/١١/٧٥ ، ٧/٧/٧٦ ، ٧/١٢/٧٦ ، ٢٠/٤/ ٧٧ ،
١٠/٧/٧٧ ، ٢٨/١/٧٨ ، ١٤/٣/٧٩ ، ٦/٦/١٩٧٩ ٠

وكان يقول لى دائما السيد حسنى مبارك لدى وصوله الخرطوم بانها المدينة الوحيدة التى يتناول الغـداء فيها مرتين : مرة فى الطائرة قبل الوصول ومرة فى السفارة حيث يجد الغداء معدا ومرتبا على اساس تشريف نائب رئيس الجمهورية السودانى وكبار الوزراء مما كان لايجد معه الا القبول سـعيدا ٠

على أن اللجنة الوزارية العليا (أو مجلس الوزراء المشترك) قد استننت سنة حميدة فقد رأت عقد اجتماعاتها بعد اجتماعها الاول فى مدن أخرى غير الخرطوم والقاهرة ، فاجتمعت مرة فى أبو سمبل ومرة فى الاسكندرية (ومرة فى اسوان على هيئة لجنة مصغرة لمنطقة التكامل) ٠

كذا بدأ اهتمام الصحافة المصرية والاذاعة والتليفزيون (فجأة) بالسودان فقد زارها الجميع وأذكر دائما بالاعتزاز زيارات المرحوم يوسف السباعى والمرحوم على الجمال والمرحوم مرسى الشافعى ٠

وقد كانت زيارات الاساتذة الكبار عبدالمنعم الصاوى وموسى صبرى وانيس منصور وعبد الله عبد البارى وابراهيم نافع وسعيد سنبل وفتحى غانم والسيدة أمينة السعيد وصلاح جلال نقيب الصحفيين وعادل رضا (مؤلف كتاب جعفر نميرى الرجل والتحدى) وأحمد نافع وعبد الستار الطويلة ومفيد فوزى وحسن فؤاد ويوسف الشريف من مؤسسة روز اليوسف وهبة عنايت وصلاح حافظ ووزير الاعلام الحالى صفوت الشريف عندما كان يشغل منصب مدير الاستعلامات والسيدة همت مصطفى والسيدة صفية المهندس والسيد فاروق شوشه والسيد حمدى فؤاد والسيدات بهيرة مختار وهدايت عبدالنبى وهدى توفيق (وأسماء لامعة كثيرة أخرى أدخرها لمكان آخر ٠٠٠) دفعات قوية فى مسيرة التكامل بل كانت بمثابة مهرجان ممتد ٠

كذا انتعش ركن السودان وبدأت السيدة ثريا جودت (من أخبر المصريين بالسودان) تعد له البرامج الجديدة وتبتكر على أمل امتداده للتليفزيون أيضا ٠ وحضر المخرج السينمائى حسن الامام ــ مخرج الروائع ــ لاجراء ترتيبات أخراج فيلم سودانى مصرى مشترك ٠

ولاول مرة تقام معارض تشكيلية قدم بمناسبة احداها المرحوم المثال الخالد جمال السجينى والفنان الاصيل متعدد

المواهب حسين بيكار وكليم الازهار والاشجار الفنان شفيق رزق ومعرض للفن الكاريكاتورى المصرى ومعرض للكتاب المصرى ومعرض للمصنوعات المصرية باتت فرصته اليوم سانحة سنويا ضمن معرض الخرطوم الدولى الذى بدأت اقامته منذ سنة ١٩٧٨ ٠

وكان لاسابيع الفيلم المصرى والفرق المسرحية المصرية (المدبولى ـ الهنيدى ـ عادل امام) نجاح كبير عاد بالسودانيين الى ذكرى زيارة أم كلثوم عندما نحروا البقر تحت قدميها (١٠)

ولم تنقطع زيارات الوفود الطبية حتى انه خلال مؤتمر اتحاد الاطباء العرب سنة ١٩٧٨ كادت تضم الخرطوم جميع كبار اطبائنا ٠ كذا الوفود الشبابية والنقابية والنسائية ومن طلاب الجامعات ومعارض الكتاب المصرى بل ومعارض الازياء ٠

كل ذلك توالى على السودان الذى حظى وحظيت معه سعيداً بعملى به الذى مكننى من أن أعيش أياما مع كبارنا فى الحكم والفكر والفن ٠

---

(١٠) زارت ام كلثوم الخرطوم فى ديسمبر ١٩٦٨ وقد كان من أروع اغانيها خلال هذه الزيارة قصيدة اغدا القاك ؟ للشاعر السودانى الهادى آدم ومن تلحين محمد عبد الوهاب ٠ لقد اعيدت مقاطع هذه الاغنية مرات ومرات وسط هستيريا من الاعجاب منقطع النظير٠ وللاسف قل ما تذاع هذه الاغنية فى كل من اذاعتى القاهرة والخرطوم مع انهما لو فعلتا على فترات متقاربة مع ذكر المناسبة لقربتا كثيرا بين الشعبين عاطفيا ٠

اغدا القاك يا خوف فؤادى من غدى

يالشوقى واحتراقى فى انتظار الموعد

ولعله يجدبنا أن نذكر بهذه المناسبة كذلك القصيد السمفونى الرائع ليوسف جريس تحت اسم « السودانية ٠ »

وقد كان للندوات الادبية المشتركة أقوى الاثر فى التحام المشاعر ولا أبالغ اذا قلت انها كانت أقوى أثرا من اللجان الوزارية المشتركة ٠

ان الندوات التى ساهمت فيها السيدة دكتورة نعمات أحمد فؤاد والسيدة دكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) والدكتور حسين فوزى ويوسف الشارونى والدكتور محمد محمود الصياد والشاعر عبد الرحمن الأبنودى والدكتور لويس عوض والدكتور عبد الملك ودكتور مصطفى الشكعة عميد كلية آداب عين شمس ودكتور بطرس غالى الاستاذ وقتئذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية والاستاذ الكبير دكتور مصطفى أبو زيد وزير العدل السابق ودكتور عبد العزيز كامل نائب رئيس الوزراء الاسبق ٠٠ اتصالات كل هؤلاء كانت بمثابة الوقود الذى أعطى الطاقة لدفع العلاقات وقتئذ الى الامام فى قوة وحماس ٠

أما زيارات فضيلة الشيخ متولى الشعراوى ومحاضراته بالخرطوم فقد كانت خيرا وبركة لفت حول مصر الناس واعدة بازدهار المستقبل ٠

والمرحوم الامام الاكبر شيخ الجامع الازهر فضيلة الشيخ عبد الرحمن بيصار كانت له محاضرات اعتزت ولا تزال تعتز بها جامعة أم درمان الاسلامية ٠

ومن الزيارات التى أسعدتنى ووقفت بها على مالم أكن من قبل محيطا به ــ زيارة غبطة البابا نيقولاس بابا الاروام الارثوذكس الى الخرطوم فى ٢٣ــ١ــ١٩٧٩ فقد وجدتنى استقبله وأحتفى به بجانب سفير اليونان مع ووسط كل الجالية اليونانية بالخرطوم لانه وفق التقاليد القديمة ــ على ما علمت ــ يحمل جواز سفر دبلوماسى مصرى ٠ (١١)

---

(١١) بلغ من النفوذ الروحى لمصر المسيحية انها كانت ترسل الاساقفة

وممن أسعدنى لقائهم بالخرطوم دكتور يحيى الجمل الوزير السابق والمرحوم الوزير السابق فؤاد شريف ٠

كل هؤلاء توسطت زياراتهم ومهامهم بالخرطوم زيارات كل الوزراء وأعضاء مجلس الشعب ورؤساء القطاع العام ومديرو البنوك وكبار العسكريين ورجال البوليس وعلى رأسهم دكتور عبد الكريم درويش مدير اكاديمية البوليس وبطبيعة الاحوال فى المقدمة الوزراء المصريون لشئون التكامل الذين عاصرت منهم وزيرا جديدا كل سنة من سنواتى الخمس بالخرطوم مما كان له فى الواقع تأثيره البالغ فى تغيير فلسفة التكامل مرة كل سنة ٠

لقد عاصرت من وزراء شئون مصر المرحوم دكتور حافظ غانم والمرحوم المهندس دكتور عبد العظيم أبو العطا ودكتور عبد العزيز حسين ودكتور عثمان بدران والمهندس عبد الهادى سماحة الوزير الحالى للرى وشئون السودان ٠

وكانت زيارة غبطة البابا شنودة الثالث بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية فى ١٥ فبراير ١٩٧٨ من الزيارات التاريخية التى لا تنسى ٠ (١٢)

ومن المحافظين المصريين الذين سعدت بلقائهم فى الخرطوم محافظ اسوان فى ٨ ديسمبر ١٩٧٨ عندما قدم لاجتماع منطقة التكامل (النوبة) ومحافظ القاهرة سعد مأمون الذى

الى ما حولها من البلاد حيث كانت لها فى كل بلد مكانة ممتازة ٠ تبعت الكنائس فيها للكنيسة فى مصر ٠ فالمطران المصرى فى الحبشة كان رئيسا للكنيسة الاثيوبية (كان ذلك الى وقت قريب عاصرته عندما كنت مستشارا بالسفارة فى اديس ابابا فى نهاية الخمسينيات) والاسقف فى قبرص ورودس كان مصريا ٠ وتبعت المسيحية فى النوبة كنيسة مصر حتى نهاية حكم المماليك ٠

(١٢) يراجع ما سوف اخص به هذه الزيارة فى « سبقت حاجتى حبى » ٠

وقع متحمسا مؤمنا بالتكامل وثيقة توأمة بين القاهـــــرة والخرطوم فى ١٤ فبراير ١٩٧٩ (١٣) ٠ ولقد كانت زيـارته احدى وسائل الجذب الفعالة ٠ أما محافظ طنطا الســــيد القصبى فقد تعددت لعلاقات طائفية دينية تربطه برجال الدين بالسودان زياراته مما وثق الرباط بيننا فى مجال متسع الافاق فى السودان ٠

ووزيرنا دكتور بطرس غالى له ضعف ازاء السودان فقـد رأيته ـ كما سبق الذكر ـ استاذا ثم عدة مرات بوصفه وزيرا للخارجية ٠

ومن لقاءاتى المتعددة التى اذكرها بحكم الوظيفـــة لقائى برئيس وزراء مصر السيد ممدوح سالم والسيد دكتور مصطفى خليل ، لقد وجدت فى الاول انطلاقا بالعلاقات نحو خلــــق الجديد وفى الثانى دفعات نحو البدء بالموجود ٠

وشهد السودان ولا يزال يشهد مصريين اخرين أجـــــلاء خدموا فيه أو لا يزالون : شهدت أنا شخصيا منهم دكتـــور رمزى ستينو نائب رئيس الوزراء الاسبق مديرا للمنظمـــة العربية للزراعة ومن بعده الوزير السابق دكتور محب زكى ٠ كذا المرحوم دكتور حسن بغدادى الوزير السابق والمرحـــوم دكتور محمد عبد الغنى مدير جامعة القاهرة فرع الخرطـوم ومن بعده الدكتور ابراهيم العدوى ٠ ومن قبلهما دكتـــور طلبه عويضه (الذى تذكر الناس بالسودان الافضال العديدة له لدى بدء انشاء الجامعة) ودكتور عبد العزيز حســـين

---

(١٣) لو حسبنا المدن بأعمارها لوجدنا القاهرة وعمـــرها الف سنة والخرطوم وعمرها لم يتعد المائتين تســتحيل التوامة بينهما الا اذا عنينا بالتوامة توامة المصير المشترك ٠

الوزير السابق ودكتور عثمان بدران الوزير السابق ورئيس الهيئة العربية للاستثمار والانماء الزراعى اليوم ٠

ويتولى حاليا منصب مدير مكتب البنك الدولى فى الخرطوم دكتور شوقى فرج وكان مدير مكتب الامم المتحدة للاعلام دكتور رجاء مرسى الذى يتولى حاليا نفس المنصب بالقاهرة ٠

ولم تهدأ الاجتماعات الدورية للجان الوزارية المشتركة فى مجالات التعليم والبحث العلمى والصحة والتشريع والتجارة والشئون المالية والزراعة والرى والنقل النهرى والبحرى والجوى والصناعة والشئون الدينية والسياحة والشباب والعمل والثقافة والاعلام ٠

كذا مجالس ادارات الهيئات والشركات المشتركة التى أنشئت فى ظل السنوات الخمس الأولى للتكامل وكان يرجى منها الكثير كشركة الاستثمار المصرية السودانية والشركة السودانية المصرية للتكامل الزراعى والشركة الافريقية العربية للمياه الجوفية والهيئة المصرية السودانية الدائمة المشتركة لمياه النيل والشركة المصرية السودانية لاعمال الرى والانشاءات ، والصندوق المشترك لتمويل دراسات الجدوى والشركة السودانية المصرية للتعدين ٠

ومن أبرز انجازات هذا العهد قيام المنطقة المشتركة على الحدود المصرية السودانية والتعامل بالجنيه المصرى والجنيه السودانى فى هذه المنطقة ، والاتفاق على ازدواج الجنسية وتسهيل انتقال المواطنين والاتفاق على البدء بزراعة مليون فدان والتدرج فى الغاء الجمارك وترتيبات الغاء اتفاق الدفع بين البلدين ووضع خطة للتكامل والبدء فى انتاج مشترك

للحوم والاعلاف ودراسة مشروعـــات الطـــيران الزراعى والاسمدة والتبغ والتبن والشاى والزيتـــون وبدء مشروع قناة جونجلى ومشروعات الجسور ودراسة ربط سكة حديد مصر بسكة حديد السودان وانشاء مصنع مشترك لعـــربات السكة الحديد ودراسة طريق برى والتوسع فى النقل النهرى والبحرى والتعاون على الصناعات الجلدية وصناعة الســكر والعطور والكحول والصودا الكاوية والجـــرارات وحفظ الاغذية والغزل والنسيج والورق والاخشـــاب والزجـــاج والاسمنت ٠

وكان من أجل الانجازات التوسع فى المـــدارس المصرية وجامعة القاهرة فرع الخرطوم وانشاء مركز ثقافى مصرى٠

وشهد التعاون بين المصريين والسودانيين فى هذا العهـد خلال ـ شهر العسل ـ أوثق تعاون فى مجالات الصحة والعمل والتعاون وفى استيراد الدواء واعارة الاطباء (وصلوا الى القرى وحتى الجنوب بالسودان) والتدريب والـــزيارات العلمية والكثير الكثير جدا فى مجال التأمينات والوعـــظ والارشاد والثقافة والاعلام والشباب والتنسيق بين القوانين والاتفاق على تقنينها على اساس احكام الشريعة الاسلامية ٠

★★★

باشرت مهمتى بالسودان وسط هذا البحر الزاخر العـامر مدفوعا بالمشاعر القوية والحماس الدافق ٠ وقد استمر الامر معى على هذه الحال حتى نهاية الخمس سنوات التى قضيتها بالسودان ناعما بهذه المشاعر منفعلا بهذا الحماس ، أسـبح وسط مياه هذا البحر فى نشوة وقوة ٠

ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه فقد ساءت العـلاقات

بين الرئيسين السادات ونميرى فى نهاية عام ١٩٧٩ وكان من اثارها استدعائى الى القاهرة تحت عذر الاجازة (١٤) ٠

وللتاريخ لم يكن ما أصاب العلاقات بين مصر والسودان ـ وقد كانت على هذا الاتساع ـ من انهيار فجائى يعود الى فتور أصاب التجارة المتبادلة أو تعاون الشعبين ثقافيا أو صحيا أو رياضيا أو اجتماعيا فقد كنا على قمة التفاهم ـ كما رأينا ـ فى كل هذه المجالات ، ولكن الامر فى الواقع كان مرده اسرائيل بعد اتفاقات كامب دافيد عندما أقتضى تنفيذها تطبيع العلاقات مع هذه الدولة توطئة لحضور سفير اسرائيل الى القاهرة ٠ (١٥)

لم يستطع الرئيس نميرى فى هذا الوقت أن يتقبل وجود سفيره بالقاهرة بجانب سفير اسرائيل بها ٠ ومما زاد الطين بلة ما أثير بشأن تفسير التصريحات التى أدلى بها وقتئذ بشان توزيع مياه النيل والاستعانة بخبرة اسرائيل فى هذا المجال الامر الذى لم يستطع الرئيس نميرى هضمه ٠

أثار الرئيس نميرى المساس بقدسية النيل وطلبنى للمقابلة فى أول ديسمبر ١٩٧٩ غاضبا٠ وفى المقابلة علا صوته واحتج وكنت دقيقا عندما نقلت غضبته كما لمستها الى مصر فى برقية

---

(١٤) فى كتاب أعد مادته فى الوقت الحاضر عن مذكراتى طوال خدمتى بالخارج تحت عنوان : « حكايات من مفكرتى » تفصيل لهذا الموضوع ٠

(١٥) قبل السودان اتفاق كامب دافيد على أنه يمثل خطوة واقعية على طريق السلام ولكنه أبدى عدة ملاحظات لا تحفظات تتعلق بغموض الاتفاق وعدم شموله مسالة القدس ٠

رمزية مسهبة كان من نتيجتها استدعائى على الفور (١٦) ٠

وهكذا بدأت العلاقة ـ للأسف البالغ ـ تسـوء بين مصر والسودان وتتجمد أوجه تعاوننا المشترك بعد أن كدنا ان نكون على ضفاف النيل أقوى تجمع بشرى متكامل ٠

لا شك ان المتربصين بمصر أفزعهم هذا الالتحام بالسودان لقد رأوا فيه امتدادا ـ لو تدعم ـ لمنحها الساعد الـذى به يمكن ان يبطش الكف ، فدبروا ما دبروا ٠ وعدت الى القاهرة وفى ذهنى الكثير من الذكريات وفى قلبى أكثر أنشـد كأى عربى سلواد الغناء :

أيهـا العين أبصرى   انما كنت فى حـلم

---

(١٦) عن ماء النيل قال الرئيس حسنى مبارك فى حديث له امام الهيئة البرلمانية للحزب الوطنى فى ٩ مارس ١٩٨٢ « احب ان اقول لكم ان مصر فى حاجة الى كل قطرة ماء من مياه النيل ولن تذهب قطرة مياه الى خارج حدود مصر ٠ »



٢

مثل النعامة لا هي طير ولا هي جمل

أخذت بعد انتهاء مهمتي في السودان أراجع نفسي وأتذكر أيامي به • رأيتني أقرأ عنه الكثير حتى أني ندمت أحيانا خلال قراءاتي أني لم أفعل ذلك خلال عملي ولكني في كل مرة أشعر فيها بذلك الشعور... أحمد الله أني لم أفعل فربما لو استغرقتني القراءات القديمة وتقديرات المواقف التاريخية لتغير اسلوب عملي ومنهج تفكيري فأفسد على نفسي الامور التي أعتقد أنها وضحت وازدهرت بالفطرة في معالجتها ودوافع الغريزة ودفع العلاقات العضوية التي تربطنا بالسودان دون احتراف أو اصطناع مهارة •

على أني وقد بدأت أقرأ بعد أن سحبت من يدي عصنا المايسترو أخذت أحاول أن أربط الحاضر بالماضي من واقع التجربة ، وانظر الى انجازات التكامل من خلال عدسة التاريخ واطار مواقعنا وتوزيعنا على ضفاف النيل : أقواما وسلالات، قبائل ولغات ، أخلاقا وعادات •

★★★

السودان ـ كما قرأت ـ لفظة مشتقة في اللغة من كلمة شاب التي نحتت منها كلمة السود (بفتح السين وسكون

الواو) بمعنى السفح المستوى من الارض ، والسودة (بفتح السين وسكون الواو) الارض المزروعة نخلا · والسواد خلاف البياض والسودان يعنى جيل من الناس · (١٧)

وقد أطلق العرب لفظ السودان بعد الاسلام على الممالك الافريقية الاسلامية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى حتى الحبشة ·

والسودان الذى نعرفه ليس غريبا وهو المحدد شمالا بخط ٢٢ درجة من خطوط العرض عند حلفا والمحدد جنوبا بخط ٤ من خطوط العرض عند نيمولى على حدود أوغندا ، وقد سمعت أن بهذه البقعة نيمولى تمثالا للزعيم الراحل جمال عبد الناصر يطل فى منظر أخاذ على مساقط المياه بها ·

وتجاور السودان وهو ربع مساحة أوربا ثمانية دول : مصر وليبيا واثيوبيا وكينيا وأوغندا وزائير وتشاد وجمهورية أفريقيا الوسطى ، أهمها بطبيعة الحال مصر التى أدت دورا هاما مع السودان فى التاريخ القديم ولا تزال تؤديه حتى وقتنا الحاضر · الامر الذى اضطر السودان وسيضطره دائما الى أن يتجه فى سياسته نحو التقارب مع هذه الدول وأن يعلم أنه لا مناص له وان ساءت علاقاته مع بعضها احيانا الا أن يسعى لهذا التقارب وحسن الجوار طال الزمن أو قصر · وقد قيل في هذا الشأن أن سياسة السودان منذ استقلاله ١٩٥٦ مبنية على هذا الاساس تدور حول محور : المنافع قبل العقائد · فالسودان وسط هؤلاء الجيران من أكبرهم مساحة حيث يضم مليون ميل مربع تمثل فى

---

(١٧) قاموس المنجد · و « بلاد السودان » لدى الجغرافيين العرب فى العصور الوسطى هى النيجر وتشاد وبقية اراضى السافانا غرب افريقيا حتى الاطلنطى ·

الواقع أكبر عمق قارى فى القارة اقتضى منه الحذر والحرص بل الشك والريبة احيانا فى نوايا من حوله مما كان يضطره الى التعامل معهم على مدى السنوات منذ الاســـتقلال على مدى علاقتهم مع القوى العظمى من ناحية ومدى ما يمكن ان يقدمونه له عن طريق هذه القوى من ناحية أخرى ٠

وقد قاست مصر كثيرا ـ رغم علاقة الشعبين العضوية ـ من هذه الحساسية المفرطة من جانب السوادن ازاء جيرانه أو (المركب النفسى) الذى أسفرت عنه أحداث التاريخ بين الشعبين بسبب هذا الجوار بينهما بالذات ٠

غير انه مهما كان الأمر فقد كانت مصر دائما ـ كما كان السودان ـ على قناعة بأنه مهما طرأ هبوط على العلاقات بين الشعبين فهو هبوط عارض ، وانه مهما أصاب العلاقات جفاء فهو جفاء عارض على أساس ان سوء الظن من المستحيل ان يكون بين جارين وان كان سوء الظن أحيانا من حســـن الفطن ٠

هذا السودان الذى لم يكن يعرف الا بالسودان المصرى الانجليزى يعتبر من أغنى الدول وأفقرها فى نفس الوقت ٠

يقرر العلماء ان ارضه الخصبة المقدرة بمائتى مليون فـدان يمكن أن تغل للعالم كله أنواع المحاصيل وان تكون للعـــالم العربى على نحو خاص سلة غذائه الوحيدة فيما لو استثمرت أراضيه بما يكفل زراعة وصناعة ونقل هذا الانتاج ٠

ولعله يمكن ان يقال انه وان كانت مصر هبة النيل فالسودان هبة النيلين عنـــدما يحتضـــنه هذا النهر بذراعيه الازرق والابيض (١٨) ليبث النماء بينهما ٠

---

(١٨) سمى النيل الازرق بالازرق للونه الاسمر الاحمر فى زمن الفيضان، والازرق السماوى فى زمن التحاريق ٠ اما النيل الابيض فهو افتـــح من الازرق بالمقارنة ٠

وحيث لا تمتد الذراعان يسقى المطر بقيــة الارض الى أن ينقطع عطاؤه ٠

والمراعي والغابات بالسودان يمكن إن تمد العالم بموارد حيوانية ومائية لا حدود لها ، وتعتبر السـودان ضمن أكبر دول العالم بالنسبة للمراعى والغابات ٠ (١٩)

والسودان غنى تحت الارض أيضـا ٠ ولعلنا لا نزال نذكر انه بحثا عن الذهب سعى محمد على باشا الى السودان ؟

واليوم بجانب الذهب والنحاس يستخرج الحديد الخام والمنجنيز والزنك والجـــرافيت والكروميوم والسبـــلفور والاسبستوس وتجرى أبحاث لاكتشاف البترول الذى ظهرت بوادره مؤخرا ٠ ويقال أن الامل فيه كبير وان كان التنقيب عن البترول قد بدأ يثير المشاكل بين شمال السودان وجنوبه اذ تبدو احتمالات ظهوره فى المناطق بين الجنوب والشمال التى يصعب تقسيمها بحدود ادارية ٠

ولكن هذا الغنى لم يغن السودان أو يوفر له أسباب تنميته فلا يزال السودان بحاجة وبحاجة الى كل شىء لاستثماره فالايدى العاملة قليلة وغير مدربة ووســائل الاتصـال بين أرجاء الســودان لا تفى باتصـالات العصر ٠ والمشروعات الاساسية للبنية الاقتصادية غير كافية على الاطلاق لاحجام رءوس الاموال الاجنبية والعربية عنها لبطء عائدها من جهة ، أو للخشية من الاقدام عليها لاسباب مردها أساسـا عدم الاستقرار أو عدم الوفاق سياسيا من جهة أخرى ٠

---

(١٩) هذا الغنى فى الثورة الحيوانية أصابه مؤخرا كما اصـاب كل شىء ـ للخلل الاقتصادى العام ـ الشح فى الانتاج والتصدير مما اضطر الرئيس نميرى فى احد خطاباته أن يبرز المشكلة منذرا السودانيين فى حالة استمرارها بالحد من تصدير الجمال الى مصر وتوجيهها للاستهلاك المحلى مما اثار السودانيين فهتفوا مستنكرين هذا البلاء ٠

ومن خلال الجهود الفردى المحدود والاتجاه يمينا ويسارا ومحاولات المشروعات المشتركة والدولية ومساهمات الامم المتحدة من خلال كل ذلك كان السودان يتلفت نحو مصر دائما ويتلفت اليها اليوم لعلها تعاونه بحكم القربى والجوار ٠

★★★

ورحت أبحث عن بقية اسباب الفقر رغم الغنى فوجدتها ما ذكرت ـ للأسف كثيرة ٠

وجدت السودان ـ هذا النموذج المصغر لافريقيا ـ ورقعة جافة رغم وفرة الماء والتراب ٠٠ وجدته يعانى لاتساع رقعته من مناخ قاس وصفه الانجليز بأنه خبيث (٢٠) ٠ وقد قيل ان السودان لايعرف من فصول السنة الا الصيف الذى تتراوح حرارته بين شديدة وأشد ٠ وتسجل الخرطوم أعلى درجة حرارة فى العالم ٠ ومن قسوة الطبيعة على السودان ريح السموم التى تهب على شماله وقد وصفها نعوم شقير فى موسوعته عن السودان (٢١) بقوله : « تزحف هذه الريح وتشتد وتدور على نفسها حتى تضمحل فيأتى غيرها وتسمى عندهم بالعصار ٠ وفى آخر الصيف وأول الخريف تهب الرياح اللواقح فتثير الغبار أمامها بهيئة هائلة فيظهر من بعيد كالسحاب المطبق عليه حمرة أو سواد حتى اذا حلت السحابة فى مكان حولت نوره الى ظلام واضطرت الذين داخل المنازل أن يقفلوا الابواب والنوافذ وينيروا المصابيح ولو فى رائعة النهار حتى تنقشع عنهم ٠ وتثور هذه الريح بشدة وعنف فتقتلع كل ما تمر عليه من الاشجار والابنية الواهنة واذا هبت على النيل أغرقت ما تصادفه من المراكب ٠ وتعرف هذه العواصف عند البحرية (بالتلاقيح) وعند أهل البر (بالهبايب » ٠

---

(٢٠) وراء السودان الحديث بالانجليزية للمؤلف هـ ٠ جاكسون ٠ ماكميلان ١٩٥٥٠

(٢١) جغرافية وتاريخ السودان سنة ١٩٠٣

ووصفها اميل لود فيج فى كتابه عن النيل بأنها من صنع الجن شيطان العرب كما قال ٠

هذه المبالغة فى الوصف قد لا يمكن ان يجرؤ عليها كاتب الآن بعد أن احيطت الخرطوم بالمزارع والشجر ليكون بمثابة الدرع أو الحزام الأخضر حولها ٠ مما جنبها فعلا اليوم من الكثير من هذه الاحوال وقصص (الهبايب) فى الماضى ٠

هذا الجو القاسى بوجه عام لم يحل مع ذلك دون زراعة القطن فى بعض الاماكن والذرة والقمح والشعير والسمسم وقصب السكر والبطيخ والمانجو ٠ ويمكن بالعلم والرعاية ـ ان وجدت اليد العاملة بوفرة ـ ان ينتج السودان تحت شمسه أو فى ظله ـ كل أنواع النبات على أوفر نطاق ٠

والسودان يعرف منذ زمنه البعيد زراعة النخيل والدوم والتمر هندى والجميز وشجر الصمغ (سبعة أثمان انتـــاج العـــالم) واللبان والبخور والحنـــاء والخـــروع والحنظل وبالجنوب المانجو والطباق والبن والشاى ٠

★★★

تعيش فوق هذه الارض بجانب الاغنام والابقار والماعـــز والجمال والحمير والظباء والغزلان زواحف سامة وحيوانات مفترسة أخطرها الاسد ويسمونه الدابى (٢٢) والفيل ويصاد لسنه (العاج) ولجلده فهو لا يستأنس كما فى الهند ،والزرافة والنعامة والضباع وبقر الوحش والذئب والخنزير البرى ووحيد القرن الذى اتخذ السودان رسمه شـــــعارا للدولة عقب الاستقلال (٢٣) ٠

---

(٢٢) يطلق على الثعبان الدابى ايضا ويطلق البعض على التمســـاح اسم الدابى كذلك ٠

(٢٣) تعدل الشعار بعدئذ واستبدل به النسر ٠

والطيور على جميع أنواعها وأشكالها صغيرة وكاسرة ومغردة وجارحة ·

أما القردة فهى فى الغابات بأنواع كثيرة ومن الزواحف السلحفاة والتمساح ويؤكل لحمه وفيه منافع عدة والورل والحرباء والوزغة والضب (وهو البرص) (٢٤) والعقرب والنمل بجميع أنواعه · على أن أشهرها الثعبان (الاصلة) (٢٥)وهى من الثعابين غير السامة الا أنها ضخمة الحجمتبلغ منالطول ثلاثة أمتار أو أكثر أحيانا وجسمها مغطى بقشور سمكية ويكثر وجودها فى الفيافى فى تجاويف الاشجار وتصاد لجلودها المعروفة ويقال أن دهنها يستعمل لنعومة البشرة وطراوتها وأنه يزيل النمش لدى البيض من الناس ·

والذباب كثير · والناموس فى أعالى النيلين الابيض والازرق يحمل أكثره جراثيم الملاريا · (والنامته) نوع صغير جدا من الهوام تكثر بعد الغروب حتى تكاد تطفىء الانوار فى بعض الاماكن من شدة تهافتها عليها وهى تحيط بوجه الانسان من كل جانب داخل أنفه وفمه وعيونه ·

★★★

وكنت بالسودان دائما أتساءل ، هل هم عرب تغلب فيهم الزنجية ؟ أم هم زنوج تغلب فيهم العروبة ؟

ويبدو ان حكومة السودان نفسها عرضت لنفس التساؤل (بنصه اللفظى) عندما أصدرت وزارة الشئون الاجتماعية

---

(٢٤) ابتدعوا له خرافة تحميه ·

(٢٥) الاصلة هى الهة النصر عند زنوج افريقيا (مع الحيات للاستاذ فرج زين الدين ١٩٤٥) ويصطادون الاصلة فى السودان عادة بربط عنزة خلف جدار فتحت فيه كوة ضيقة لا ينفذ منها جسم الاصلة الا بمشقة · فاذا نفذت بمقدمها وابتلعت العنزة وهمت بالرجوع ضاقت عنها الكوة وظلت رهينة حتى يدركها الصائد فيقبض عليها ·

(مصلحة الاحصاء) في يوليو ١٩٥٨ أول تقرير منشور لها عقب الاستقلال عن السكان فى السودان وتعدادهم • (٢٦)

وقد كانت الاجابة على التساؤل حتى عهد قريب تتصبـــــل بسؤال آخر : ما هى قبيلتك لا جنسيتك ؟ فحتى وقت قريب كان اسم القبيلة هو الذى يدرج بوثيقة السفر وعلى أســاس التوزيع القبلى كانت توزع الوظائـــــف ويتم القبول بكلية جوردون •

وقد استمر الحال كذلك الى أن اختلطت القبائل وتولدت عن الاختلاط فروع جديدة أطلق عليها وصف « المولدين » وهم الذين كانوا غالبا ثمرة التزاوج بين العرب والسود • وكان لفظ المولد يذكر فى خانة الجنسيه بسبب الوضع الشاذ الذى كان عليه السودان قبل الاستقلال •

وقد قسم بعض المؤرخين القدامى سكان السودان الىخمسة أصول رئيسية : : السود وهم الزنج سكان افريقيا الاصلاء وهم يسكنون جنوب السودان وأهم قبائلهم الشلك والدنكـــا والنوير والبور والبارى والزندى والبنجو والمـــورو (٢٧)، وشبه السود ومعظمهم يسكنون غرب السودان فى دارفور ومن

---

(٢٦) تنظر صفحة ٢١ من الترجمة العربية للتقـــــرير الذى نشر تحت عنوان « عشرون حقيقة وحقيقة عن السودانيين والزنج فى قـــاموس العامية فى السودان للدكتور عون الشريف هم قوم من السودان •

(٢٧) وكلها تعرف بالقبائل النيلية ويلاحظ أن افراد قبائل النوير طوال القامة لدرجة قصوى وتميزهم بروزات الوشم على طول الجبهة • ومـــن عاداتهم نزع الاسنان الستة السفلى على عكس الدنكا الذين ينزعون اربعة أسنان والشولوك الذين ينزعون سنين فقط • وكانوا قديما وربما لايزالون يطهرون جروح الوشم واثار نزع الاسنان بدلكها بالرماد وروث البقر ومن الغريب انها كانت تشفى •

قبائلهم الفور والكنجة . والاصل الثالث ينتمون الى البادية، بالصحراء الشرقية بين النيل والبحر الاحمر وأهم قبائلهم البجه والعبابدة والبشارية ..

والاصل الرابع هم سكان النوبة بين الشلال الاول والرابع وقد قيل انهم خليط من أهل النوبة الاصليين والعرب والاتراك . ومن أهم قبائلهم الدناقلة والمحس (بفتح الميم والحاء) والكنوز .

أما الاصل الخامس فهم العرب وهم معظم سكان السودان وقد هاجروا اليه بعد الاسلام عن طريق مصر والبحر الاحمر ودرب الاربعين ومن أشهر قبائلهم الشايقية والمناصير والرباطاب والميرفاب والجعليين والعبابدلاب والقواسمة والفونج والهمج (بفتح الهاء والميم) (٢٨) ومن القبائل العربية كذلك الحمران والهندوة والرشايدة .

ويردد السودانيون قصة شبيهة بقصة قيس وليلى عندما يعرضون لحديث القبائل العربية (٢٩) فيقولون إن نساء قبيلة الحمران كن من أجمل نساء السودان وأشهرهن تحصنا وعفة وكان من بينهن امرأة تسمى تاجوج (ابنة شيخ القبيلة) وصفت بأنها جوهرة البادية أحبها ابن عمها محلق (بتشديد الفتحة على اللام) .

وفي يوم من الايام طلب اليها أن تتمشى أمامه عارية متجردة من كل ثيابها فأبت فألح عليها وهنا قالت اذا أجبتك الى طلبك فماذا تفعل ؟ قال ما تريدين ! وفعلا تجردت من ثيابها

---

(٢٨) على غير المدلول المصرى للكلمة فقد كان وزراء الفونج ايام دولة سنار القديمة يطلق عليهم اسم الهمج .

(٢٩) للتدليل على الاصل العربى وتعتبر القصة اليوم بالسودان من الفولكلور السودانى أو التراث وقد فصل القصة كتاب عنها للاستاذ محمد صالح ضرار تحت عنوان « المحلق وتاجوج » .

ومشت أمامه عارية تماما الى أن أوقفها وسألها ماذا تريد ؟ فقالت أن تطلقنى فورا ! فطار صوابه وسألها العفو ولكنها أصرت أن يبر بقسمه فطلقها وهام على وجهه الى أن أضناه الوجد فذهبت اليه تقول : (الى هذه الحالة صرت يا حشاى وأنا لا أدرى » ووضعت رأسه على فخذيها ولكنه شهق وأسلم الروح · وصارت تاجوج بعد ذلك رمز الحب والعفة حتى أثارت الفتنة بين القبائل فطعنها أحد المشايخ بحربة فى صدرها وماتت » ·

ومنذ ماتت تاجوج أصبحت مثالا للجمال ورمزا للعشق حتى اليوم ·

وبكردفان تسكن قبائل الكبابيش والبقارة والتعايشة الذين منهم عبد الله التعايشى خليفة المهدى الاول ·

لكل هذه القبائل ينتمى شعب السودان الذى قدر تعداده اليوم بثمانية عشرة مليون نسمة (٣٠) قدرت نسبة أفراد القبائل العربية اليها بـ ٣٩٪ · .

على أنه مهما كان أمر هذا الهيكل القبلى فان السودانى الآن لا يشعر به الا بقدر ما يشعر به الاسكتلندى أو الباسكى أو البافارى بالنسبة لوطنه الكبير ·

ثم ما هو الامريكى ؟ بل ما هو اليوجوسلافى ؟ وعن يوجوسلافيا يقولون انها دولة واحدة ولكنها تستعمل أبجديتين (لاتينية وصربية) وتتكلم بثلاث لغات (الصرب والكروات والسلوفينيان) وتعتنق أربعة أديان (الاسلام · الكاثوليكية · الارثوذكسية · اليهودية) وتضم خمس قوميات (السلوفينيان · الكروات · الصرب · موتننجوو · ماسيدونيان) وتجمعها ست جمهوريات وتحيط بها سبعة جيران · بهذا المفهوم يمكن أن نعرف ما هو السودان ·

---

(٣٠) قدر تعداده سنة ١٩٤٩ بثمانية ملايين ونصف ·

على أن زحف الجنوبيين الى الشمال أو من السافانا الى مكة الذى بدأ يتزايد منذ أتفاق الوحدة وهجرة التشاديين وغيرهم من غرب السودان (الفلاتا) أخذ يؤثر بعض الشىء على توازن مكونات هذا الهيكل القبلى بالسودان ٠

أما المصريون فهم يشكلون أكبر امتزاج بالسودان وقد قدر عددهم بقرابة المليون سودانى من أصل مصرى ٠

والسودانيون المغتربون قرابة المليون بات معظمهم ينافس المصريون الآن فى دول الخليج وبأفريقيا وفى المنظمات الدولية نتيجة الاحداث السياسية الاخيرة التى اثرت على (تداول) المصرى المتعلم كعملة قابلة للصرف فى كل مكان على عكس المصرى العامل والفلاح فلا يزال مطلب كل الدول العربية دون منافس لافتقارها أليه نقصا فى عمالتها أو انعداما للعمالة الفنية فيها ٠

وقد قدرت فى عام ١٩٨١ مدخرات السودانيين فى المهجر التى حولت الى السودان بما يربو على المائتى مليون جنيه استرلينى ٠

ولا يزال بعض السودانيين يطلقون على العرب والمصريين (أولاد الريف) كما كان يفعل أنصار المهدية فى بداية حركتهم عندما كانوا يسمون المصريين والاتراك والمغاربة والشـــوام أولاد الريف لدخولهم السودان من ريف مصر وكانت تسمى حلفا القديمة لذلك « حلق الريف » ٠

★★★

يتحدث هؤلاء الاقوام بما قدر بأكثر من مائتى لغة مختلفة أو رطانة بمعنى أصح ٠ ومن أهم اللغات لغة النوبة وهى رطانة قيل انها خليط من الفرعونية والاثيوبية ، ولغة البجة وهى من اللغات الحامية ، ولغة الجيز وهى لغة اكسوم القديمة بجانب لغات الجنوب التى تتعدد بتعدد القبائل ٠

على أنهم يتعاملون كلهم باللغة العربية أساسا كلغة رسمية

ولغة للتجارة فليس بالسودان لغة تكتب غيرهـــا • والثقافة الغالبة هى الثقافة العربية •

والرأى لدى المؤرخين ان اللغة العربية هى التى وحدت هذا القطر المختلف القوميات وأنها ستكون دائما أقوى عامل على تنميته ككل فى مستقبل أيامه ممـــا يمكن أن يعبر عنه بالسيادة اللغوية •

والعربية (الركيكة) التى يتحدث بها أهل الجنوب الآن باتت هى وسيلة اتصالهم رغم تعدد قبائلهم ولغاتهم فلم تعد اللغة الانجليزية كما كان الحال قديما هى وسيلة التفاهم بين القبائل • وهناك اتجاه قد تم بحثه قديما يطل من وقت الى آخر برأسه ، غايته كتابة هذه اللغة العربية (الركـــيكة) بالحروف اللاتينية التى تحرربها أيضا بقية اللغـــات القبلية الاخرى • وقد قيل ان هذا الاتجاه يستهدف اهدار مكانة اللغة العربية أساسا •

واللغة العربية (السودانية) غنية فى عاميتها حتى ان الاستاذ الدكتور عون الشريف قاسم وزير الشئون الدينية السابق بالسودان والكاتب المعروف نشر قاموسا للهجة العامية فى السودان من ٨٥٢ صفحة (٣١) حلىء برواسب اللغـــات المندجرة أو الميته كالفرعونية والنوبية والقبطية والزنجيـــة والبجاوية •

ومن أمثلة هذه العـــامية التى تستـــترعى انتبـــاه الزائر المصرى فور وصوله السودان السؤال عن اســـــمه مثلا

---

(٣١) قاموس اللهجة العامية فى السودان تأليف دكتـــور عون الشريف قاسم من نشر شعبة ابحاث السودان بجامعة الخرطوم بالاشتراك مع المجلس القومى للاداب والفنون بجمهورية السودان ـ ١٩٧٢ وقد ذكر المـــؤلف فى كتاب اخر عن العامية ان اللهجة السودانية قد اخـــذت من كل شىء بل ان دراستها توضح التطور السياسى على اعتبار ان السودان او منطقة حوض النيل المتوسط هى مثال لعملية التلاقح والانصهار •

(اسمك منو ؟) وعندما يقال له ان ينتظر (ارجانى) وعندما يطلب منه ما يريد (تدور شنو) ، وعند التعبير عن الترحيب به (حبابك عشرة) ٠

والرجل هو (الزول) والقرية هى (الحلة) وعندما يذهب الشخص فهو (يشيل مكانه) والسرير (عنجريب) واذا تزوج الشخص فقد (عرس) (والوطا) هى الارض (والبسطة) هى المجاتو والشطة حارة (لا حامية) و (هسع !) بمعنى هذه الســــــاعة (والترك) هم كل البيض وعندما يقولون (التركية الأولانيــة) يقصـــدون الحكم المصرى حتى الغزو الانجليزى ٠

وضرب أحد الكتاب من السودان مثالا للغة العامية القديمة بالسودان بنص كتاب بعث به عبد الله التعايشى خليفة الامام المهدى الى أحد أمراء السودان يدعوه فيه الى أم درمـــــان جاء فيه :

« ٠٠٠٠ بعدين كتبنـــا الورقة اليك تمشى الينا وولداتك وتيجى قوام لى بمكان المهدى السبح ٠٠٠ اسمع كلامى تعال قوام قوام ٠٠٠ النساء السمحات كثار أخير من نسوانكم ديل هدومهن سمحات الاكل كتير العسل كتير اللبن كتير العطش مافيش الجوع مافيش ٠٠٠ احضروا قوام قوام اخير لكم » ٠

ومن العامية السودانية كذلك التى تلفت سمع المصرى لدى بدء زيارته للسودان استعمال السودانيين لفظة (السمحة) للمرأة الجميلة (والزين) للحسناء (والخعـــــير) للقبيحة (والخشم) للفم (والكورع) للساق ٠ ويعبرون عن الحب بلفظة (الريد) (من أراد) والخروف يسمونه (غنماية) مفرد غنم والفول السودانى (هم لا يخبون وصفه كذلك) اسمه (المدمس) ٠ أما المدمس فهو (الفول المصرى) ٠ وورد النيل هو (أم الصوف) والجنزبيل (زنجبيل) ولا أدرى أيهما أصبح

والمياه (مويا) والحر (سخانة) والقط (كديس) (٣٢) والمرأة (مرا) وزوج المرأة (راجلها) والاسبتاليه (استباليه) والكوتشــــينه (كوتشتينه) والمأتم (بكا) والبطيخ (بتيخ) والطباخ (تباخ) والخص (خس) وخرطوم الماء (خرطوش) وهنا يلاحظ التفخيم أو الترقيق فى النطق أو تحريك أواسكان أو قلب أو ابدال حرف بحرف مثل نطق القاف غينا فينطقون مثلا الاستقلال الاستغلال والبقاء البغاء ·

والاسماء التى تطلق على الرجل والنساء غالبا لها معان طريفة مثل (شيل فوت) أى خذ واذهب وجراب الفيل وخير قريب وسوار الذهب وتورشين (أى الثور القبيح أو الذى يشين · على ان أطرف ما سمعت كان اسم مدرسة أطلق عليها أصحابها اسم (مدرسة كمل نومك) !

وبهذه المناسبة قد يكون من الطريف ان نذكر استعمالات السودانيين للألوان فهم مثلا يصفون السودانى الشمالى بأنه أخضر (٢٣) والمصرى بأنه أصفر · والاسود لديهم أزرق · أما الاوربى الابيض فهو أحمر (٣٤) ، ولعل الاصل فى هــذا الوصف الاحمر للأوربى يعود للسان العربى القديم الــــذى كان يصف العجم والروم بالحمرة لغلبة البياض عليهم ومن

---

(٣٢) اغلب حيوانات مصر كانت مقدسة بالنسبة لكل اله · وكانت القطة مقدسة بالنسبة للالهه باست · (الديانة المصرية القديمة للدكتور زكى بدوى ولعلها اليوم تعتبر امتداد للايمان بالتقمص والتناسخ ·

(٣٣) كان العرب يسمون اللون الاسود اخضروسموا الكتيبة خضراء اذا كان رجالها يلبسون الدروع السوداء · ومن الاقوال « ان الحارث بن الحكم تزوج امرأة فراها خضراء فطلقها » اى سوداء وقالوا فى عكس ذلك سواد العراق لخضرته ·

(٣٤) ربما من هنا كانت التفرقة قديما بين السلطنة الزرقاء (السودان) والسلطنة الحمراء (مصر)·

المعلوم ان السيدة عائشة كانت تسمى بالحميراء لغلبة بياضها والمثل الجارى عند العرب بأن (الحسن احمر) قد يقابله اليوم تيه السود بأمريكا عندما رفعوا شعار « الجمال أسود » ! بل لقد سبقهم منذ أكثر من قرن بودلير فى أزهاره عندما قال : « وكأنها أسطورة مقدسة . رأيتها سوداء كالليل » .

★★★

والمتقابلات فى السودان لا تقف عند هذا الحد فهو مسلم شمالا ومسيحى جنوبا بل لا تزال الآلاف من اهل الجنوب لا تعتنق لا المسيحية ولا الاسلام محتفظين بعقائدهم القبلية القديمة .

الأمر الذى اضطر واضعو دستور السودان الحالى عندما نصوا على الاديان فى السودان ان يضعوا فى الاعتبار هذه القبائل (اللادينية) فصاغوا احدى فقرات المادة ١٦ الخاصة بهذا الموضوع على النحو الآتى : « الاديان السماوية وكريم المعتقدات الروحيه للمواطنين لا يجوز الاساءة اليها أو تحقيرها » .

لقد كان تعبير « كريم المعتقدات » مخرجا ذكيا لهذا الوضع الخاص .

★★★

وبالسودان عدا الخرطوم مدن عديدة لكل طابعها المتغير بتغير الاقاليم فمدن ساحل البحر الاحمر مثل بورسودان وطوكر وسواكن (التى باتت لهجرها كالشبح) غير مدن شرق السودان وواد مدنى وسنار والقضارف وكسلا غير مدن الغرب كالابيض والنهود والفاشر ، غير المدن المطلة على المجرى الرئيسى للنيل مثل حلفا ودنقلا وأبو حمد وبربره وعطبرة والدامر وشندى والدويم ، غير مدن الجنوب كملاكال وجوبا وواو . لكل منها سمة البيئة الخاصة بها قد تكون اكثر عربية او اكثر افريقية أو عربية افريقية . على ان كلها تجـر

الزائر الى التاريخ القديم حيث لا تزال فى الكثير من أساليب الحياة تقبع فيه مسترخية بطيئة التطور والارتقاء .

★★★

يوجز دكتور عون الشريف قاسم (٣٥) ما تقدم فى أحسن عبارة اذ يقول :

« السودان قطر مترامى الاطراف يضم بين جنباته بيئات متباينة من حيث طبيعتها الجغرافية والبشرية . اذ تلتقى فيه الصحراء القاحلة بالسهول الممرعة فى مواسم الخريف ويشق وسطه نهر النيل فاصلا بين شرقه وغربه بحزام من الخضرة يهىء المجال واسعا للاستقرار والتحضر مما جعل من مجرى النيل نقطة التقاء لكافة العناصر والتيارات فأصبح بذلك مركز الثقل فى حياة البلاد على مر الزمان . وكلما ذهبنا جنوبا تكاثفت الأمطار واستحالت السافانا الى غابات كثيفة تصعب الحياة فيها الا بعد جهد جهيد . والناس بين هـــذا وذاك ينتحلون مذاهب فى كسب العيش بتفاوت البيئات . فهنـــاك رعاة الابل فى الصحراء وهناك رعاة الابقار فى مناطـــق السافنا وشبه الغابات الى جانب الزراع فى السهول الممطرة وعلى ضفاف النيل وفروعه ووديانه » .

« وهذا التنوع فى مجال البيئة اقترن بتنوع لا يقل عنه أهمية فى مجال التكوين البشرى لسكان البلاد . فهناك العنصر العربى فى شمال البلاد ووسطها ، وهناك العنصر البجاوى فى شرق البلاد ، وهناك العنصر النيلى فى جنوب البلاد ، والفور فى غربها . وقد جاء العنصر العربى ليختلط بكل هؤلاء فى نسب متفاوتة فكان بمثابة القاسم المشترك الاعظم بين مختلف

---

(٣٥) المرجع السابق .

العناصر البشرية مما أكسب السودان الوحدة رغم اختلاف العناصر » ٠

« كل هذا التنوع فى الطبيعة والبشر وجد صداه كذلك فى مجال اللغة ٠٠ أسفر عنه صورة حية للتمازج البشرى العظيم الذى اكسب السودان ما هو عليه من وحدة رغم كل تباين » ٠
وصدق من قال ان السودان بوتقة كبرى ٠



٣
مضـــغ المـــاء

عاصرت فى السودان تنفيذ اتفاق التكامل منذ البداية ٠ وقد كان من الطبيعى ان يكون الحديث دائما عن هذا الاتفاق : دوافعه ، مدلوله ، تكييفه القانونى ، مدى نجاحه ومصيره ٠

وقد أسعدتنى فرصة دعوة كلية القادة والاركان لقوات الشعب السودانى المسلحة لالقاء محاضرة عن التكامل لاحاول بمناسبتها أن اناقش الموضوع مركزا على تكييف الاتفـــاق نفسه وتحليل مضمونه (٣٦) ٠

قلت ولا زلت أقول : ان الحديث عن التكـــامل بين مصر والسودان يجرنا بطبيعة الحال الى التعرض لظاهرة التكامل كظاهرة أخذت تتزايد وتنتشر بين الكثير من الدول الآن فى عالمنا المعاصر ٠

والغاية آخر الامر عقد المقارنة بين صور التكامل المختلفة

---

(٣٦) فى ٢٧ ديسمبر ١٩٧٨ ٠ ويرجى بالنسبة لهذا الموضوع الرجوع للرسالة القيمة التى قدمها المواطن السودانى السيد تاج السر عبد اللطيف مختار للحصول على درجة الماجستير من كلية الزراعة بجامعة الاسكندرية فى ١٩٧٧ ٠

حتى نرى أين يقع ميثاق التكامل بين مصر والسودان بين مواثيق التكامل الأخرى ؟

هل هو ميثاق أساسه روابط النيل والسماء الواحدة وصلات الرحم فقط ؟ أم إنه ميثاق مبنى كغيره على أسس المادة والمصالح الاقتصادية المشتركة المجردة ؟ أم أنه ميثاق من نوع خاص مبنى على كل هذه الروابط والصلات والأسس على اعتبار أن موقعيه أفراد أسرة واحدة تظلهم قبة زرقاء واحدة ويحفها مورد من الرزق واحد ٠

مقارنته بمواثيق التكامل الاخرى تضع امام انظارنا المواثيق الآتية : السوق الاوربية المشتركة (١٩٥٧) ومنطقة التجارة الاوربية (١٩٦٠) ومنطقة التجارة الحرة لدول امريكا اللاتينيه (١٩٦٠) والسوق المشتركة لدول امريكا الوسطى (١٩٦٠) والسوق المشتركة لمجموعة الدار البيضاء (١٩٦٣) والاتحاد الجمركى الاقتصادى لأفريقيا الوسطى (١٩٥٧) والرابطة الاقتصادية الغربية (١٩٥٧) ومنطقة الكاريبى للتجارة الحرة (١٩٦٨) والمجلس الاقتصادى الذى ينظم المعونة الاقتصادية بين الدول الاشتراكية على اساس نظرية توزيع العمل (الكوميكون سنة ١٩٤٩) ، ومحاولة الاتفاق على السوق العربية المشتركة (١٩٦٥) والمحاولة الثنائية للجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا طوال فترة الوحدة (١٩٥٨ ـ ١٩٦١) ٠

بالمقارنة بين كل هذه الاتفاقات التى تستهدف التكامل بين أطرافها على نحو أو على آخر ولاتجاه أو لآخر ، بالمقارنة بينها وبين اتفاقنا مع السودان ، نجد ان اتفاقنا يجبها كلها فقد اقتبس منها ولكنه علا عليها ، ونقل منها ولكنه انفرد بطبيعته عنها ٠

لقد رسم اتفاق التكامل بين مصر والسودان منوالا جديدا

للتعاون وصل بالدولتين الى الحد الأقصى من الاتصال دون الالتحام أو (الوحدة) التى تعقدنا من ذكرها كاصطـــلاح سياسى أو شكل دستورى معين .

لقد ركز إتفاق التكامل بين مصر والسودان على هدف أسمى هو التقدم والرخاء للدولتين عن طـــريق زيادة حجم الانتاج وانتعاش التبادل التجارى بدفع عجلة النمو الاقتصادى اساسا وتجنيد الجهود المشتركة والطـــــاقات البشرية والمادية بين الدولتين فى كافة المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعسكرية .

وضمانا لتعميق وتطوير الروابط بين الشعبين فى كافة هذه المجالات أقر منهاج التكامل قيام عدة أجهزة تضمن استمرار التعاون وتكريس التفاعل ليجعله اسلوبا للفكر بعيـــدا عن الارتجال والانفعال .

فى قمة هذه الاجهزة تأتى اجتماعات القمة الدورية بين الرئيسين المصرى والسودانى مرة فى السنة على الأقـــل للتداول والتشاور والمتابعة .

كما ينص اتفاق التكامل على تشـــكيل لجنة وزارية عليا تكون بمثابة مجلس وزراء مشترك ولجنة سياسية عليا لتنسيق الاتجاهات الحزبية ، ولجنة عسكرية عليا تكون بمثابة مجلس دفاع مشترك لتتولى الشئون العسكرية . تجتمع كل منها بصفة دورية للمتـــابعة واقرار توصـــيات اللجـان الوزارية الفنية المشتركة .

وقد أنشأت الحكومتان لتركيز الجهود وحصر نشاطات التكامل والتنسيق بينهما وزارة لشئون التكامل في كل مـــن البلدين .

ولقد أثمرت اجتماعات لجان التكامل وأخذت تشق طريقها وتدعمه وبدأت انجازات التكامل تبرز مضيئة لخير الشعبين بالرغم من بيروقراطية اللجان الحكومية المشتركة ...

وفى المجال السياسى تكثفت خلال الخمس سنوات الاولى من التكامل ـ وهى فترة عملى بالسودان ـ الاجتماعات والاتصالات على كل المستويات · وقد عقد مجلسا الشعب فى السودان ومصر اجتماعا مشتركا فى القاهرة فى اكتوبر ١٩٧٧ أطلق عليه اسم المؤتمر المشترك لمجلسى الشعب المصرى والسودانى تحت شعار « التضامن من أجل تقدم ورفاهية أبناء وادى النيل » · وعقد المؤتمر المشترك الثانى للمجلسين فى الخرطوم فى يناير ١٩٧٩ تحت نفس الشعار وقد خيل للجميع عندئذ ان الوقت قد حان لانشاء مجلس موحد لوادى النيل بجانب المجلسين الاقليمين على غرار البرلمان الاوربى (٣٧) ·

وكان من أهم انجازات التكامل فى المجال السياسى عقد اتفاقية ازدواج الجنسية واتفاقية حرية انتقال الأيدى العاملة التى لم يسعفنا الوقت للعمل على تنفيذها (٣٨) ·

وفى المجال الاقتصادى بالنسبة للتجارة اتفق على مضاعفة حجم التبادل التجارى ، وانشئت الشركات الاستثمارية المشتركة ، وأعفى المواطنون من قيود تحويل النقل والتنقل وعوملت الرحلات الجوية والبحرية والبرية بين البلدين معاملة الرحلات الداخلية ، وأنشئت منطقة نموذجية للتكامل بين المديرية الشمالية ومحافظة أسوان، وزرعت الاراضى للاستثمار المشترك ، وبدء مشروع قناة جونجلى فى الجنوب للنفع المتبادل واستغلت المناجم ووضعت الدراسات لدفع مشروعات

---

(٣٧) الامر قد تعدى التمنى الى تقدمى بدراسات عن الموضوع فى هذا الوقت ·

(٣٨) لم نتوصل طوال السنوات الماضية منذ توقيع منهاج التكامل للاتفاق على تفاصيل هذه الموضوعات رغم تصريحات الرئيس نميرى والرئيس الراحل السادات عقب كل التقاء بينهما بانهما قد اتفقا على حرية انتقال العمالة بين البلدين وحرية استخدام الاموال بين البلدين بدون عوائق وحق التملك المتكافىء لمواطنى البلدين كل فى بلد الاخر ·

النقل والمواصلات ... والكثير الكثير قد أنجز فى الشـئون الدينية والاعلام والشباب والرياضية والتعليم والصـــحة والتعاونيات والتشريع .

كل ذلك بدأ ونما وأخذت تطلع ثماره وتمنينا بالوفير مـــن الخير ، ولكن التمنى لم يطل فقد حلقت على سمانا غيوم جديدة خبيثة اثارت النفوس وان لم يكن لها صـــلة بعـــلاقات الشعبين .

لقد تجمد التكامل عندما سحبت كل من الدولتين سفيرها على النحو الذى سبق بيانه فى الفصل الاول .

★★★

نعود مرة أخرى الى تحليل اتفاق التكامل وتعريفه بمقارنته ببقية اتفاقات التكامل الدولية الأخرى .

ان التكامل ـ من واقع التجربة ـ على النحو الذى مارسناه يجب ألا يقاس بمقياس تقليدى فهو اتفاق عقد أساســـا بين دولتين معينتين مقفول عليهما . فهو ليس اتفاق تكامل بالمعنى المألوف أو الاصطلاحى . أنه ليس معاهدة متعددة الأطرف أو مفتوحة لانضمام طرف ثالث . انه اتفاق طراز نفســـه ونسيج وحده .

أنه من هذا النوع من الاتفاقات التى يطلق عليها القانون الرومانى أبو القوانين SUI GE NERIS أى اتفاق خاص مميز . فلا هو تكامل اقتصادى فقط ولا هـــو اتفاق يمكن اتساعه ، ولا هو اندماج ولا هو وحدة .

انه جسم خلقناه لنهىء له الامكـــانيات على طول الزمن لتحقيق التعاون بيننا الى أقصى حد دون الاندماج ، لتبقى لكل منا شخصيته فلا يذوب أحدنا فى الآخر .

وكأنه النسر ذو الرأسين الذى عرفته كل من النمسا والمجر قبل الحرب العالمية الاولى لدى اتحادهما .

أنه يمثل الحضارة النيلية بثقافتيها المصرية والسودانية فهو لم يدخل السودان مجردا عن فكرة الانتماء .

وهو - في تقديري - من الممارسة النشيطة لشئونه خلال السنوات الخمس الاولى من حياته كان - ويمكن ان يكون - اصلح صياغة وأسلم وضع لنا وللسودان في ظروفنا الراهنة . (٣٩)

وقد اختتمت محاضرتي التي أشرت اليها عن التكامل بتعبير حماسي لا أزال أشعر بوهجه أمامي حتى اليوم فقد قلت : « ان هذا الاتفاق نابع من تجربتنا . لم نقلد فيه أحدا ولم نتخذ سوابق الدول المعاصرة أشباسا له ، صغناه من واقع طباعنا . لم نستوحه من الغير ولم نحتكم بشأنه الى أحد أو ندعه لحكم أحد . نسيره ونسيرنا . بالتدريج دون طفرة . لا نقيس مداه بمسطره أو انفراجه بالترجل . لأنه يمثل الكيف لا الكم في علاقاتنا مع السودان » .
وهكذا كان التركيب وهكذا كانت التركيبة .

والأمل كبير والامور قد عادت الى مجراها مع السودان (٤٠) أن تدب الحياة في جسم التكامل من جديد .
والود يبقى ما بقى العتاب .

---

(٣٩) يصف الرئيس نميرى التكامل بين مصر والسودان احيانا بانه علاقة متوازنة بين مصر والسودان ، لا هي عداء ولا هي اندفاع ، هي العلاقة الافضل بين السودان ومصر وهي بهذه الصورة للسودان افضل .
(٤٠) اتفق على اعادة تبادل السفراء في مارس ١٩٨١ .

٤

من الماء كل شيء حي

اعجابى الشديد بالمفكر الكاتب سلامة موسى الذى شدت كتاباته فى النصف الاول من هذا القرن الشباب بمصر والسودان ، دعانى الى الرجوع الى مؤلفاته عن مصر لدى اعدادى للكتابة عن ماء النيل ٠

قال سلامة موسى فى كتابه عن « مصر أصل الحضارة » ان الحضارة حياة والحياة أصلها الماء ٠ وليس عبثا أن يسمى العرب منى الرجل ماؤه ، وليس عبثا أن يشتق العرب الحياة من الحيا وهو فرج المرأة ٠

اعتقد المصريون القدماء أن الماء أصل الحياة عندما رأوا أن فيضان النيل يعم البلاد ويخرج الزرع ، عندما رأوا لهذا النهر فضله عليهم ٠ لقد قدسوه وقدموا له القرابين وأنشدوا فى تمجيده الأناشيد واحتفوا بوفائه كل عام ٠٠ كانوا يعتقدون أن مياهه تتفجر من ينابيع الارض أو تجرى اليهم من السماء ، ان شاءت الآلهه أغدقت فيفيض الماء على جانبى الوادى يحمل معه الخير والبركة ، وان هى غضبت استحالت ارض الوادى رمالا جدباء ، وشعب مصر بين الرضا والغضب ينعم حينا ويشقى حينا آخر ٠

جاء فى نشيد أخناتون :

« أنت الذى يعطى الحياة لنا ٠

ولغيرنا خلقت نيلا فى السماء ٠

لنا النيل الحقيقى ينبع من العالم الآخر لأجل مصر ٠

ولغيرنا نيل السماء ٠

فما أجل أعمالك يارب » ٠

ثم ان جميع أساطير الخلق المصرية تبدأ بالمياه ٠ وتحدثنا احدى الاساطير عن اله كان فى ذاته هو الارض التى نشأت من المياه ٠ وعن اله آخر صنع الانسان على صورته ، وهو يسد جميع احتياجات الانسان بترويض وحش المياه الهائل ٠ وهناك عدة أساطير تصور المياه بالالة نون (٤١) الذى من مادته خرجت الحياة ٠

كذا كتب التاريخ لذلك النهر الخالد أن يحمى بمائه موسى عليه السلام بعد مولده عندما أوحى الله الى أمه « أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » (٤٢) .

بهذا الايمان القديم الكامل فى النفوس ما كادت تستقر ثورة مصر ويستقل السودان ويعود النيل لأهله الا ويكون أول عمل مشترك لهم هو الاتفاق على توزيع مياه النيل ٠ (٤٣)

وقع هذا الاتفاق على تنظيم الانتفاع الكامل بمياه النيل بالقاهرة بين حكومتى الدولتين عام ١٩٥٩ ٠

---

(٤١) نون هو اكبر الالهة سنا واقدمها وهو احد عناصر عملية الخلق او المحيط الازلى الذى يخلف العالم ومنه خرجت زهرة اللوتس ٠ ويصور هذا الاله فى هيئة رجل ملتح او براس ضفدعة فى بعض الاحيان ٠

(٤٢) الاية ٧ سورة القصص من القران ٠

(٤٣) قال جون جونتر فى كتابه الشهير داخل افريقيا ان الحكام تذهب ولكن النيل باق وقال ان هذا النيل لا أحد يعرف اصل اسمه ٠

ومنذ ذلك الوقت يعتبر هذا الاتفاق من أقدس ما تعهدت عليه الدولتان منذ استقلالهما · فلقد اثبتت الأيام انه رغم درجة هبوط أو ارتفاع درجة حرارة العلاقات المصرية السودانية فان هذا الاتفاق صمد مرهوب الجانب لم تتأثر نصوصه بهبوط أو ارتفاع أو تقف أحكامه لحظة عن التنفيذ · لقد تعدل دستور مصر وتعدل دستور السودان ولكن هذا الاتفاق تسامى على المساتير والأحداث واستمر وسيستمر بنصه كما وقع ذاته مصونة لا تمس ·

كان هذا الاتفاق الذى وقع قبل اتفاق التكامل بخمسة عشرة سنة فخر الثورة فعلا ومن أجل انجازاتها ويمكن أن يقال أنه كان حجر الأساس الذى بنى عليه اتفاق التكامل نفسه ·

وصف موقعو هذا الاتفاق اتفاقهم وقت توقيعه بأنه تعبير طيب عبرت به الجمهوريتان عن شعورهما بالاخاء الصادق وعن رعايتهما للروابط الأبدية التى تربط بينهما وفى قمتهـــا النيل الخالد فليس غيره أخلق بأن تلتقى عنده كلمتهما ، وان تلتف حوله الخناصر منهما فتشتد اليد باليد فى شئون هــــذه النهر العظيم حفظا لمياهه واستزادة من ايراده ثم جنيا لثمرات ذلك كله فيما يمكن ان يكون للجمهوريتين أن تبسطا به رقعتهما الزراعية لخيرهما المشترك · (٤٤)

وكان أول جهاز مشترك بين الدولتين قبل كل أجهزة التكامل التى نص اتفاق التكامل على انشائها فى ســـنة ١٩٧٤ جهاز الهيئة الفنية الدائمة المشتركة لمياه النيل الذى قرر اتفاق مياه النيل سنة ١٩٥٩ انشاءه ·

ولعله جميل بنا ان نذكر أسماء الجـــانب المصرى الذى فاوض لعقد هذا الاتفاق الذى ـ كما قلنا ـ كان أول وثيقـــة تاريخية تتفق عليها الدولتان كدستور للعلاقة بينهما ·

---

(٤٤) التقارير السنوية للهيئة الفنية الدائمة المشتركة لمياه النيل ·

ومثل الجانب المصرى السيد زكريا محيى الدين بوصفه وزيرا للداخلية والسيد دكتور عبد المنعم القيسونى بوصفه وزيرا للاقتصاد والسيد المهندس أحمد عبده الشرباصى بوصفة وزيرا للاشغال (٤٥) والسيد حسنين ذو الفقار صبرى بوصفه نائبا لوزير الخارجية وسفير مصر بالسودان السيد سيف اليزل خليفه .

ويقضى المشروع بتنظيم مشروعات ضبط نهر النيل وزيادة ايراده بالتعاون والافادة المشتركة بكل قطرة ماء من أجل الاستخدام الامثل لها بترويض النهر وتسخيره لخدمة الناس او ترشيد الاستخدام كما يجرى على اللسان هذا التعبير الآن .

وكان أول ما نص عليه الاتفاق فى مادته الاولى « يكون ما تستخدمه الجمهورية العربية المتحدة من مياه نهر النيل حتى توقيع هذا الاتفاق هو الحق المكتسب لها قبل الحصول على الفوائد التى ستحققها مشروعات ضبط النهر وزيادة ايراده ومقدار هذا الحق ٤٨ مليار من الأمتار المكعبة مقدره عند اسوان سنويا » .

ونصت المادة الثانية « أن يكون ما تستخدمه جمهورية السودان فى الوقت الحاضر هو حقها المكتسب قبل الحصول على فائدة المشروعات المشار اليها . ومقدار هذا الحق أربعة مليارات من الأمتار المكعبة مقدره عند أسوان سنويا » .

ونظمت بقية مواد الاتفاق كيفية الاستفاده بمياه النهر بالتحكم فى منع انسيابها الى البحر مشيرة الى السد العالى وخزان الروصيرص واضعة ضوابط ترحيل وتعويض سكان حلفا من السودانيين عندما تغمر أراضيهم مياه التخزين بسبب السد العالى . وقد بدأت مصر فعلا منذ يناير ١٩٦٠ فى دفع

---

(٤٥) فى شهر مارس ١٩٦٤ اطلق على وزارة الاشغال اسم وزارة الرى .

خمسة عشر مليون جنيه مصرى بالاسترلينى لحكومة السودان تعويضا شاملا عن الاضرار التى لحقت بالممتلكات السودانية نتيجة انشاء السد رغم الضيق المالى الذى كانت عليه مصر وقتئذ نتيجة الحصار الاقتصادى الذى فرضته عليها الدول الغربية على اثر العدوان الثلاثى من اسرائيل وانجلترا وفرنسا سنة ١٩٥٦ ونفقات هذه الحرب بجانب الخسارة الفادحة التى أصابت مصر بسبب وقف الملاحة عبر قناة السويس تبعا لذلك . بجانب ما أدته مصر للسودان على سبيل التسوية بمناسبة اصدار عملة سودانية لدى الاستقلال كما سيأتى البيان .

ويجدر بالذكر فى هذه المناسبة أن المادة ٨ من الاتفاق نصت بالحرف :

« من المسلم به أن تشغيل السد العالى الكامل للتخزين المستمر سوف ينتج عنه استغناء الجمهورية العربية المتحدة عن التخزين فى جبل الاولياء . ويبحث الطرفان المتعاقدان ما يتصل بهذا الاستغناء فى الوقت المناسب » .

وقد كان هذا الوقت المناسب عندما قام وزير الرى المرحوم دكتور عبد العظيم أبو العطا بتسليم ادارة خزان جبل الأولياء الى السودانيين فى يناير ١٩٧٩ . الامر الذى اثار بعض المصريين المقيمين بالسودان وقتئذ لاعتقادهم خطأ أن مصر قد فرطت فى حق من حقوقها فى السودان طواعية دون أن يطلب منها أحد ذلك (٤٦) .

وقد رسم الاتفاق على انشاء الهيئة المشتركة لمياه النيل سبل التعاون الفنى من حيث رصد مناسيب النيل وتصرفاته فى كل من الحوض الأكبر وأحواض البحيرات الاستوائية

---

(٤٦) باتت ادارة الخزان عبئا على الميزانية المصرية دون عائد منه بعد انشاء السد العالى .

وبحر الغزال والانهر التى تنبع من جبال أثيوبيا ، ووســـائل تنفيذ مشروعات استغلال المياه الضائعة فى مستنقعات بحـر الجبل وبحر الزراف وبحر الغزال وبحر السوباط مما يتطلبه من شق للقنوات وتعديل للمجرى وتجسير وأنشاء للسدود ووقف للضائع فى المسايل العليا ومواجهته لخطــر أحباس السد العالى وابادة لنبات الهايسنت (ورد النيل) وترتيب ابحاث هيدرولوجية اقتصادية واجتماعية وللتربة ٠

وقد أتفقت الدولتان وقتئذ على مشروع قناة جــونجلى بجنوب السودان بمنطقة السدود ٠ وقد أسعدنى الحظ أن أمثل مصر فى أولى اجتماعات بدء تنفيذ هذا المشروع ٠

ومشروع قناة جونجلى فى ضخامته لا يقل عن مشروع السد العالى فهو يقضى بحفر قناة بمنطقة السدود وانشـــاء قناطر وتجسير وتجريف بالمنطقة والأنهر الصغيرة بها بغية توفير مياه اضافية قدرت بـ ٨ر٣ مليار متر مكعب عند أسوان ينال السودان منها ٩ر١ مليار عند أسوان مقدره ٤ر٢ مليار عند ملاكال ٠

وكما نلحظ يكاد يكون السد العالى حتى اليوم هو قمــة الانجاز للاستفادة بمياه النيل على الوجـــــه الامثل (فيما لو استخدم على الوجه الاكمل) ٠ ولست بحاجة لترديد مآثره وان كان لى قول بشأن بحيرة التخزين من ورائه : تلك البحيرة التى وصفت بأنها أكبر بحيرة من صنع الانسان للتخـــزين القرنى ٠ (٤٧)

---

(٤٧) من اقيم الكتب واشملها وارقها عرضا عن السد العالي كتـــاب المرحوم المهندس موسى عرفة الذى تولى الاشراف على شئون السد فى مرحلته الاولى ٠ دار المعارف ١٩٦٥ ٠

واهمية السد ليست حاجة مصر فى سبيل البقاء فقط وانما لاهميته كذلك للصناعة وللطاقة الكهربائية ٠ انه يبلغ سبعة عشر مرة حجم الهرم الاكبر٠ وكما كان يقول عبد الناصر دائما : « فى الزمن القديم بنينا الاهرام مقابر

لقد عز على خلال اقامتى بالسودان أن أرى الجزء الواقع من هذه البحيرة فى الاراضى السودانية يطلقون عليه اســـم بحيرة النوبة « مقتدين باخوآنهم بالشمال عندما حاول بعضهم ان يطلق على جزء البحيرة بالاراضى المصرية اســـم « بحيرة السد العالى » متناسين نحن وهم انها بحيرة جمال عبد الناصر « بحيرة ناصر » وانه كان يســـعدنا أن يكون لنا بوســـط افريقيا بحيرة تحمل اسم منا (نحن وهم) بجانب البحيرات الأخرى التى سجل المستعمرون لها أسماء فيكتوريا وادوارد والبرت (عدل رئيس موبوتو اسمها لتحمل اســـمه) . (٤٨)

كذا كان يراودني خاطر آخر كلما وقع نظـــرى على مياه النيل تجرى امامى بالقاهرة أو بالخرطوم ، عرضته على وزير الرى المرحوم دكتور عبد العظيم أبو العطا وعلى الســـيده الاستاذه دكتورة نعمات أحمد فؤاد عاشـــقة النيل غير أنه لم يشق طريقه بعد الى طريق المناقشة الرسمية .

هذا الخاطر هو أننا ـ نحن والسودانيون ـ طالما يجمعنا اليوم دستور واحد لتوزيع مياه النيل واتفـــاق للتكامل فانه يجدر بنا أن نقف معا يوما فى السنة ـ نتفق على تحديده ـ

للموتى ، ونحن اليوم نبنى الاهرام مرافق لخدمة الاحياء . ـ يراجـــع وثائق القاهرة بالانجليزية للاستاذ الكبير محمد حسنين هيكل .

وللسد العالى بجانب ذلك قصة سياسية اخرى يمكن ان تضم الى قصص الاورجى السياسى .

كذا يمكن ان نقول أن افضل ماكتب باسلوب جذاب عن مشروع قناة جونجلى : حقائقه وابعاده ونتائجه ، ما جاء بالكتيب الـــذى نشرته وزارة الثقافة والاعلام السودانية بقلم السيد المهندس دكتور يحيى عبد المجـــيد وزير الرى السودانى السابق .

(٤٨) اسعدنى مؤخرا ان ارى الكاتب الكبير احمد بهاء الدين يعرض لهذا الموضوع وكان قد سبق لى عرضه فى العام الماضى بكتاب « هذه السوداء احببتها » .

لنحتفل فيه بالنيل عيدا للدولتين · بل كنت أحيانا ابالغ حينما كان الخيال يحلق بي فأرى هذا العيـــد لكل دول النيـــل التسع · (٤٩)

لعل الخيال يتحقق يوما فترى للنيل عيدا يجمع كل مـن يعيش على ضفافه ·

فكلما زادت الجوامع توطـــدت الألفة وتوثقت العرى · ثم ليس بكثير أن يكون لأعظم انهار الدنيا عيد له. لا لانه أطولها وأغناها شعوبا وأقواما ، ولكن لأنه أقدمها وأعرقها نشأة وتاريخا · (٥٠) .

***

يقوم على تنفيذ اتفاق النيل بالسـ ـــودان بجانب الهيئة المشتركة لمياه النيل ووزارتي الرى السودانية والمصرية جهاز مصرى بالسودان يطلق عليه اختصارا اسم (الرى المصرى) تنتشر مكاتبه ومعامله وورشه ومقاييسه وبواخره واستراحاته على طول مجرى النهر حتى أوغندا ·

وقد كان لهذا الرى المصرى دوره الفعال التاريخى فى دعم العلاقات بين مصر والسودان كوسيلة الاتصـــال الوحيدة بين البلدين لزمن طويل قبل تبادل كل من الدولتين للسفراء · وقد كان الرى المصرى ـــ ولا يزال ـــ المظهر الكريم للتعاون المصرى بالسودان يتولاه جيل بعد جيل من أكفأ مهندسى الرى دون توقف

---

(٤٩) مصر والسودان واثيوبيا واوغنداوكينيا وتنزانيا ورواندا وبوروندى وزائير ·

(٥٠) كانت تحتفل مصر كل عام فى شهر اغسطس بعيد وفاء النيل الى إن اقيم السد العالى الذى ضبط النهر وحجز الفيضان وراءه · ولهذا فان اخر احتفال بوفاء النيل كان فى ٢٢ اغسطس ١٩٦٣ · وقد اثارت «الاهرام» فى ندوة عقدتها فى اغسطس ١٩٨٠ موضوع عودة مصر الى الاحتفـــال بالنيل · ولكن الندوة لم تنته الى رأى حيث غرق الموضوع الاساسى فى بحر مناقشة حكاية عرائس النيل ·

أو تأثير فى أى وقت من الأوقات بتقلبات العلاقات السياسية أو اتجاهاتها ·

يرجع تولى مصر لشئون الرى بالســـودان الى أيام محمد على باشا أو منذ ما يسمى بعصر السودان المصرى عندما كانت شئون السودان تدار مباشرة من عاصمة الوطن الكبير · وقد استمر الوضع كذلك الى عام ١٩٠٥ عنـــــدما انشأت مصر لتولى شئون الرى بالسودان ادارة اقليمية بالخرطوم أطلــق عليها منذ هذا الوقت اسم الرى المصرى · نظمت هذه الادارة على اساس أربعة تفاتيش بالخرطوم وبالشجرة وبجبل الأولياء وبالملاكال تتولى دراسة هيدرولوجية النيل فى أحباسه المختلفة من بحيرة فيكتوريا حتى الســـــد العالى بمصر والقيام بكل المقاييس والابحاث والمشروعات ··· الخ التى تتصل بأقصى استفادة بمياه النيل ·

وتعتبر ترسانة الرى المصرى بالشجرة من أضخم الترسانات النهرية لاصلاح الوحدات النهرية والوابورات والرفاصات .

وقد قـــام بالاشراف على التفتيش العام للرى المصرى بالسودان منذ عام ١٩٠٥ حتى عام ١٩٣٧ مهندسون انجليز تقلد المصريون بعدهم ابتداء من سنة ١٩٣٨ هذا المنصــب وكان اولهم عبد القوى احمد باشا الذى تولى وزارة الاشغال بمصر بعد ذلك فى وزارات على ماهر باشا وحسين سرى باشا واسماعيل صدقى باشا · كذا كان من المصريين الذين تولوا هذا المنصب حامد سليمان باشا الذى تولى وزارة الاشـــغال بعد ذلك والمهندس محمد عبد الهادى سماحـــه وزير الرى وشئون السودان فى الوقت الحاضر ، كذا الرئيس الحــــالى للجانب المصرى فى الهيئة المشتركة لمياه النيل المهندس محمد أمين محمدين الذى كان من أبرز الشخصـيات المصرية التى عاصرت ــ عندما كان يشغل منصب مفتش عام الرى المصرى بالسودان ــ مع مدير فرع جامعة القاهرة دكتور ابراهيم

العدوى ــ أسطع مراحل التكامل بين مصر والسودان فى بداية سنواته ·

ولعله يجد ربنا ونحن فى مجال الحديث عن النيل أو هذا الكابل الذهبى الذى يربط السودان بمصر ـ أن نذكر أن دول النيل التسع المطلة عليه هى الأخرى لم تغفل اطــــلاقا عن الاهتمام به وأنها الآن فى سبيل اعداد دراسات ومفاوضات لانشاء هيئة فنية عليها لحوض النيل بأكمله تكون مهمتها نقل التكنولوجيا الحديثة فى مجـــال الموارد المائية حتى لا تتخلف دول النيل عن مجابهة تطورات العصر الذى بات يطلق عليه بحق « العصر الهيدرولوجى » ·

كذا يجدر بنا ان نذكر أن السد العالى وقناة جونجلى ليسا بالنسبة لمصر والسودان آخر مشروعات النيل ، فهناك الأمل فى اقامة خزانات كبرى وقناطر وكبار أخرى للتخزين والانتفاع بالفاقد ومحطات لتوليد الكهـــرباء على كل روافد النهر فى أعاليه بحوض البحيرات الاستوائية وبجبال أثيوبيا توفيرا للطاقة عندما يشح البترول أو يعز الحصول عليه ·

ان مصر والسودان يملكان معا ــ بالنيل ــ أكبر ثروة على سطح الارض فان المواد الخـــام وان كانت بالآلاف الا أن اعظمها الماء ·

واذا كان البترول (٥١) يطلق عليه الذهب الأسود فان لنا أن نسمى النيل ، النهر الذهبى ·

---

(٥١) سلسلة مقالات عن النيل للاستاذ أحمد نافع · الاهرام يوليــــو واغسطس ١٩٨٠ · وقد حذر مصطفى مشرفة بك منذ أربعين سنة من نفــاذ البترول المدخر فى العالم كله فيما لو استمر معدل الاستهلاك على ماهـــو عليه · ونبه الى ضرورة استنباط موارد اخرى للقدرة المائية الناشئة عـن حركات المياه من الانهار وهبوطها من الشلالات والمنحدرات · (العلم والحياة للدكتور مشرفة) ·

٥

سبقت حاجتى حبى

كان المصرى القديم فى بداية وجدانه ينظر الى شيئين :
الأول كيف يطيل عمره ويديم قوة شبابه •
والثانى كيف يوفر الطعام لنفسه •

ولاطالة عمره ودوام شبابه توسل الى الجواهر كالمرجان والى المعادن النفيسة كالذهب . ومن هنا كانت هجرته لجلب هذه الجواهر والمعادن ولتوفير طعامه جرى مع مجرى النيل حيث الماء •

وبهجرته نشر الحضارة المصرية فى أنحاء العالم من حوله وكان أقرب هذه الانحاء اليه جنوب مصر أو السودان كما نسميه اليوم • وقد عرفت أرض النوبة بأرض الذهب عند المصريين القدامى حيث كانوا يسمون الذهب (نوب) •

وهكذا بدأ اتصال الشمال بالجنوب او مصر بأفريقيا الزنجية على حد تعبيرات المؤلفات القديمة • (٥٢)

---

(٥٢) يرجع الى « مصر وأفريقيا الزنجية » للمؤرخ سليجمان والملاحظ أنه غل ما كتب عن السودان القديم « كرما وكوش والنوبة المسيحية » . ويكاد يكون أحدث وأوفى ما كتب عن تاريخ السودان القديم ما جاء بمؤلف عالم الآثار الألمانى الشرقى فرينز هنتزى وزوجته أورسولا عقب انتهائهما من عمليات التنقيب العديدة لهما بالسودان (١٩٦١ ــ ١٩٦٢) الصادر من دار النشر بلايبزيج بألمانيا الديموقراطية وللعالم الالمانى (الشرقى) وزوجته يرجع الفضل فى ترتيب المتحف القومى بالخرطوم والى حكومة ألمانيا الديموقراطية فى بناء المتحف نفسه .

وقد كان سبيل هذا الاتصال كل من النيل الابيض والازرق حيث عبرهما المصرى القديم ليصـــــل بلاد كوش وهو الاسم الذى كان يطلقه الفراعنة على السودان والحبشة معا ٠ (٥٣) ومنطقة البحيرات الاستوائية ونيجيريا والكونجو ٠

وقد سجلت وثائق التاريخ أن المصرى القديم فى عهد المملكة الوسطى قد امتد حكمه حتى الشلال الرابع بمدينة (كرما) وانه استمر يحكم الجنوب مباشرة مدة ٣٠٠ سنة على نفس النمط المصرى حتى بدت هذه الحقبة فى تاريخ السـســـودان كطبعة أخرى للمدنية المصرية التى انتشرت الى الحبشة وغيرها من الاقطار المحيطة عن طريقة ٠

خلال هذه الحقبة عرف (السودان) بناء الهرم والمسلة والربة هاتور (٥٤) ٠ واستمر النفوذ المصرى القـديم الى أن أسس كاهن بلاد كوش مملكة جديدة مقرها نباتا (مدينة بركال الآن قرب الشلال الرابع) تولى عرشها الأمير الشـــــاب بعنخى الذى نزل النيل ـ كما يقولون ـ لقتال المصريين وحقق انتصارا واستولى على ممفيس ونودى به ملكا على جميع وادى النيل ٠ وقد وصف بعنخى حملته على مصر فى نقوش

وتقسم اثار المتحف القومى بالخرطوم على اساس مجمـــــوعات ثلاث ا ، ب ، ج على غير نظام المتحف المصرى الذى يقسم اثاره عـــلى اساس الاسرات ٠

(٥٣) عرفت أثيوبيا فى الاثار المصرية وفى التوراة باسم بلاد كـــوش

(٥٤) الربة هاتور أو حتحور كما تكتب احيانا من اشهر المعبـــودات المصرية وقد سواها اليونانيون بمعبودتهم افروديت لانها كانت الهة الرقص والموسيقى والحب وكل ما يبعث على السرور ٠ ولعبت عبادتها دورا هامـا فى مناطق بعيدة عن مصر ٠ عرفت فى سيناء وسميت هناك بسيدة جبـــل الفيروز ٠ وكانت تمثل اما على هيئة بقرة او على هيئة امراة لها فى اكثر الاحيان أذنا بقرة ٠ وقد ادمجوها بالمعبودة ساتيس « سيدة النـــوبة » او اميرة مصر العليا أو سيدة مصر او ملكة الالهة فى العصر المتاخر ٠

هيروغليفية دونها على لوح ضخم عثر عليه بين بقايا معبده الذى أقامه فى جبل بركال عند الشلال الرابع ٠ (٥٥)

لقد حقق بعنخى وحدة النيل مرة أخرى ولكن هذه المرة تحت حكم اسرة سودانية : وفى هذا الصدد قال جوستاف لوبون فى كتابه المعروف عن الحضارة المصرية ان مصر اصبحت على يد بعنخى ايالة سودانية ٠ (٥٦)

وسادت حضارة مملكة نباتا بطبيعة الحال طوال حكم بعنخى الى ان تمكن أحد أبناء فرعون بعد موته من تحرير مصر ولكن ذلك لم يطل أمدة اذ سرعان ما هزمه السودانيون لتعود مصر مرة أخرى تحت سلطة (السودان) فى عهد الاسرة الخامسة والعشرين التى كان أشهر ملوكها طرهاقه السودانى أو طهارقه الذى يسجل التاريخ له تكملة معبد الكرنك فى طيبة ٠ (٥٧)

ولكن الأمر لم يستمر طويلا للأسرة الخامسة والعشرين فقد تحررت مصر مرة أخرى وعاد السودانيون الى الجنوب لانشاء مملكة مستقلة اتخذوا مدينة مروى (على النيل الأعلى بين بربر والخرطوم مقرا لها ٠ وقد استمرت هذه المملكة مستقلة حتى الاغارة العربية فى القرن الأول من الميلاد ٠

وتشهد الآثار الموجودة الآن بشمال السودان على هذه العلاقات القديمة بين مصر والسودان ٠ ويضم المتحف بالخرطوم ما يفزع المرء دهشة من التطابق بينه وبين المتحف المصرى بالقاهرة من حيث المحتوى ٠

---

(٥٥) اللوح محفوظ بالمتحف المصرى مع لوحين اخرين للملك تانوتاموم والملك هرسا اتف من ملوك النوبة أو اثيوبيا كما كان يطلق عليها وقتئذ ٠

(٥٦) الترجمة العربية لكتاب جوستاف لوبون ١٩٢٤ ٠

(٥٧) مصر فى العصور القديمة من تاليف ابراهيم سيف الدين وزكى على واحمد نجيب هاشم ومراجعة محمد شفيق غربال ـ دار المعارف ١٩٥١ ٠ وهو كتاب رغم ايجازه يشمل الكثير ٠

وقد ترددت كثيرا على المتحف بالخرطوم وكان يبدو فى عينى وكأنه مصغر للمتحف المصرى (٥٨) بالقاهرة أو بتعبير أدق اضافة متسعة لاحد أجنحته ٠

وكانت الآثار المتصلة بالعصر الاثيوبى أو بما نطلق عليه اليوم بالسودان القديم ـ بطبيعة الحال ـ فى المحل الاول من اهتماماتى بالمتحف المصرى بالقاهرة وقد وجـــــدت أهمها :

١ ـ رأس بديعة من الجرانيت الأسود للملك طهارقه وهــو معروف فى التوراة باسم طرهاقه (سفر الملوك الثانى اصحاح ١٩ آية ٩) ولم يحكم بعده فى الاسرة ٢٥ الا ملك واحـــــد (بالمتحف تحت رقم ١١٨٥) ٠

٢ ـ رأس من الجرانيت الأسود لتمثال منتمحات وهــــو صورة بديعه لصاحبها (رقم ١١٨٤) ٠

٣ ـ تمثال من الكوارتزيت لابن الملك شاباكا أحـــد ملوك الاثيوبيين (النوبيين القدامى) (رقم ٨٤٨) ٠

٤ ـ تمثال جميل من المرمر فوق قاعدة مــــن الجرانيت الاسود يمثل أمنرديس أخت الملك شاباكا ٠

أما اللوحات التى سجلت أنباء هـــــؤلاء الملوك (ملوك اثيوبيا أو النوبة القديمة) فقد كان أوقعها :

١ ـ لوحة بعنخي ومنقوش عليها تاريخ كفاحه ضد الامراء المصريين (رقم ٩٣٧) ٠

٢ ـلوحة تانوتانوم ومنقوش عليها انتصاراته ٠

٣ ـ لوحة هرسا أتف أحد ملوك أثيوبيا (رقم ٩٣٨) أو النوبة القديمة أيضا ونقشت عليها انتصـــاراته على قبائل السودان (رقم ٩٤١) ٠

والملاحظ بوجه عام ان النقوش التى تمثل الجنود كانت

---

(٥٨) يضم هذا المتحف بجانب الاثار القديمة اثار قبطية على قدر كبير من الاهمية تمثل الحقيقة التى عاشتها النوبة قبل الغزو الاسلامى والنـوبة في هذه الفترة كما هى اليوم تمثل شمال السودان وغربه ٠

تمثل المصريين منهم مسلحين بحراب لها اسـنة من البرونز ٠ أما الجنود السودانيون فكانت تمثلهم مسلحين باقواس وسهام لها أسنة من الصوان ٠

والسودانيون يعتزون بهذه الحقبة مـن التاريخ (حقبه حكمهم لمصر) ويعيبون علينا ايجازها أو المرور عليها سريعـا لدى دراسة تاريخنا القديم ٠ وكنت أعجب دائما من ذلك فان هذه الحقبة لم تتعد المائة سنة من تاريخ مصر كله ولم يتعاقب خلالها الاخمسة ملوك فقط ٠ ولعل ما جاء بالموسوعة المصرية لتاريخ مصر القديمة (وزارة الثقافة والاعلام) ما يفى بهـذا الموضوع محل (الاتهام) :

الاسرة الخامسة والعشرون (٧٥١ ـــ ٦٥٦ ق ٠ م) = ٩٥ سنة ٠

الأسرة الكوشية ٠

من ملوكها :

بعنخى (٥٩) ٧٥١ ـ ٧١٦ ق ٠ م	=	٣٥ سنة
شباكـــا ٧١٦ ـ ٧٠١ ق ٠ م	=	١٥ سنة
شهاتاكـــا ٧٠١ ـ ٦٨٩ ق ٠ م	=	١٢ سنة
طهرقا (٦٠) ٦٨٩ ـ ٦٦٣ ق ٠ م	=	٢٦ سنة
نانوث أمانى ٦٦٣ ـ ٦٥٦ ق ٠ م	=	٧ سنوات

★★★

وجاء عن النوبة « ٠٠ أنه فى عصر الاسرة الثامنة عشرة اهتم ملوك مصر بالجنوب فساروا على رأس الحملات لاعادة الامن الى ربوع النوبة واستعادة مـــا فقدته مصر خـــــلال عصر الهكسوس وتوغل تحتمس الاول الى اقليم دنقله واســـتولى على نباتا وضمها الى الاراضى المصرية ٠٠٠ ومنذ نهاية الدولة الحديثة كان يحكم النوبة كهنة آمون حكما يكاد يكون مباشرا ٠

(٥٩) بعنخى مؤسس الاسرة الخامسة والعشرين من التاريخ الفرعونى٠

(٦٠) طهرقا معروف فى التوراة (سفر التكوين اصحاح ١٩ اية ٩)٠

ولكن عندما اضطربت الامور فى عصر الاسرة الثالثة والعشرين نزح كثير من كهنة آمون الى نباتا مركز عبـــادة آمون فى الجنوب ولم يلبثوا حتى كونوا بيتا حاكما واستقلوا ببلاد النوبة واستطاع احدهم وهو بعنخى من السير الى الشمال وتأسيس الأسرة الخامسة والعشرين المصرية وقد قلد هذا الملك الفراعنة فى كل شيء ولقب نفسه قائد السلام للارضين ملك الشـمال والجنوب وشمس الشموس ورسم نفسـه على المعابد يتقلد السيف من آمون ليقتل الأعداء · ويطلق على هؤلاء الملوك ملوك مصر وكوش » (أو الملوك الأثيوبيين كما كان يصفهم المؤرخون الأوربيون) ·

ثم لا أدل على احتفالنا بهذه الحقبة السودانية فى تاريخ مصر أو بالأحرى حقبة حكم الجنوب للشمال مـن نفس الوطن من أن يكون موضوع قصة أوبرا عايدة الشـهيرة ممثلا لهذه الحقبة ، فمن المعلوم ان هـذه القصـة قد وضع نصها (الليبرتو) ماريبت باشا بتكليف من الخـديوى ليكون بتكليف من الخديوى ايضا تحت تصرف الموسيقى العالمى الاشهر فردى لتكون حفل الافتتاح بدار أوبرا القاهرة (سنة ١٨٧١) بمناسبة افتتاح قناة السويس أمام ملـوك وامراء هذا العهد ·

وهكذا سجلت اوبرا عايدة على مسـتوى العالم لا مصر وحدها وعلى أرقى وأرق مستوى يمكن ان يكون عليه الاعلام حكم ملوك السودان لمصر خلال احد عهود تاريخها القديم·(٦١)

---

(٦١) أوجست ماريبت باشا عالم فرنسى (١٨٢١ ـ ١٨٨١) اكتشـف سرابيوم أو معبد ممفيس وكان هو منشىء المتحف المصرى · والذى يجدر بالجميع علمه واظهارد ان عايدة الاثيوبية فى الاوبرا لم تكن اثيـوبية (بالمعنى المعروف اليوم) فان ابوها أموناسرو كان من ملوك كوش أو النوبة القديمة التى كان يسميها الاوربيون فى ذلك الوقت اثيوبيا ويحكى عـن تعصـب وتحمس ماريبت باشا (الفرنسى) للاثار المصرية أنـه بامر من

ولم يفت الرئيس نميرى أن يبرز اعتزاز السودان بهــذه الحقبة عندما وضع فى قاعة احتفالاته بالقصر الجمهــورى لوحتين ضخمتين احداهما للملك بعنخى والأخـــرى للملك طرهاقة ٠

★★★

وقد يكون من المشيق ونحن فى سبيل التعــرض لتاريخ السودان من زاوية علاقاته بمصر أن نعرض للســؤال الذى كان دائما ــ ولا يزال ــ يطرح نفســه ازاء الملحوظ من تأثير الكنيسة على الجنوب وقوة نفوذها به ، وهو متى دخلــت الديانة المسيحية السودان ؟ (٦٢)

والسؤال على اكبر قدر من الاهمية فالمســيحية كانت أول ديانة سماوية دخلت شمال ووسط السودان فى حوالى منتصف القرن السادس وبه دخل السودان فى عصر جديد حيث كان السودانيون قبل المسيحية يعبدون الآلهة المصرية (النجـــوم والحيوانات ٠٠٠ الخ) وقد دخلت المسيحية السودان والحبشة عن طريق مصر ٠ وقد قامت على أثر دخول المسيحية ممالك اتخذت من المسيحية دينا رسميا لملوكها ٠ وظلت المســيحية

الخديوى اسماعيل حمل أجمل الاثار الى فرنسا لعرضها فى معرض باريس ١٨٦٧ وفى باريس طلبت الامبراطورة يوجينى من اسماعيل أن يهديها هذه الاثار ولكن مارييت باشا اعترض وقاوم بشدة ولولا موقفه لخسرت مصر تلك التحف النفيسة ٠ هكذا وردت هذه القصة فى « تاريخ مصر الحديث » للاستاذ محمد عبد الرحيم مصطفى (وزارة المعارف سنة ١٩٣٣) نوردها ــ رغم عدم المناسبة ــ لطرافتها بدون تعليق ٠

(٦٢) يراجع فى هذا الموضوع الكتاب القيم عن المسيحية فى السودان للاب دكتور فانتينى ــ الكنيسة الكاثوليكية بالسودان ١٩٧٨ ٠

الدين الرسمى للسودان منذ تلك الفترة الى بداية القـــــرن السادس الميلادى حين قامت سلطنة الفنج ٠ (٦٣)

ولعله تجدر الاشارة فى هذا المجال الى أن النصف الثانى من القرن السادس الميلادى قد شهد قيام ثلاث ممالك مسيحية (٦٤) فى السودان هى مملكة النوباط فى المنطقة الممتدة مـــن الشلال الاول الى الشلال الثالث وكانت عاصمتها مدينةفرس (سنة ٥٤٣) وتليها مملكة المقرة التى اتخذت دنقلا العجوز عاصمة لها (حوالى سنة ٥٦٩) وقد امتدت هذه الدولة جنوبا الى المنطقة التى سماها العرب بعدئذ بالابـــــواب (مروى القديمة) أو منطقة كبوشية الحالية٠ والجدير بالذكر انمملكتى النوباط والمقرة اندمجتا فى مملكة واحدة قوية للوقوف فى وجه الزحف العربى الاسلامى القادم من مصر ، وبالفعل عاشت هذه الدولة الى ان سقطت على يدى العرب سنة ١٣٢٣ (٦٥)٠ وقد كانت الدولة الثالثة تعرف باسم مملكة علوة وعاصمتها سوبا (سنة ٥٨٠)وسوبا تقع على بعد اثنى عشر ميلا فقط جنوب الخرطوم على الضفة الشرقية للنيل الازرق وقد عمرت

---

(٦٣) يراجع فى هذا الموضوع بحث قيم للسيد بونا ملوال وزير الثقافة السودانى ١٩٧٨ بالمرجع السابق ٠

(٦٤) المرجع السابق ٠ ويطلق المؤرخون القدامى على هذه الفتـرة فى تاريخ السودان (عهد النصرانية) على انه يلاحظ ان انتشار المســيحية فى جنوب السودان لم يسفر عنه حكم مسيحى على النحو الذى صـــاحب دخول المسيحية الى شمال السودان حيث لم يتعد الامر بالجنوب الممارسة النشطة للارساليات التبشيرية والبعثات البابوية قديما ، والخدمات والنفوذ الذى تبسطه الكنائس عليه حديثا ٠

(٦٥) كان الملوك المسيحيون فى النوبة طوال حكمهم يتطلعون الى بطريرك الاسكندرية للتوجيه ومدهم بالقسس ٠

هذه الدولة المسيحية الى ان سقطت هى الاخرى على يدى الفنج عام ١٥٠٤ ٠ (٦٦)

وقد دخل الاسلام السودان فى بداية أيامه عن طريق البحر الاحمر ومن مصر (ويغلب دكتور حسين مؤنس انتشار الاسلام فى السودان عن هذا الطريق) ومن الشمال الغربى ٠ وكان دفاع النوبيين المسيحيين ضد المسلمين قويا والقول لدى بعض المؤرخين ان المسلمين لم يتمكنوا خلال هذه الايام من غزو النوبة ودليلهم المعاهدة التى وقعها عبد الله سعد بن ابى سرح قائد احـــدى القوات العـــربية مع النوبيين سنة ٦٥١ حيث تضمنت نصوصا لعدم الاعتداء ولتطبيع العلاقات (على حد التعبير الحديث) كما يلاحظ ان هذه المعاهدة استحدثت فى العلاقات الدولية تعبيرا جديدا بتسمية النوبة (دار الأمان) مما يعنى ان المعاهدة كانت تنفى وجود نية لاحتلال النوبـة (٦٧) ٠ وقد استمر الوضع على هذا النحو ستة قرون على أساس هذه المعاهدة أى حتى ١١٧٢ عندما دخل توران شاد اخو صلاح الدين النوبة حتى بلدة أبريم ويبدو أن ظهور مناجم الذهب فى هذا الوقت (كان ذلك قبل ظهور البترول) هـو الدافع الرئيسى على هذا الوضع الجديد ٠ (للموضوع تفصيل تاريخى دقيق فى مقال للاستاذ يوسف فضل حسن بجامعة الخرطوم نشر فى كتاب الاسلام فى افريقيا المدارية للمؤلف الانجليزى م ٠ لويس بالمعهد الدولى الافريقى بلندن ١٩٨٠ ٠

---

(٦٦) المرجع السابق ٠ بحث للدكتور مبارك الريح ٠ ويبدو أن هزيمـة سوبا كانت ساحقة حيث يقول المثل السودانى (خربت خراب سوبا) على غرار ما نقوله فى مصر عن خراب مالطا ٠

(٦٧) « لقد دخل الاسلام افريقيا مع الغزاة العرب ويرجع النجاح السريع الذى احرزوه قبل كل شىء الى مالقوه من ترحيب الاهالى المسيحيين » ٠عن دخول الاسلام الى السودان يراجع كتاب « فن الحكم فى الاسلام » للدكتور الوزير الاسبق مصطفى أبو زيد ١٩٨١ ٠

ولقد أدى تمازج الافكار المسيحية الوافدة من مناطق البحر المتوسط الى اثراء الحضارة السودانية فقد ظهرت نوعية جديدة من التقاليد لم تكن معروفة قبل دخول الافكار المسيحية مثال الفنون التشكيلية الفريدة التى لاتزال مخلفاتها فى اللوحات المسيحية المرسومة على جدران الكنائس وبصفة خاصة على جدران كنيسة بلدة فرس بالنوبة وكلها مستوحاة من القصص الواردة فى الانجيل ·

والجدير بالملاحظة لدى مشاهدة هذه اللوحات ومثيلاتها بالمتحف بالخرطوم تأثرها الواضح بالفن البيزنطى على الرغم من أن الممالك المسيحية السودانية لم تكن على صلة بالقسطنطينية منذ الفتح العربى الاسلامى لمصر سنة ٦٤٠ الذى قطع الصلة الثقافية بين بيزنطة والسودان المسيحى ·

وبدخول المسيحية أضحت اللغة القبطية واليونانية معروفة ومستعملة فى الممالك السودانية بالاضافة الى اللغة المحلية النوبية القديمة · وقد قيل أن أجزاء من الكتاب المقدس قد ترجمت الى اللغة النوبية ·

ويحلو للسودانيين فى وقتنا الحاضر أن يقصوا على الباحث فى تاريخهم قصة أول راهبة سوداء من السودان فى التاريخ فيحكون انه كان هناك فى الاربعينات من القرن الماضى امرأة اسمها (بخيته) اعتنقت الدين المسيحى على يد الارساليات بالخرطوم عام ١٨٥٠ ثم ارسلت الى أوربا للتعليم والتدريب · وقد ذكرت سجلات الكنيسة بالخرطوم أنها قد عمدت فى مدينة فيرونا بايطاليا قبل أن تسافر الى مصر لتنضم الى معهد المعلمات الذى فتحه الاب كمبونى من أجل السودان · وقد انتهى الأمر بهذه السيدة أن التحقت بدير راهبات كمبونى فى السودان ونذرت نفسها للرهبنة بعد أن تسمت باسم جديد هو (فرتونا) ترجمة لاسمها (بخيته) ·

كذا يحكى بمناسبة النشاط المسيحى أن مدرسة الكنيسة

الكاثوليكية بالخرطوم كانت من آسمى مدارس العهد وكانت مفتوحة لجميع القوميات والاديان ومن سجلها تذكر المدرسة اسم الطالب محمد نجيب الذى اصبح بعد خمسين عاما أول رئيس لجمهورية مصر ٠

★★★

على أثر انهيار الممالك المسيحية برزت مملكة الفونج حول مدينة سنار كأقوى سلطنة مسلمة سوداء ضم شعبها الاقوام العربية القادمة من الشمال والاقوام (الزنجية) (٦٨) النازحة من الجنوب ٠

لقد واصلت هذه السلطنه مع بقية السلطنات الصغيرة المجاورة حكم البلاد مدة ثلاثمائة سنة انتهت عام ١٨٢٠ عندما جرد محمد على باشا والى مصر وقتئذ حملتيه على كل من سنار والأبيض ٠

بهذا الغزو بدأ العهد المسمى بالحقبة التركية المصرية ٠

★★★

هذه الخلفيه للسودان الحديث عن الممالك المسيحية ثم السلطنات الاسلامية يمكن ان توضح لنا بجلاء الاسباب التى ادت الى مدى الانتشار الحالى للمسيحية فى السودان بشماله وجنوبه ٠

وقد لمست شخصيا مدى نفوذ المسيحية لدى زياراتى لمدينة جوبا عاصمة الجنوب حيث شاهدت على الطبيعة كيف تحظى الكنيسة الكاثوليكية بمكانة رفيعة فى كل مكان وكيف لها فى كل ميدان شان ٠ شاهدت ان انتشار الدين لم يات الا عن طريق الخدمة : العلاج والتعليم والاعانة على المعيشة ، وطواعية عن الايمان دون الاحتراف ٠

وقد يتصل بذلك موضوع التبشير الذى عالجته دكتورة

---

(٦٨) هكذا كان يجرى وصف السود فى وثائق هذا العهد ٠

نعمات احمد فؤاد فى كتابها الأخير من عبقرية الاسلام (يناير ١٩٨٢) بقولها :

« لا تعنى الكتابة عن التبشير المساس بالمسيحية فهىدين سماوى فى جوهرها محبة ورحمة بعيدة كل البعد عن الاساءة » ٠

« ولكن التبشير أساء حين انحرف عن نشر المحبة والرحمة الى خدمة الاستعمار والمستعمرين فعمل على تشويه الاسلام ليسهل مهمة استيلاء أوربا على البلاد الاسلامية ٠ التبشير هنا عملية سياسية تتمسح فى الدين وتخفى وراءه أغراضها الحقيقية » ٠

« وقد تنوعت أساليب (هذا التبشير السياسى) فاتخذ مجالا له : المدرسة والكلية والجامعة والندوة والصحافة والندوة والصحافة والمستشفى ودار النشر والطباعة وفق خطط مدروسة تخطط فى مؤتمرات تعقد من أجل الاغراض الحقيقية (السياسية) ٠ (٦٩)

ولما كان الاسلام لا يعرف التبشير أو مجاراة مثل هذه الاساليب فقد تخلف عن ركب نشر العقيدة فى الجنوب فلم أر فيه من وعاظ المسلمين الا موظفين لا يتعدون عدد أصابع اليد الواحدة نشر الاسلام فى مفهومهم تأدية صلاة الجمعة والقاء خطابها فهمه الناس أو لم يفهموه طالما ان الراتب الشهرى متواصل مع ان الاسلام فى جوهرد قيمة لا وظيفة وفرق كبير بين القيمة والوظيفة والمسجد ليس خطبة الجمعة ، ورجل الدين امامة وعلامة لا راتب وجباية ٠ ورغم قصور

---

(٦٩) وتسهم ابنة الشاطىء دكتورة عائشة عبد الرحمن مع ابنة النيل دكتورة نعمات احمد فؤاد بالرأى فى هذا الموضوع عندما تقول فى كتابها القيم عن الغزو الفكرى (١٩٧٥) « انه غير مجهول ان الاستشراق فى أول أمره وجه الى خدمة الكنيسة الكاثوليكية وخضع لاشراف مباشر من كبار أحبارها ٠ وقد أدى الاستشراق مهمته المزدوجة لخدمة التبشير والاستعمار٠

الوسيلة والتقاعس أسلم السودان وتعرب مما لا يمكن ان يبرر الا بقوة المد الذاتية للاسلام ٠ (٧٠)

★★★

على أنه لايمكن لنا ان نغفل سدى انتشـار الكنيسة المصرية على امتداد النوبة حتى الخرطوم التى تضم أكبر كنيستين قبطيتين : كنيسة الخرطوم ويرعاها اليوم نيافة الحبر الجليل الانبا دانيا مطران كرسى الخرطوم وأوغندا وكنيسة أم درمان ويرعاها نيافة الحبر الجليل الأنبا أسطفانوس مطران كرسى النوبة وعطبرة وأم درمان ٠

كذا كانت زيارة غبطة البابا المعظم الانبا شنودة الثالث بابا الاسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية للخـــرطوم فى منتصف فبراير ١٩٦٨ ذروة أنجـــازات التكامل بين مصر والسودان والتقاء شعبيهما ٠

لقد سطعت لى خلال هذه الزيارة حقيقة قديمة ولكنها لم تكن على اللسان منذ حين وهى ان ارتباط الســـودان بمصر كما صنعه النيل ودعمه الانتماء العربى باللغة الدين والمشاركة المشتركة فى مسيرة التاريخ القديم والحديث والمعونة الفنية المصرية التى لا حد لها فى ميادين التعليم العام والجامعة والرى (٧١) ـ ان ارتباط السودان بمصر كما صنعته كل هذه الوشائج صنعته أيضا الكنيسة القبطية المصرية التى بات لها مكان يجب ألا نغفل عنه عندما ندرس أوجه دعم علاقاتنا بالسودان ٠

★★★

خلاصة القول انه كان الذهب أيام الفراعنة ونشر العقيدة

---

(٧٠) العالم الاسلامى المعاصر ـ الاستاذ جمال حمدان ٠

(٧١) تضم مدارس البعثة التعليمية المصرية المنتشرة بجميع انحـــاء السودان قرابة ١٨ الف طالب ٠ كذا نفس العدد تقريبا يضمهم فرع جامعة القاهرة بالخرطوم ٠

المسيحية والاسلام فى العصور الوسطى ثم الحصـــول على الذهب والعاج وريش النعام من جـــديد فى بداية العصر الحديث وضمان ماء النيل فى وقتنا الحاضر ٠٠ كان كل هذا وراء المد المصرى نحو السودان قديما والتكامل معه حديثا ٠

ان بين مصر والسودان روابط منها الدم والقربى والجوار٠ روابط يحكم وثاقها النيل الأب لمصر والسودان معا . فضلا عن المصلحة المشتركة والوشائج التقليدية فى الماضى والحاضر ٠

وتسير الأيام وتجرى الأحداث فلا يغيب عن خاطرالمصرى أو السودانى هذا كله ، حتى فى احلك الظروف ٠

ان ما جمعه الله لا يفرقه الناس ولو كان بعضـــهم لبعض ظهيرا ٠

٦

شلوخ ووشم

هؤلاء الناس على ضفاف الديل فى شماله وجنوبه الذين عبوا من مائه واستمدوا من هذا الماء حياتهم تماثلت طباعهم وتشابهت كان لماء النيل كيمياء خاصة ·

حتى بات لا يحدث أمر بمصر أو يقال أو يفعل شىء الاويتأثر به السودان والعكس صحيح . بات لا يصيب مصر خير أو شر الا ويصيب السودان منه بسهم والعكس صحيح ·

راعنى ذلك خلال وجودى بالسودان بالنسبة لردود الفعل المتبادلة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا · (٧٢)

كذا كان الأمر يذهلنى أحيانا بالنسبة للتشابه فى الحرف القديمة وأساليب الزراعة والتجارة والخلق والعادات بل وفى كثير من الخرافات أيضا ·

لم يصل التشابه الى حد التطابق فالسودان قطر مترامى الأطراف يضرب فى أعماق أفريقيا الى خط الاستواء وتحيطه

---

(٧٢) يقول دكتور ابراهيم الحاردلو الاستاذ بجامعة الخرطوم فى كتابه عن الرباط الثقافى بين مصر والسودان (١٩٧٧) ان العلاقة بين مصر والسودان علاقة عضوية فى الحياة والفكر والدم ·

شعوب مختلفة وتسكنه أقوام متباينة عربية وافريقية مؤمنة ووثنية ٠

على أنه ربما يعـود ما بيننا من تشـابه الى اختزانات عقولنا الباطنة تحت التأثير القديم للحضارة الفرعونية أو لتسرب الفكر المصرى والقبطى الى السودان نتيجة الغـزو أو المشاركة فى الحكم أو الرغبة فى الاقتداء أو الاعتزاز الذى تكنه الاسرة الواحدة للنابغ فيها حيث يكون ٠

★★★

لايزال السـودان يعرف بجانب المدارس المنتظمة مدارس القرآن التى كانت منتشرة بمصر الى عهد قريب تحت اسـم الكتاتيب وهى بالسودان تعرف باسم الخلاوى (جمع خلوة) يتولى فيها الفقيه ويطلق عليه لفظ (الفكى) تعليم الاطفال بحفظ القرآن وقراءته أساسا ويرجع الفضل فى وجود هـذه الكتاتيب الى عهد محمد على باشا ٠

والرغبة فى التعليم فى السودان الحديث ـ ولا سيما فى المدن ـ كبيرة للغاية والاقبال على المدارس فى ازدياد مطـرد حتى باتت المدارس لا تكفى ، والاعتمادات المالية قاصرة ٠ وتقدم مصر فى هذا الميدان على نحو خاص معونة جليلة منذ سنة ١٩٢٣ ويقدر عـدد مدارس البعثة التعليمية المصرية الآن ما يربو عـلى العشرين مدرسة موزعة على معظم المـدن السودانية ٠ وهى تؤدى بجانب المدارس السودانية مهمة نشر التعليم بالسودان ٠

وكما الحـال فى مصر يعمـل السـواد الأعظم من الناس بالزراعة وان كان الأمر بالسودان يختلف عن مصر بالنسبة لهذه المهنة لاعتماد أنحاء عديدة بالسـودان على الثروة الحيوانية مما جعل الرعى حرفة يمارسها ما لايقل عن ٢٠٪ من السكان الذين يوصفون بشبه الرحل ٠

وقد أخذ السودانيون الآن يتجهون نحو الحرف الانتاجية

وان كان عددهم لا يزال ضئيلا بالنسبة لاحتياجات البلاد ٠ والحرفيون المصريون المقيمون بالسـودان فى الوقت الحاضر قليلون للغاية على عكس الحال فى بداية أيام محمد على باشا عندما بدأت حملات تعميره للسودان فى كل المجالات التى كان فى مقدمتها انشاء الورش للعديد من الصـناعات التى ادخلها الى السودان (صناعات التشييد والبناء والسفن والنسيج) ٠

ومما هو جدير بالاشادة الطفرات الحديثة للسودان فى هذا المجال التى قامت بها حكومة الثورة فى انشاء ودعم صناعات الغزل والنسيج والسكر (٧٣) ومعاصر الزيوت (السمسم والفول وبذرة القطن) والصـابون والاسـمنت والخمور والكبريت والاحذية والسجاير ومدابغ الجلود واقامة مصانع لتجميع الثلاجات وأجهزة تبريد الهواء ومؤخرا اجهـزة التلفزيون ٠ (٧٤)

ولا يزال يشكو السودان من كل ادواء الدول المتخلفـة فالهجرة الداخلية ومنه الى الخارج متواصلة والرغبة فى انجاب أكبر عدد من الاطفال متفشية والزواج يتم فى سـن مبكرة فى الغالب والزواج باكثر من واحـدة لايزال منتشرا بالشمال ٠

ومن المشـغولات اليدوية الفولكلورية المميزة التى لا تزال تلقى التقدير صناعة الحلى والآنية من الذهب والفضة على الطراز المعروف بالشفتشى (الفيليجاران) أو بالسـنارى

---

(٧٣) للسودان خطة بالنسبة لصناعة السكر يمكن لو تحققت ان تصبح (السودان) كوبا افريقيا من حيث انتاج السكر ، وفى بلدة كينانا اضخـم مصنع للسكر يمكن ان يوصف بانه اضخم مصانع افريقيا للسكر من حيث امكانية الانتاج والتكنولوجيا يراس مجلس ادارته وزير الصناعة السـابق واستاذ الهندسة القدير دكتور بشير عبادى ٠

(٧٤) من احدث مصانع الغزل والنسيج المصانع التى انشاتها الصين فى بلدة حصاحيصا سنة ١٩٧٤ ٠

نسبة الى بلدة سنار · كذا صناعة المباخر وخرط العاج ونحت الابنوس والخرتيت وصناعة الاطباق والأبسطة من الخوص وصناعة الفخار وان كان الملاحظ ان هذه الصناعات ليست باتقان ولا ابتكارات ولا تنوع مثيلاتها فى العديد من الدول الافريقية الاخرى مثل تنزانيا وزائير وكينيا ونيجيريا وزامبيا· وقد سمعت ان الشرب من الأقداح المصنوعة من قرن الخرتيت تشفى المسموم كذا قيل ان للخرتيت مثل ما للتمساح من المنافع الأخـــــرى ·

ولا تزال النساء تصنع المناديل المطرزه بالخرز والحصير والأبراش (جمع برش) ·

ومن المهن التى بدات تتطور سريعا نحو التحديث بمعاونة اليوجوسلاف والفرنسيين مؤخرا دباغة الجلود : جلود البقر والغنم والابل والتمساح والثعبان ·

كذا لم تعد التجارة بالسودان قاصرة على الصمغ وسن الفيل وريش النعام كما كانت قديما فقد بدات زراعة القطن والسمسم والفول (وكلها من المدخولات القديمة لمحمد على باشا الى السودان) تغل للسودان دخلا دولاريا ضـخما · والقطن ـ كما كان لعهد قريب بمصر ـ لايزال المحصـول الزراعى الاول بالسودان حيث تعتبر الجزيرة (جنوب الخرطوم بين النيلين) بما تزرعه من مليونى فدان اكبر مشروع تعاونى فى افريقيا حتى اليوم (٧٥) · والأمل كبير فى ان يخلق المشروع التكميلى بالمناجل مع مشروع الرهد الجديد (٢ مليون اخـــــرى) مع مشروع الجزيرة اضخم مسطح مزروع بالعالم · وخزان سنار فى موضعه بالجزيرة يمثل بحق اللجام حول رقبة النيل الازرق الذى ينحدر فى سنار على أقصى قواه كالحصان الجامح ·

---

(٧٥) مشروع مشترك ٤٠ ٪ للحكومة ممثلة للشعب ، ٤٠٪ للمستاجرين والباقى للادارة ·

وتقدر مساحة مشروع الجزيرة بنصف مساحة سويسرا وتكاد تكون مساحة كل المزروع فى مصر ٠

ومن الغريب ـ رغم الحماس للتكامل فى بداية الاتفـــاق عليه وخلال شهر العسل ـ انه لم يتيسر الاتفاق مع السودان حتى اليوم لدفع عجلة الاقتصاد بين البلدين على عودة الدور أو المحال أو الشركات أو المؤسسات أو البنوك المصرية الى الخرطوم مع ان الســـــودان انفتح كما انفتحنا ورحـــب بالمؤسسات الاجنبية كما فعلنا ٠ ولعله يمكن ان نذكر بهـــذه المناسبة قصة فرع بنك مصر بالخرطوم الذى كان فى وقت من الاوقات اكبر البنوك فى السودان مبنى ونشــاطا ٠ لقد أعلن عن تأميمه خلال زيارة للرئيس الراحـــل جمال عبد الناصر للخرطوم ضـــمن تأميمات اخـــرى راى ازائهـــا الرئيس عبد الناصر الا مجال للمناقشـة بشأن بنك مصر وهو مصدر الوحى فى هذا الميدان (٧٦) ٠

كذا كان الأمر بالنسبة للعمالة المصرية (عمالا وزراعا على نحو خاص) فلم يتيسر الاتفاق حتى اليوم على الاذن لهم بالعمل فى السودان على الرغم من ان مصر كانت ولا تزال مترجمة الذراعين دائما للاخوة السودانيين ٠

قد يكون الأمر من جانب السودان لحماية الايدى العاملة السودانية أو خشية التأثير على بنيان البيئة السودانية فكرا أو فى مجال الرزق ٠ ولعل هجرة التشاديين (والفلاتا) من غرب افريقيا والأرتريين من الشرق لعمل بالســودان (الذى يفتح بابه لهم على مصراعيه على عكس ما يفعله مع المصريين) باتت تنذره باشارات ضوئية متصلة الآن بمدى خطورة هذه

---

(٧٦) وقع فى باريس فى فبراير ١٩٨٢ اتفاق خاص بتاسيس بنك وادى النيل للتجارة والتنمية فى اطار برنامج التكامل بين مصر والســـودان ـ تصريح أخير لوزير مالية السودان السيد ابراهيم منعم منصور ٠

الهجرة على الكيان السودانى فيما لو قورنت بمدى تأثير هجرة العمالة المصرية ·

على أنه توجد مع ذلك ثلاث شركات مصرية تعمل بالسودان منذ زمن بعيد لا تزال تجاهد لشق طريقها وسط العديد من العقبات هى شركة بيع المصنوعة المصرية وشركة ريجوا للمياه الجوفية (أصبحت شركة من شركات التكامل) وشركة مصر لأعمال الاسمنت ·

★★★

يذكر الاستاذ نعوم شقير فى مؤلفه الضخم عن السودان أن أخلاق السودانيين تختلف باختلاف أصولهم سود أو شبه سود أو نوبه أو برابرة أو بجه أو عرب ·

وفى الواقع أن هذا التقسيم القديم لم يعد له أساس اليوم وان كان يمكن أن نشير اليه لطرافة عبارات المؤلف وغرابتها · فمثلا يصف الاستاذ شقير أخلاق الناس بجنوب السودان أنها تتسم بشدة الشهوات الجسدية والولع بالنساء وشرب الخمر ·

ويقول انه سمع أن بعض أفراد القبائل بالجنوب يعالجون ضفر شعورهم بطلاء من الرماد وروث البقر وبوله ممزوجا بالغراء مزينا بالخرز والريش · (٧٧)

ويدهن الناس بالجنوب أجسادهم بالشحم ويشرطون جباههم واجسادهم ويلونونها ببعض الألوان قصد الزينة · وقد رأيت شخصيا بعض جماعات من هؤلاء الناس فى مدينة جوبا فى حلقات رقص مائجة فى أحد أيام الآحاد ·

ويخلع أفراد قبائل الجنوب اسنانهم السفلى على النحو السابق بيانه فى فصل سابق ويحدد (الشيلى والشيرى) أسنانهم بالمبرد حتى تشبه المنشار ·

---

(٧٧) يراجع كذلك هـ · جاكسون فى كتابه عن السودان الحديث (١٩٥٥) دار ماكميلان للنشر ·

وأكواخ الجنوبيين افريقية أسطوانية من الطين عليها قباب مخروطية من البوص والقش ويفرشونها بجلود البقر ويصغرون أبوابها حتى لا تعلو على المتر الا نادرا بحيث لا يمكن الدخول منها أو الخروج الا بالانحناء أو الركوع ·

وطعام الجنوبيين غالبا الذرة المسلوقة مع اللحم وجذور المانيوك (نوع من البطاطا) ويصطادون السمك ليأكلونه مقددا ·

ولندرة الملح كانوا فيما مضى يعتاضون عنه بالرماد وشرابهم يسمى الماريسا وهو كالبوظة مستخرج من الذرة ·

والجنوبيون مولعون بالرقص ولعا شديدا ولكل قبيلة منهم رقصة خاصة يرقصها الرجال والنساء معا على أصوات آلاتهم الموسيقية التى أهمها الطنبورة (وهى آلة وترية)ـ والطبلة · (٧٨)

ومعظم الجنوبيين يتخذون من البقر رمزا الى القوة والعزوة ويعتبرونها أقدس المخلوقات يعنون بها عناية فائقة ويفضلونها على نسائهم وأولادهم ولا يذبحونها الا نادرا ولا يشربون لبنها وهم يأتون بها الى ساحات الرقص معلقين الأجراس فى قرونها وأعناقها ويرقصون معها · ومن القابهم الثور للرجل والبقرة للمرأة · وأذكى الروائح لديهم رائحة أرواثها وهم يجففونها ويحرقونها حول بيوتهم لطرد البعوض ويتمرغون فى رمادها زاعمين أن له قوة سحرية على شفاء الجروح · وأما بولها فيفضلونه على الماء (لوجود الملح به) وبه يغتسلون ويغسلون آنيتهم · (٧٩)

ويظهر أن (الشلك) يقدسون النيل ويتوسلون اليه ،

---

(٧٨) تتولى فرقة الفنون الشعبية للرقصات الفولكلورية السودانية اخراج هذه الرقصات الان على نحو رائع يكاد يكون شاملا لكل رقصات السودان·
(٧٩) المرجع السابق ·

ولا يتكلمون عن موتاهم الا بكل خوف معتقـــدين ان أرواح الموتى تتطاير فى الهواء وتسكن تجاويف الاشـــجار متقمصة أجسام الحيوانات متربصة بمن يسىء الى سيرتها ٠

ولكـــــل قبيلة رئيس دينى له احترام عظيم حتى ان الملك لا يقدم على حرب أو يحجم عنها الا بمشورته ورأيه ٠

وهم يعتقدون فى السحر والقـــــدرة على انزال المطر او حبسه ٠

★★★

ينتقل الاستاذ نعوم شقير فى كتابه من السود فى الجنوب الى ما اسماهم يشبه السود فيقول ان هؤلاء لا يشبهون السود الا فى اللون وفيما عدا ذلك فهم أقرب الى العـرب البدو منهم الى السود ٠ (٨٠)

وصفهم الكاتب بأن رجالهم يلبســـون القميص والسروال ونساؤهم قطعة من القماش تغطى الأكتاف والأبدان ٠ وقال أنهن يمشطن شعورهن جدائل دقيقة جدا على اشكال شتى ويتحلين بالأساور والحجول (الخلخال) والأقراط والأخزمة (جمع خزام وهو الحلقة بالأنف) والخواتم مـــن النحاس والفضة والذهب والحديد والعاج ٠

سلاحهم الحراب والسيوف ومســـــاكنهم أكواخ هرمية وطعامهم الدخن (وهو حبوب كالذرة) يعدونه كالعصيدة ٠ وشرابهم ماء الآبار أو الينابيع ٠ وهم مولعون بشرب البـوظة ويعتقدون فى السحر وبلادهم مملوءة بالمجذوبين ٠

★★★

يعود الاستاذ شقير بعد ذلك الى البرابرة (وهو لفظ يطلقه

---

(٨٠) المرجع السابق ٠ لم احاول التعرض فى هذا الفصل الى اصول القبائل وفروعها وانتماءاتها على النحو الذى يتبعه الكتاب الاوربيون فى مثل هذه الدراسة عن الاجناس مفصلا تقسيمات نعوم شقير لبساطتها ٠

السودانيون حتى اليوم بالخرطوم على أهل النوبة) بالقول عنهم بأنهم اصحاب جلبة كبيرة حتى ضرب بهم المثل « عشرة يتكلمون وواحد يسمع » !

وكما يحلو لنا بمصر ان نطلق النكات على أهل الصعيد فان اهل الخرطوم يقصون عن النوبيين ان ابراهيم باشا عندما اخذ بعضهم فى جيشه الى سوريا أحسوا بالبرد فاحـــرقوا أخشاب بنادقهم للتدفئة ٠

على انهم كرماء يحبون ضيوفهم ويصونون عرضـــهم ، يتسمون بالنظافة ويتميزون بالقناعة والصـــبر وطمانينة النفس وخلوها من الحقد والضغينة الى جانب عفة اليد وعفة اللسان ٠

ولضآلة مواردهم فان بيوتهم متواضعة من الطوب الخـــام أو الحجر والطين ويسقفونها بخشب النخيل الذى تزخر به بلادهم ٠

اشهر آلاتهم الموسيقية الربابة ورقصهم خاص بالفتيات غير المتزوجات اللاتى اذا برزن للرقص وقف الشبان حولهن حلقة يصفقون لهن ويضربون الارض بأرجلهم على ضرب الربابة أو الطبلة ٠

★★★

والبجة يشبهون العرب ولكنهم احد طباعا وهم ســكان البادية ٠

أما عرب السودان فلون رجالهم أشد سمرة من المصريين لشدة حرارة الجو وكثرة زواجهم من النوبة والســود ٠ ونساؤهم يغلب عليهن اللون القمحى او اللون الضـــارب الى الصفرة ٠

والمعروف عنهم عادة تشليخ وجوههم بقصد الزينة (٨١)

---

(٨١) اخذت هذه العادة فى الزوال تدريجيا ٠

ولكل قبيلة منهم شلوخ معلومة · فللشايقيه ثلاثة شلوخ أفقية على كل خد ، وللجعليين ثلاثة عمـــــودية على كل خـــد ، وللعابدلاب على كل خد ثلاثة شــــــلوخ عمودية تحتها شلخ أفقى يسمى بالعارض · والمرأة تشلخ وجنتيها أحيانا شلوخا دقيقة كمخالب الطير ·

وتتم عملية التشليخ فى زمن الطفولة · والشلوخ فى الوجه والوشم فى الفم يعدان من صفات جمال المرأة ·

وكان يحضرنى دائما عنـــــدما كنت أرى امرأة جميلة بالسودان نص قديم عن المرأة السودانية الجميلة جاء فيــه « انها هى التى تكون مربوعة القامة مع الميل الى الطول ، صفراء اللون ، طويلة الشعر غزيرته ، واسعة الجبين ، زجاء (٨٢) الحاجبين ، دعجاء العينين ، سادلة الأهــــداب ، قنياء (٨٣) الانف ، لا كبيرة الفم ولا صغيرته ، عريضة الشفة الســـفلى موشومتها وموشومة اللثة مفلجه الأسنان بيضاءها ، مشلخة الخدين ، صغيرة الذقن ، طويلة العنق ، منخفضة الكتفين ، واسعة الصدر ، ناهدة الثديين ، رقيقـــة الخصر ، قصيرة الظهر ، مجدولة الساعد والساق ، رقيقة الاصــــابع ، بارزة الردفين ، صغيرة القدم ، رشيقة الحركة ، لينة الأعطاف اذا رقصت انثنت الى الوراء حتى يصل رأسها الى قدميها (كذا) واذا مشت تمايلت كالغصن اذا حركه النسيم ، خفيفة الروح ، باسمة الثغر ، طلقة المحيا ، مصونة الحجاب ، جميلة الحركة اذا أقبلت أو أدبرت » ·

وأجمل نساء السودان نساء قبيلة الزندى بالجنوب ونساء الجزيرة والخرطوم بالشمال ·

والمعروف عن السودانيين العرب المعروف عامة عن العرب

---

(٨٢) رقيقتيهما ·

(٨٣) منتصبة عكس فطساء ·

من حب الضيافة والكرم والمروة والشهامة والنجدة والأخذ بالثأر ومراعاة الجار والصبر والتدين ويمكن أن يقال بمناسبة التدين أن الطرق الصوفية بالسودان لا عد لها فكلما اشتهر شيخ بنوا له قبة ومزارا وعقدوا حوله حلقـــات الذكر طلبا لشفاعته ٠

ومن أكثر الطوائف بالسودان انتشارا الدسوقية والشاذلية (أولها نشوءا ٠٠) والقادرية والجيلانية (أول طريقة اشتهرت بالسودان) والسمانية والاسماعيلية والتيجانية والأحمدية والرفاعية المرغنية (وهى مأخوذة عن النقشندية والشـاذلية معا وقد دخلت السودان فى آخر سلطنة الفونج على يد السيد محمد عثمان الميرغنى وهى من أكبر الطوائف بالســـودان وأبرزها لاتصالها بمصر من حيث رعايتها منذ البداية للاتجاه الوحدوى مع مصر المناهض للحركة الانفصالية تحت رعـاية المهدية) ٠

★★★

وللسودانيين الدرب رقصـات فولكلورية لا تزال تؤدى من خلال مضامينها القصصية القديمة ٠

وقد أجاد الأستاذ الفاتح التيجانى وكيل وزارة الثقافة والاعلام السودانى القول عنـــدما قال فى بحث اخير له عن الثقافة والفنون فى السودان أن الرقص الشعبى يرتبط فى السودان ارتباطا وثيقا بأنماط الموسيقى والغناء الشائعة فى كل منطقة فبتعدد الاقاليم والبيئات والعادات والتقـــاليد واللهجات تعددت أنماط الرقص وأشكاله ٠

وللبيئة أثرها البارز فى تحـــديد وتشكيل الرقص فى كل اقليم حيث توجد رقصات خاصة للحروب وأخرى للصـــيد والزراعة والمطر والجفاف وغيرها ٠٠ فمثلا رقصة المسـيرية بسرعة حركتها وزركشة أزياء الراقصين واهتماماتهم بمحاكاة الطبيعة بلبس ريش النعام والطيـــور وجلود الحيوانات تعبر

عن ممارسة عمليات الصيد والفروسية فى الحياة اليومية وهذا الأثر يلاحظ بوضوح فى كثير من الاقاليم الرعوية حيث يهتم الناس بصيد الحيوانات البرية المختلفة ·

ورقصة الكجور وهو الساحر أو الزعيم الروحى بجبال النوبة تعبر عن عمق الاعتقاد فى القرى الروحية الكامنة فى الكجور ، والتى يؤمن الاهالى بها وبأثرها الفعال فى معالجة الامراض والكشف عن الغيب ·

ورقصة السيف فى الشرق هى الأخرى مستوحاة من طبيعة الحروب فى المنطقة وما تتطلبه البيئة الجبلية من سرعة وحذر لابراز قدرات المقاتل فى درء الأخطار المتوقعة ·

ورقصة الشايقية فى الشمال توحى بمقدرة الراقصين على الانسياب فى هدوء على أنغام الطنبور الميلودية وتستوحى الطبيعة الهادئة لتضفى روحها على النخيل وعلى ضفاف النيل ·

وهناك رقصات تأتى تعبيرا عن طبيعة الوجدان الدينى لدى السودانيين فتستخدم النوبة مثلا الآلة قوية الايقاع والاذكار والتراتيل النابعة من صميم الوجدان الفياض بالشوق الالهى المتجاوب مع البيئة من حول الناس ·

★★★

ويلبس السودانيون العرب السراويل أو القفاطين الجبب على ان الثوب الغالب عبارة عن جلباب قصير يسمى (بالعراقة) · ويتعممون بعمامة بيضاء كبيرة تتباين طريقة لفها بتباين الطائفة أو السلالة · وهم غالبا يلبسون نعالا فى أرجلهم ·

أما الأطفال ذكورا واناثا فانهم يبقون فى داخلية البلاد عرايا لا يسترهم شىء الى نحو سن الخمسة فتستر البنت اذ ذاك نفسها (بالرهط) (٨٤) وهو سير من الجلد يعقد حول

الخصر تتدلى منه شرائط دقيقة (كالشراشيب) أو الشراشر بالفصحى تصل الى مافوق الركبتين • وقد تلبس البنت فوقه قطعة قماش أو تبقى عارية لا يسترها الا الرهط حتى تتزوج فتخلعه لتلبس بدلا منه الثوب وهو خمسة أمتار من القماش على الاقل تلفها المرأة حولها كما هى بدون خياطة بطـــريقة تغطى بها الرأس كما تفعل المرأة المصرية آلتى لا تزال تلبس ما نسميه (بالملاءة اللف)• والمقتدرات تلبس (الفركة) لدى الزواج بعد قطع الرهط وهى من الحـــرير الملون تلبس (كالجوب) •

وعن (الفركة) هذه سمعت أول ما سمعت عنهـــا لدى مناقشة قوائم سلع التصدير المصرية فقد قيل لى أنها من أهم البنود بين الصادرات المصرية الى السودان •

ونساء العرب بالسودان يضفرن الشعر ضفائر دقيقة ترخى على الخدين والعنق فى دلال وفتنة •

وأشهر حلى النساء الخواتم والأساور والحجول مـــن الفضة أو العاج أو المرجان أو الســــوميت ، والاقراط من الذهب والفضة والخرز والعقود والأخزمة (بـــدأت تندثر) والعصائب (مثل الطاقية) من الذهب لـــدى المقتدرات عند الزواج •

كما يذكر من بين حلى النساء الحقو (بضم القاف) وقــد كاد أن يندثروهو حزام دقيق من الجلد منظوم فيه خرز مـــن الكهرمان والعقيق الأحمر والسوميت يلبس كالازار تشده المرأة فى وسطها حول الخصر • وفى كل حقو كرتان مجوفتان

---

(٨٤) وينطق كذلك بالرحط وكانت العرب تلبسه ويسمونه الرهــــط (بالهاء) وجاء فى لسان العرب « وكانوا فى الجاهلية يطـــوفون عراة والنساء فى أرهاط » •

وقطع الرهط فى السودان يعنى كأحد طقوس العرس بداية الحيــــاة الزوجية •

من الفضة أو الذهب توضع فيهما حصى صـــغيرة ليسمع لها رنين عند الحركة ·

وعرب السودان عموما لنساء ورجالا يتطيبون بالمسك والمحلب والقرنفل والصندل ·

وأحب المركبات العطرية لدى النساء مركب سائل يسمى بالخمرة (بضم الخاء وســـكون الميم وفتح الراء) · مكون من مقادير معينة من المسك والقرنفل وغيرها من المركباتتذاب بماء خشب الصندل وتخمر وتحفظ فى أحقاق محكمة الغطاء·

والدلكة (بكسر الدال وســـكون اللام وفتح الكاف) من أشـــــهر عاداتهم وهى تعنى التدليك فهم يأخذون بعضا من معجون الذرة يتركونه فى قدر فوق نار من خشب الطلح حتى يتدخن برائحة الأخشاب وهنا يخلطونه بمعجون آخر هو معجون الدلكة المكون من مسحوق القرنفل والمحلب وخشب الصـــندل ويضيفون اليه اللبان والمسك ثم يقطعون هذا الخليط قطعـا صغيرة يدلكون بها أجسادهم · ثم يتطيبون بالخمرة ·

وقد أصبحت الدلكة والخمرة الآن من نصيب النساء فى الغالب · ويقول بعض الاطباء أن للدلكة فوائد صحية منهـا انها تقوى الاعصاب وتقلل العرق مع ترطيب الجلد وتزيل شعر الجسم وتكسبه ملاسة ونعومة ·

على أن هناك ما يطلق عليه (بالتدخين) وتختص بهالنساء دون الرجال وهو بمثابة الحمام لهن داخل غـــرفة كثيرة النوافذ فى وسطها حفرة صغيرة يوضع الى جانبها كرسى أو دكة خشبية فاذا أرادت المرأة التدخين أوقدت فى الحفرة نارا من خشب الطلح أو غيره من الأخشاب الطيبة الرائحة وسدت نوافذ الغرفة الا نافذة واحدة لخروج الدخان ، ثم تتجرد من ثيابها وتمسح جسدها بزيت السمسم ثم تغطيه ببطانية مـن الصوف وتجلس على حافة الحفرة وساقاها ممدودتان فوقها (قيل لى أن بعضهن يجلس على كرسى مثقوب القاعدة يوضع

فوق الحفرة مباشرة) وتبقى المرأة كذلك الى أن تنطفأ النار فتقوم وهى ملتحفة بالبطـــانية لتستلقى على الكرسى أو الدكة وتفتح النوافذ واحدة بعد الأخرى حتى يخرج الدخان ويجف عرقها تدريجيا فتأتى احدى الخادمات أو الصديقات لتدلكها وتطيبها بالخمرة ·

ومن خصائص هذا التدخين أنه يكسب المتدخنة لونا أصفر كالبرونز ورائحة عطوية خاصة · وقـــد قيل لى ان المرأة قبل الزواج غير منصوح لها أن تتدخن على اعتبار أن التدخين مرتبط باثارة الجنس وعملية الحب · ورائحة المرأة المتدخنة لها لدى الرجل السودانى فعل السحر مهما تثقف وعلا شـأنه لما تثيرد فيه من كوامن قـديمة منذ طفولته فى حضن امه وهى متدخنة · ويقال للرجل الذى يشتهى امـــرأة حتى اليوم انه عندما رآها شم رائحة البخور منها ·

★★★

ومساكن السودانيين العرب كما هى فى الخـرطوم وغيرها تبنى غالبا بالطوب مربعة الشكل مسطحه الســـقوف محاطة غالبا بحوش يحوطه سور وغالبا ما يكون هناك حوش داخلى آخر للنساء وسط المسكن ·

هذا الجو العربى القديم اكتســحته فى الكثير من الأحياء فى الخرطوم وبورسودان وبعض البلاد الاخرى موجة التحديث حتى بات المرء يجد فى الخرطوم بالذات أحياء متسعة عديدة وكأنها اجزاء من اوربا تتوفر فى منازلها ومبانيها كل مايتوفر فى مدينة حديثة ، والفنادق الكبرى فى الخرطوم عالمية المظهر والخدمة ·

ومن أهم قطع الأثاث لدى السودانيين (العنجريب) وهو سرير من خشب مشدودة قوائمه الأربعة بسيور من جلد البقر أو بحبال من سعف النخيل أو الدوم أو حبال البلاستيك الآن يفرش بسجاده أو برش ليستعمل للجلوس والنوم وهو لا يزال نسخة مطابقة للسرير الفرعونى ·

كذا (البنبر) وهو الكرسى الصغير المنخفض ٠

وقهوة السودانيين كما يجب ان تكون وكما كانت اصلا غير قهوتنا فهم يحمصون البن بتحريكه فى اناء فوق الجمر ثم يدقونه الى أن ينعم ٠ وفى أثناء ذلك يغـــــلى الماء فى الجبنه (بفتح الجيم والباء والنون) وهى ابريق من الفخار ليوضع البن فيها الى أن يفور فتصب القهوة فى الاقداح مصـــــفاة بقطعة من ليف النخيل التى يسد بها فم الابريق ٠

وطعامهم الذرة والارز واللحم والسمك ومن الخضر الباميا والويكة واللوبيا والملوخية ٠ وأحب أطعمتهم (المرارة) وهى خليط من الكبد والكريشة والفشة والمرارة والليمون والبصل والشطة ٠ و (الشرموط) وهو شرائح من اللحم الرقيقـــة تخزن للطبخ) و (الملاح) وهو عبارة عن اللحم المقدد والبامية المهروسة والبصل ٠ و (الكسرة) هى الخبز السودانى ٠ وكما يعبر عن المودة بين الناس بمصر بالعيش والملح يعبر عنهـا فى السودان بالكسرة والملاح ٠

وأشهر بهارات السودان الشطة والكمون والكزبرة والشمر والفلفل والقرفة والزنجبيل وجوزة الطيب ٠

ومن أهم وجباتهم (الفطور) حيث يكاد يقدم فيه كل شىء لا سيما الفطائر والعسل ٠

ومن عادات السودانيين بالشمال كذلك تدخين الطبـــاق وأحيانا بمضغونه وتعرف هذه العملية بالسفة (بفتح السين وبفتح الفاء مشددة) اذ يضع المرء منهم سفة الطباق تحت لسانه ويشرع فى البصاق ٠

ومن أحب المشروبات الأبريه (بفتح الألف وسكون الباء وكسر الراء) وهو أصلا دقيق مذاب بالسكر مع الكمون يترك ليختمر ثم يخبز ويفتت للاستعمال وقت الحاجة فهو ضرب من الكسرة ، (والشربوت) وهو نبيذ مسكر مخمر من الذرة ٠ (والسوبيا) معروفة بالســـــودان كذلك ٠ على ان الشراب

المنتشر الآن هو (الحلومر) وهـــو خليط من منقوع التمر والكركديه ونباتات أخرى . ومشروبهم الكحولى المحلى يسمى (بالشرى) وهو نوع ردىء من البراندى .

★★★

وأفراح زواجهم مبالغ فيها . ترقص الزوجة لزوجها يـوم الزفاف عندما يتقدم اليها ليقطع رهطها (حزام الجلد حول خصرها وقد سبق الحديث عنه) ثم يشرع فى مداعبتهـــــا وترقيصها بما يعرف بالدلع وذلك بأن يغمز خنصرها ويخز خاصرتيها بظفر يتركه يطول بأحد أصابعه لهذه الغايةفتتلوى العروس عندئذ وتتحرك حركات بطيئة رشيقة بحيث انها اذا واجهت العريس وخزها بظفره فتنقلب بخفة ورشاقة وتوليه ظهرها صائحة صياحا عاليا قائلة « واى واى » متابعة ذلك بأنات رخيمة وشهيق مستعذب . وأشهر رقصة تؤديهـــا العروس فى هذه المناسبة رقصة الحمـــامة اذ تتثنى العروس بجسمها ورقبتها أماما والى الخلف كما تفعل الحمـــامة وفى أثناء ذلك تغنى النساء أغنيات تصف العريس بالســخاء والمروءة والعروس بالجمال ورفعة النسب .

ويبخ العروسان أحدهما الآخر باللبن صـــباح يوم الزواج تفاؤلا واستبشارا .

على ان الغريب بعد هذه الافعال الجنســية المفتوحة أن العروس تمكث الأربعين يوما الاولى لا تكلم عريسها ولا تجيبه على خطاب ألا اذا حسن كلامه فى عينيها فتجيبه بابتسامة أو اشارة بالرأس واذا لم يكتف بذلك وأحب الجواب باللســـان أعطاها بعض المال فتجيبه بما قل ودل . ويسمى ذلك بكروة (بمعنى أجر) الكلام .

وبعد تمام الأربعين يوما يدعـــو العريس الى وليمة تعرف بيوم البشة بمعنى البشاشة ومن أمثلتهم « أن العريس يعرف من بشته » أى يعرف بكرمه ونوع هداياه يوم البشة .

وولعل هذه العادات المتمثلة فى رقصـــة الزفاف وفى فترة شحذ الرغبة خلال الاربعين يوما التالية لعقـــد الزواج . لعل هذه العادات تخفى من ورائها أساسا مأساة عملية ختـــان المرأة كمحاولات مظهرية للطرفين من قبيل التعويض عن برود الحس الجنسى أو الرهبة من الجنس لدى المرأة نتيجة هـــذا الختان الذى ينسبونه خطأ الى مصر حينما يصفونه بالختان الفرعونى · (ويا ليت شعرى لقد سلبوا نســـاءهم الحس وقالوا الفراعنة !) ·

وعملية الختان هذه من أقسى العادات التى لا تزال ـ رغم التوعية الحديثة بمختلف وسائل الاعلام ـ متخلفة عن العصور القديمة أو عهد الجاهلية بالسودان · انها تقضى على البنات بالعذاب الموقت عملية الطهور وعلى النساء بالالم المرير لدى الزواج وكل ولادة أو ممارسة للجنس حيث تستأصل كـــل أوصال عضو المرأة الخـــــــارجية ليخاط كلية الا من فتحة لقضاء الحاجة فقط ·

ويرتبط باحتفال الزواج عادة يوم الحنة (٨٥) ومع انصبغ اليدين والاقدم بالحنة عادة منتشرة طوال الوقت الا أنهــــا تكاد تكون من طقوس الزواج الحتمية لدى عقده ·

وقد يلاحظ المرء الآن بالسودان أن الحنة هى الأخرى قـد لحقت بها موجة التحديث فلم يعد الرجل السودانى المتعلم يصبغ من كفه اليوم الا أصبع واحد على ســــبيل الرمز · أما المرأة فلا تزال (تتحنن) كما كانت تفعل بل انها أبدعت اليوم فى تصميم الحنة وامتدادها من الكفين الى الساعدين ومن القدمين الى الساقين ومن يدرى فلعل تحت الثوب رسوم الحنة على الفخذين والبطن أيضا ·

ولباس المرأة السودانية الحديثة اليوم ويسمى الثوب هو

(٨٥) ليلة الحنة والصباحية والنقوط والسبوع عادات مصرية قديمة ·

عبارة عن قطعة من القماش الشفاف بأى لون او رســـم تلتف به حول الجسم مثل السارى الهندى دون كشف عن آلبطن مع طرحه على الرأس فى أناقة ودلال تتعمد اسقاطه بين الحين والآخر حتى الكتفين لتعيده من جديد الى الراس · وكان هــذا الثوب عندما كان الزى الأوربى فوق الركبتين على أبلغ ماكانت عليه (الموضة) شفافا منخفضا يكشف عن النحر ، عاليا حتى منتصف الفخذين بشكل مكشوف مغـــــر لاقصى الحـــــدود أحيانا · (٨٦)

★★★

والســودانيون يعتقدون فى الجن والتعزيم والكرامات ومن اكثرها انتشارا ذبح بقرة أو (غنماية) توضع للخطو عليها لدى مدخل أى مكان جديد أو افتتاح مشروع جديد من قبيل الضحية واطعام الفقير على النحو المتبع لدى كل الشـــعوب العربية ·

ومن عاداتهم أيضا القسم بالطلاق فى مناسبة وغير مناسبة والاعتقاد فى كتابة الأحجبة والتمائم وكم كنت أرى الحجاب متدليا من تحت ابط الكثيرين من الرجال رغم علمهم وعلو مكانتهم ، كما أنهم يتشاءمون ويتفاءلون ·

وحالات الجذب (السماوى) لا تزالا تشاهد بالسودان بما تجره من حلقات ذكر ودروشة وأحيانا من دجل واحتيال وقد يرجع ذلك الى طغيان آلعنصر الصوفى والاهتمام البالغ بكرامات الأولياء والتركيز على الذكر والاساطير والطقوس وقد تكون حلقات الذكر للرجال وحلقـــــات الزار للنساء من

---

(٨٦) اضطر الرئيس نميرى فى احدى خطاباته ان يحذر النساء من هذه المبالغة فى ارتفاع الرداء فوق الركبتين وشفافية الثوب من فوقه ·

قبيل الايحاء النفسى أو التنويم الذاتى للنفس تفريجا عنها علاجا أو ترويحا ٠

أما أحزانهم ومآتمهم فانهـا تتم بضجة كبرى وتكلف كثيرا ولكنها غالبا ما تكون مناسبة للتعاون والتكاتف بين الاهـل والجيران ٠

والعادة التى يلحظها المصرى فى السودان على الفور نداء السودانيين لبعضهم البعض بالأسماء المجردة رجالا ونساء صغارا وكبارا دون ألقاب أو (تسييد) اللهم الا لدى مخاطبة رجال الدين والعلم فالنداء يوجه اليهم بلفظة « مولانا » ٠

٧

حاطب بليل

باستعراض تاريخ السودان الحديث منذ الفتح المصرى ١٨٢٠ حتى الاستقلال ١٩٥٦ يمكن ان نرى ان السودان قد مر على خمس مراحل :

ـ السودان المصرى (الوحدة او الفتح او العهد التركى كما يقول السودانيون) ٠

ـ السودان السودانى (المهدية) ٠

ـ السودان الانجليزى المصرى (الحكم الثنائى) ٠

ـ السودان السودانى (الاستقلال) ٠

وسنعالج كل مرحلة على حدة فى فصل مستقل (٨٧) بادئين٠ بالسودان عام ١٨٢٠ عندما جهز محمد على باشا والى مصر وقتئذ حملة لغزو السودان بقيادة ابنه اسماعيل الذى تمكن من انجاز ما كلف به فى نفس العام ٠

---

(٨٧) ستكون محاولتى للتحدث عن هذه العهود فى تاريخ السودان الحديث من خلال الاوضاع الحالية التى عايشتها مؤخرا حيث ان احداث هذه العهود ـ بدون لعب فى الالفاظ ـ لم تكن فى الواقع الا الخامات التى نحت بها التاريخ قسمات وجه السودان الحديث ٠

ويلاحظ أن الموسوعات العلمية كانت تسمى السودان بالسودان المصرى حتى قيام الثورة المهدية ٠

على انه من الطريف ان نذكر بهـــذه المناســـبة ان فتح السودان على يد محمد على باشا كان بعد ثلاثمائة ســـنة من الفتح العثمانى لمصر نفسها على يد السلطان التركى سليم الفاتح ١٥٢٠ ، مما يمكن القول معه بأن فتح السودان كـــان مصريا أكثر من تحميله بالوصف العثمانى ٠

★★★

علم محمد على باشا من التجار المصريين المترددين على مدينة سنار ان الاوضاع بالسودان قد انهارت فلم يعـــد لسلطنه الفونج قوة بعد أن استأثر وزراؤهم ويسمون بالهمج مقاليد الحكم ، فقرر وهو الوالى الطموح اســـتغلال الموقف وفعلا أوفد ابنه اسماعيل باشـــا على رأس حملة عسكرية للاستيلاء على الســـودان (٨٨) بعد فراغه من الحـــروب الوهابية فى الحجاز ٠

ولم يكن محمد على باشا فيما فعل يستهدف مد سلطانه بقدر ما كان يسعى للاستيلاء على مناجم الذهب التى ــ كمـا يذكر المؤرخون ــ قد طبقت شـــهرتها الآفاق بمصر فى هذا الوقت ٠

كما كان من أهدافه استئصال شأفة المماليك الذين فروا الى السودان وتمركزوا بدنقله عقب تنكيله بهم فى قلعة القاهرة ٠

وكأى رجل عسكرى محترف نظر محمد على الى الســودان كمصدر سهل لتوريد الأنفار لجيشه المتزايد الواعد كمـــا كان حريصا على شغل فراغ جيشه باستمرار متحينا الفرصـــة للتخلص من الجنود الالبانيين الذين بدءوا فى معارضته ٠

وكان سن الفيل وريش النعام كذلك على قائمة مشترياته

---

(٨٨) كان سن اسماعيل باشا وقتئذ ـ وهو غير الخديوى اسماعيل كمـا هو معلوم ـ ٢٢ سنة وقد بدأ تاريخ السودان المكتوب فعلا منذ هذا الفتح المصرى ٠

بجانب الذهب الذى دفعه اساسا ـ كما دفع الفراعنة من قبل ـ الى فتح السودان ٠

وقد اعتنم محمد على الفرصة فوضع الخطط لفتح ابواب التجارة المنتظمة بين الشمال والجنوب بعد أن كان لا يقـــوم بها الا المخاطرون والمهربون من المصريين من أهل الصعيد ٠
وكانت مهمة اسماعيل هينة فلم يعارضه أحد بل كان الملوك والمشايخ يتلقونه بالطاعة والامتثال ، لقد دخل سنار ودنقلة وبربر ثم الخرطوم فى مايو ١٩٢١ ٠
وتذكر قصة فتح السودان أن محمد على عنـدما راى ملكه يتسع تغالى فى طموحه فأوفد ابنه الثانى ابراهيم لمعـــــاونة أخيه اسماعيل لتنظيم البلاد ونوال مجد اكتشاف منابع النيل وفعلا سار ابراهيم بعد وصوله الى بلاد الدنكا بالجنوب ٠
وأما عن الذهب فالقول للمؤرخين أن اسماعيل حاول مع أحد العلماء الفرنسيين فى بنى شنقول حفر عدة أماكن ولكنه لم يعثر الا على قطع صغيرة من التبر خيبت أمله ٠
واســـتمر الجيش المصرى فى فتوحاته فى بداية عشرينات القرن الماضى حتى استولى على كردفان بعد مقاومة شجاعة من جيش الفور ٠ وتحكى بهذه المناسبة قصة عن أحد فرسان هذا الجيش هاجم أحد مدافع المصريين بسيفه حماساوهو يهتف « انى هاجم على هذا المدفع لأضربه بسيفى فان عشت كـان قسمى وأن مت كان وسمى » وبطبيعة الحال مات دونكيشوت كردفان ولكن تاثير ضربته على المدفع بقيت شـــــاهدا على اقدامه ٠

واستمرت الامور تسير علىما يشتهيه محمد علىبالقاهرة واسماعيل بالسودان الى أن غدر الملك نمر به فى شــندى عندما أحرقه ومن معه باحراق منزله كله عقب وليمة عشاء دعا الملك الثعلب لا النمر اسماعيل اليها تكريما له ٠
ولقد أثار ذلك محمد بك الدفتردار صـــهر محمد على باشا

الذى كان وقتئذ يقود فصيلة من الجنـــــد فى كردفان فبـــدا الانتقام الى أن أخذت الأمور فى الاستقرار ٠

غير أنه يبدو أن هذا الاستقرار كان على دخن فلم يتيسر للولادة (الاتراك) رغم ادخالهم النظم الادارية لحكم البـــلاد ان يستقطبو الناس الذين استمروا يتحينون الفرصة لطردهم مؤمنين بالمثل « ان الرجال شراده ورادة » (بفتح وتشديد الراء فى الكلمتين) لا سيما عندما ماساءت الأمور بمصر نفسها ولم يعد ولاتها على المستوى المبتغى من المســـئولية أو روح الخدمة العامة ٠ فلا يزال السودانيون يذكرون حتى اليوم ولاة مثل على باشا سرى الارناؤوطى (١٨٥٤ ـ ١٨٥٥) الذى لم يكن له من هم الا ملأ جيوبه بالذهب ، وأراكيل بك الارمنى (١٨٥٧ ـــ ١٨٥٩) ثارت عليه جموع الســـودانيين لكونه نصرانيا من غير دينهم ، وحسن بك ســـلامة الشركسى (١٨٥٩ـ١٨٦٢) فظ الاخلاق سىء الادارة ، وجعفر باشـــا صادق (١٨٦٥ـ١٨٧١) الذى ضرب بعنف رافعا شعار « يد الميرى طويلة»، وجوردون الانجليزى (١٨٧٧ـ١٨٧٩) الذى عمل لحسابه وكان من أشر أعماله احتكار تجارة العـــاج أهم تجارة وقتئذ ، وغيرهم كثيرين ممن ابتلى بهم الســـودان ومصر على السواء ٠

كما لم يكن هؤلاء الولاة للأسف الشديد مخلصين فى الغاء تجارة الرقيق بين عرب السودان وغيرهم من أبناء السودان وبين السودان نفسه ومصر والحجـــــاز وسوريا وتركيا وفارس ، الأمر الذى جعل الاتجار بالرقيق (أو العاج الأسود كما كان الوصف) من أربح المهن وأكثرها انتشـــارا ٠ فى فى هذا العهد ٠ (٨٩) ٠

---

(٨٩)وقد قيل فى هذا الصدد ان صيد الفيلة انتقل الى صيد النـــاس فأصبح تاجر العاج تاجر رقيق أيضا وصاحب قوة سياسية ٠

وكانت اثمان الرقيق تختلـــف من الريال الواحد الى الخمسمائة ريال وذلك باختلاف اجناسهم واعمارهم وبنيتهم وبعدهم عن منبتهم الاصلى · وثمن الأنثى أعلى من ثمن الذكر · واعز الرقيق رقيق الحبشة ثم رقيق الدنكا بجنوب السودان ثم النوبة ثم الفور بالغرب· وأدناها رقيق الشلك بالجنوب ·

وشر ما اقتضته هذه التجارة القبيحة ، فى هذا الوقت خصى العبيد ·

★★★

وكما تقاضى القاعدة بان الفساد يدفع الى الانحراف والضغط الى الانفجار فقد بدات تتجمع سحب رجال الدين من جميع أنحاء السودان وعلى رأسهم السيد محمد أحمد المهدى تحمل الالوية الحمراء (٩٠) لتمطر هؤلاء (الهمج البيض) بالطير الابابيل . وهكذا هبت المهدية ريحا صرصرا عاتية جـــرفت امامها كل شيء تدعو برسالة المهدى الذى اختاره الله لنشر نوره على جميع أنحاء العالم ·

ويقال بهذه المناسبة أن المواطن المصرى أحمد العوام عندما اتهم باشتراكه فى ثورة عرابى نفى الى الخرطوم وهناك قـدم نصائحه بشأن (الحرب السودانية) الى المهدية وهى النصائح التى أجملها فى خمسة فصول تحت عنوان « نصيحة العـوام للخاص والعام من اخوانى أهل الايمان والاسلام » · وعندما أثار خشية جوردون امر بسجنه وتكبيله بالحديد ثم قتـــله · وقد ربط الكثيرون بهذه القصة بين ثورة المهدية بالســـودان وثورة أحمد عرابى بمصر لتعاصر الثورتين . ودلالة هذا تؤكد تلاقى الشعبين وأن هذا التلاقى فوق نظام الحكم وأكبر ·

على أن تأثير المهدية بالسودان كان أتم فقد أشعل لهيبهـــا (البطش التركى) كما كان يوصف نظام الحكم بالســـودان

---

(٩٠) علم المهدية أخضر واحمر وكان اول شيء اهتم به المهدى رفـــع الاعلام وتنظيم مواكب الطبول للاثارة الشعبية ·

وقتئذ واحمى وطيسها السوء البالغ للاوضاع السياسية بمصر الذى انعكس على السودان بالتبعية مع تعصب دينى متطرف وحماس بلغ حد الايمان كسح أمامه كل مقاومة للحكومة التى أخذ المهديون يضربونها ضربات قوية على طول الخط حتى استولوا على الخرطوم سنة ١٨٨٥ بعد اغتيال الحاكم وقتئذ الجنرال جوردون ٠

وقد قيل فى هذا الصدد أن جوردون لم يكن حازما مع المهدى بل قيل انه كان معقد الشخصية تصرف كما تصرف هاملت وقد فكر فى قتل نفسه عندما رأى الدراويش قادمين نحو القصر ولكنه كمسيحى ورع تخلى عن الفكرة وفضل ان يموت شهيدا فى ثيابه العسكرية (أكون أو لا أكون) ٠

وما أن استولت المهدية على الخرطوم بعد اغتيال جوردون وتعليق جسمه على رمح أمام القصر ، الا واضطرت الحكومة الانجليزية الى الانسحاب وترك السودان يحكم نفسه بنفسه على يد المهدى ثم خليفته عبد الله التعايشى من بعده حتى سنة ١٨٩٨ مما جعل الفترة من سنة ١٨٨٥ حتى سنة ١٨٩٨ واقعة تماما تحت حكم المهديين ٠

ولكن الاحوال لم تستمر لهم طويلا لان الطريق لم يكن سهلا أمامهم ٠ فلم تكن لديهم خبرة الادارة أو الوقوف على روح العصر ثم انهم حلقوا فى نهاية حكمهم فى أودية الصوفية والخيال فرجعوا بالبلاد سريعا الى الوراء نحو النظام القبلى العتيق ٠ وكانت تجربة السودان تأكيدا للحقيقة التى أسفر عنها التاريخ من أن ذلك اللون من (الصوفية) كان دائما على رأس أسباب ما أصاب العالم الاسلامى من كوارث وانحطاط ٠ (٩١)

ويبدو ان انتصارات المهدية السريعة قد اسكرت الناس أو

---

(٩١) مجلة العربى عدد ديسمبر ١٩٨٠ عن احمد امين استاذ التاريخ الاسلامى ٠

خدرتهم بل انها افقدت المهـــــدى نفسه التوازن فنسى حرصه وبدأ ينعم بالحياة الدنيا وزاد ماله وحريمه ووزنه ٠

لذا كانت تجربة المهدية أو تجربة الدراويش والفرسان كما يحلو للبعض أن يسميها (٩٢) تجربة فريدة فى تاريخ السودان تستحق منا وقفة تأمل قبل أن نعود للسودان مرة أخـــرى محكوما بغير أهله تحت الحكم الثنائى ثم محكوما بناسه ـ كما هو التعبير السودانى ـ فى ظل الاستقلال وفق مقاييس العصر ، فقد قيـــل أن المهدية كانت صـــورة من صـــور الرفض لبعض مظاهر الثقافة الغربية التى كان عليها الحكم (التركى) المصرى ٠

★★★

كان تأثير المهدية على الناس كالسحر حتى أنهـــم كانوا يؤمنون بأن المهدى عند ظهوره كان يظهر كالشمس وأنه يحارب بسيف القدرة ٠ يحول رصاص الاعداء الى ماء ويجعل النار تخرج من حراب انصاره ٠٠ الخ وكان الاعتقاد لدى الانصار ـ كما بثوا فى منشوراتهم ـ انهم سيحكمون بلاد الدنيـــا ويخضعونها لسطوتهم طوعا أو كرها ٠ (٩٣)

لقد جاء فى أحد المحررات بأرشيف الثورة فى وصـــف هزيمة الاعداء « أنهم لم يجدوا سبيلا الى الخلاص فقد تحول بعضهم قردة وبعضهم ذئابا وبعضهم أرانب وغزلانا ٠ أما هم (الانصار) فقد رأوا ساعة الحرب رايات بيضاء بأطـــراف خضراء فى الهواء وسورا عظيما كهيئة الجبل نازلا من السماء على الاعداء » ٠

ومن « الوقائع المهدية » وهو تعبير خاص بالانصـــار ان المهدى كتب الى السنوسى فى ليبيا سنة ١٨٨٣ لحثه عـــلى

---

(٩٢) شخصيات سودانية للتيجانى عامر ـ مطبعة التمدن ـ والـــدرويش فى القاموس هو الراهب والزاهد وأصلها فارسية بمعنى الفقير ٠

(٩٣) تدفق نهر المهدية حتى نيجيريا بغرب افريقيا ٠

الجهاد ضد مصر والى ملك الحبشة سنة ١٨٨٥ لدعوته الى اعتناق الاسلام والى خديوى مصر سنة ١٨٨٥ يقول ضمن ما يقول له : « نأسف على ما فاتك ٠ تدارك نفسك واسع فيما ينجيك عند ربك ٠٠ وقد حررت اليك هذا الكتاب وأنا بالخرطوم شفقة عليك وحرصا على هدايتك ٠٠ ان أمر السودان قد انتهى فان بادرتنى بالتسليم لامر المهدية فقد حزت السعادة الابدية ٠٠ وان أبيت ٠٠ فانما عليك أثمك ٠٠ ولابد من وقوعك فى قبضتنا ولو كنت فى بروج مشيدة ٠ وهذا انذار منى اليك ٠»

أما كتاب الخليفة التعايشى الى « عزيزة قومها فكتوريا ملكة انجلترا » فقد كان فريدا فى نصه اذ تضمن ضمن ما تضمن : « ٠٠٠ فاعلمى أن الله عز وجل هو ملك الملوك القادر المقتدر الذى ليس كمثله شىء وجميع ما فى الكون فى حيز قبضته لا يعجز فى الارض ولا فى السماء ولو أراد أن يهلك اعداءه فى أقل من خطوة كان جديرا بحصول مراده ولكنه لكرمه يمهل ولا يهمل ٠٠ ولما كان المهدى المنتظر عليه السلام هو خليفة نبينا محمد الذى أظهره الله لدعوة الناس كافة الى احياء دين الاسلام وجهاد اعدائه الكفرة اللئام ، وأنا خليفته القافى أثره فى ذلك فانى ادعوك الى الاسلام فان اسلمت وشهدت أن لا الله الا الله وان محمدا رسول الله واتبعت المهدى عليه السلام وأذعنت لحكمى فانى سأقبلك وأبشرك بالخير والنجاة من عذاب السعير وتكونين امنة مطمئنة، لك ما لنا وعليك ما علينا وتتصل بيننا المحبة فى الله ويغفر الله لك جميع ما فرط منك فى زمن الكفر ٠٠ وان أبيت الا الجحود اعتمادا على ما عندك من الاستعدادات والجنود فاعلمى أنك فى غرور كبير ٠٠ ان كنت تظنين توهما ان جيوش المهدى القائمة بتأييد السنة المحمدية مثل عساكر أحمد عرابى الذين أدخلت الغش عليهم بالدنيا حتى افتتنوا بها عن دينهم وتخذلوا عن نصرته ومكنوك من الاستحصال على البر

المصرى وصاروا أذلة أسرى لا يستطيعون المدافعة عن أنفسهم .فهذا توهم فاسد وغرور كاسر ٠٠ ثم مما يقضى عليك بتمنى الغرور الفاسد منك انك بعد ان بلغك ظهور المهدى المنتظر عليه السلام ومحاربة دول الاتراك له وظفره بهم فى عدة وقائـــع سولت لك نفسك أن منك الكفاية لحربه والاستيلاء عليهفبادرت الى ارسال أحد رجالك المشاهير والمدعو هكس باشا ومعه جيش عرمرم مؤلف من أجناس شتى وعدد منوعة ٠٠ فعندمـــــا حضر ذلك الجيش فى ألوف مؤلفة وعدد معددة ما ثبت أمـــام حزب الله الا نصف ساعة بل قضى الله عليه بالدمار والبوار عن آخره ٠٠ ثم ما اعتبرت بذلك ولا دبرت آمر حالك بل صرت تجهزين عساكرك من بادى رأيك جردة بعد جردة بكل فـــج لمحاربة الله ورسوله ومهديه تارة بســـواكن وتارة بدنقلـــة وتارة بوادى قمر حتى أهتكت بسوء صنيعك من رجـــالك ما ينوف على عدة الاف ٠٠ وكل هذا من سؤ تدبيرك واستبدادك برأيك عن باقى الدول ٠٠ والحاصل أنك قد اخطأت الـــرأى وصرت الى نقص كبير ولا مخلص لك من ذلك إلا الانابة الى الله الملك والدخول فى ملة الاسلام واتباع المهدى عليه السلام ٠٠ وان كنت لا تزالين على غرورك واستبدادك برأيك فأقدمى على حرب حزب الله بنفسك بجميع جيوشك واســـتعداداتك الحربية لترى كيف عاقبة أمرك فتهلكى بحول الله وقوته ٠٠»

وكان كتاب التعايشى الى السلطان عبد الحميد « سلطان اسلامبول » قمة أخرى : « ٠٠٠ لا يخفى عليك أن الله سبحانه وتعالى هو القاهر فو ق عباده المتصرف فيهم بحسب مراده ٠٠ لا شك أنك قد رويت من اثاره (الامام المهدى) وسمعت من أخباره ما يكون عبرة لمن اعتبر وهدية لمن أهتدى ومقنعا لمن اختبر ٠ ومع كونك تدعى أنك سلطا نالاسلام القائم بتأييد سنة خير الانام فما الك معرضا عن اجابة داعى الله الى هذا الان ومقرا لرعايتك على محاربة حزب الله المؤمنين مع أهل الكفر

والعدوان ‥ حتى صرفت مجهودك فى اعانة أهل الاصنام على هدم أركان الاسلام ‥ العجب كل العجب من اعراضك عن اجابة داعى الهدى واتباعك لشهواتك الى الردى وتمكينك للاعداء من بلاد الاسلام ‥ فلا تكن أيها الرجل ممن خدعته العاجلة وغرته واستهوته الخدعة فركن الى دار قريبة الزوال وشيكة الانتقال ‥ ولا يغرنك ان الله وسع عليك سلطانك وكثر خدمك وأعوانك وسوى لك البلاد وملكك أمر العباد فان ذلك مع اقامتك على تعدى الحدود ومخالفة الرب المعبود استدراج من الله وامهال لا اهمال فيوشك ان تثبطت بعد هذا عن اجابة داعى الله أن يحل بك الندم وتزل منك القدم فتلحق بمن غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم فزلت بهم الاقدام فهووا فى النار ‥ فتذكر ذلك وانتشل نفسك من أوحالك وبادر الى نجاتك وسلامتك من موبقاتك ‥ ويكون ذلك بتسليم الامر لنا والقيام بواجب طاعتنا والمبادرة الى فعل أحد أمرين اما جهاد الكافرين واخراجهم من بلاد الاسلام كمصر وغيرها صاغرين مع العمل بكتاب الله وسنة رسوله الامين وابطال جميع البدع التى أحدثتها أعداء الدين ٠ واما السعى فى الاجتماع بنا لنقوم جميعا بنصرة الدين وقطع دابر القوم الكافرين فانك ان بادرت الى اجابة الداعى فزت بالسعادة الابدية وجلبت رضاء رب البرية ‥ دبر أمرك واغسل ما جرى منك بدموع الندم وتدارك سلامتك قبل أن تزل منك القدم ٠ واعلم انا قد فرغنا من فتوحات السودان منذ أزمان وسمت بنا همتنا الى فتح الجهات البحرية والممالك المصرية ‥ »

★★★

ولد محمد أحمد صاحب هذه الدعوة فى جزيرة ضرار باقليم دنقلا حوالى سنة ١٨٤٠ ٠ ولما ضاق العيش بأبيه وكان نجارا رحلت أسرته الى الخرطوم ومنها الى جزيرة أبا على النيل الابيض على بعد ١٥٠ ميلا من الخرطوم ٠

وقد تعلم محمد أحمد النحو والتوحيد والفقه والتصوف ثم أخذ يعلمها للناس فكثرت أنصاره وبدأ عندما انبثقتفى صدره الدعوة الى المهدية كمهدى الله المنتظر بعد محمد بعد قرابة أربعين سنة من مولده عندما « حصلت له فى ٢٩ يونيو ١٨٨١ الحضرة النبوية » بدأ يعلن خلافته على المسلمين وبـــالتالى حربه ضد الاتراك وجميع شعوب الارض (٩٤) مســـتثمرا الحضرة فى معالجة شئون حكمه ٠

وبالرجوع الى الدراسات الاسلامية عن الموضوع وجدنـــا ان علماء الاسلام يرفضون فكرة المهدى المنتظر ويعتبرونهـــا خطيئة لا تستند لا الى القرآن ولا الى السنة (ابن خلدون) ولكن يبدو أن انقسام الناس وجهلهم مكن البعض من القياس على المسيح المنتظر فى عقيدة اليهود فنادوا بفكرة المهـــدى المنتظر ٠ وقد فعل ذلك الشيعة (الامام الغائب) عندما سعوا للخلافة ، كذا السنيون (الخليفة الرشيد) بعدهم ، الاولون كعقيدة دينية والاخرون كفكرة اصلاح ٠

وأتباع المهدى يسمون بالانصار يتزعمهم الخليفة الذى من تحته يسمى الاقربون أمراء وقد سموا بعد ذلك عملاء (كان معناها أفضل وقتئذ عنه اليوم) ٠ وكانت هناك خـزانة هى بيت المال تؤدى اليه الضريبة ، أما القضايا فلم يكن شرطا أن يتولاها قضاة الاسلام لان الخليفة ورجاله كانوا يشرعون فى أغلب الاحيان ويحكمون ويصدرون المراسيم ٠ وباسم الـدين ولتبرير التوسع والغزو أعلنوا الجهاد كحرب مقدسة ٠

بهذا الايمان من الخليفة ، وتعصب أنصاره تطـــرفا أو انحرافا أصاب السودان ما اصـــابه فى عهــــد المهدية من انتصارات وهزائم ، واضطراب « وانجذاب » أحيانا ٠

---

(٩٤) من مجموعة وثائق جامعة ييل المصورة المحفوظة فى دار الوثائق بالخرطوم ٠



٨
آلة شيطانية

انتهت حقبة البطش التركى بما اتسمت به من الرشوة والفساد والعنف بحكم المهدية بما اتسمت به من التعصب واضطراب والروح القبلية ، ليستقبل السودان عهدا جديدا اتسم الحكم فيه بالخديعة والاحتيال اطلق عليه الانجليز عهد « الحكم الثنائى المصرى الانجليزى » بدأ على اساس اتفاق وقعته مصر مع انجلترا فى ١٩ يناير ١٨٩٩ ٠

والقصة ـ كما نعلمها ـ انه لما خرجت القوات المصرية من السودان لم تخرج الا مكرهة مما دعاها الى أن تعسكر على الحدود فى حلفا تتحين الفرص متربصة للعودة من جديد واسترجاع ما فقدته ٠

وقد عادت ولكن هذه المرة ترفع الرايتان الانجليزية والمصرية ، فلم تكن مصر حينما استردت السودان مستقلة كما كانت عندما قامت بفتحه أيام محمد على باشا ٠

عندما استرد مصر السودان كانت تحت الاحتلال البريطانى الذى جثم على صدرها منذ دمر الاسطول البريطانى مدينة الاسكندرية ودخلت الجيوش الانجليزية القاهرة فى اكتوبر ١٨٨٢ لا لغاية الا لضرب مصر التى وضح للعالم أجمع وقتئذ أنها فى الطريق لتصبح امبراطورية عربية ٠

وبطبيعة الحال ما كادت قوات الاحتلال تتمركز الا وكانت أولى جهودها قطع أواصر السودان عن مصر أو تفتيت هـذه (الامبراطورية) كما تصورت ٠

كان السودان بنوع خاص هو الذى تعلقت به مطامـــــع بريطانيا ٠ وقد صرح بذلك علانية هارولد ماكمايل المتخصص فى شئون السودان بالجمعية الامبراطورية وقتئذ بقوله « انه لا يمكن أن نترك مصر الان حرة لتستعيد وضعها القـــديم فى السودان » ٠

وتحت ظروف التفجر الاوربى على أفريقيا ـ على حـــد التعبير الصادق للدكتور منصور خالد وزير خارجيةالسودان السابق ـ طالبت بريطانيا بالسودان نصيبيا لمصر التى كانت تحت سيادتها توطئة لسلخه وضمه الى التاج البريطانى ٠

وقد افادت بريطانيا من الثورة المهدية افادة بالغة فبدلا من خنق الحركة فى بدايتها تركتها تستفحل ، كذا أســاءت مصر فهم غايات الثورة المهدية أو لم تعطها حجمها الحقيقى فامتد لهيبها سريعا دون مقاومة جدية قبل أن تخبو ٠

وفى الواقع ان المهدى لم يفكر فى وطن سودانى مستقل عن مصر بل على العكس كان يرى أن رســـــالته ـ وهو المهدى المنتظر ـ أن يرد الى العالم الاسلامى وحدته ٠ وكان أوضـح دليل على سوء نية بريطانيا وقتئذ وتخطيطها لتدمير مثل هـذا التفكير أنها بعد أن ادت بالسودان الى حافة الثـورة بدأت تعمل ضد مصر نفسها الى الحد الذى فرضت عليها فيه اخلاء السودان وطلبت من كل وزير مصرى لا يســـتطيع هذا الامر أن يستقيل (٩٥) ٠

---

(٩٥) الكتاب الاخضر عن السودان الصادر عن مجلس الوزراء المصرى سنة ١٩٥٣ حيث كانت التعليمات كما كشفتها الوثائق : « انه ينتظـــر ان تلتزم الحكومة المصرية بكل نصيحة تقدمها اليها الحكومة البريطانية بشان المسائل السودانية ٠ »

وقد رفض كل الوزراء المصريين بطبيعة الحال اخـــــلاء السودان الى ان عين نوبار باشا الارمنى الاصل رئيسا للوزراء فتمت على يديه هذه المأساة ·

وكان مما قيل عن هذا الموضوع أن مصر عندما غـــادرت السودان لم تتخل عنه بل اقتصرت على اخلاء المناطق الداخلية فيه من الجيوش والمواطنين لحقن دمائهم ولم يكن فى نيتهـــا عندما أمرت بهذا الاخلاء أن تترك السودان ، انها قد أخلتـه ولكنها لم تتخل عنه ·

★★★

مهد لاسترداد السودان على يد القوات المصرية الانجليزية ان المهدية لم تعد قادرة على السيطرة على البلاد · وعن هذا الوضع قال المؤرخ مكى شبيكة شيخ المؤرخين الســـودانيين « ان حوادث السلب والنهب والتعدى على الاموال باتت دون انقطاع ·· وسموا العهد بطابع الفوضى نتيجة جهلهم وســـؤ تدبيرهم مع ما ركب نفوسهم من بغض وكراهية لاولاد البلد»·

وقد وصف المؤرخ المصرى شفيق غربال الاوضاع وقتـــئذ « بأن الحركة المهدية كانت نكبة لانهـــا كانت حركة تحطيم وتخريب حاولت ما لا تصلح له وما لا تطيقه وما لا ينبغى لها فجنت على نفسها وعلى السودان وعلى مصر » ·

أما تشيرشل فقد قال « ان حكم الدراويش سجل فى التاريخ أسوأ حكم عرفته الشعوب » ·

ويذكر الكاتب الانجليزى البارون دى كاسيل فى كتابه عن ذكرياته بمصر منذ سنة ١٨٦٣ ــ ١٨٨٧ عندما كان يتولى ادارة الجمارك بالاسكندرية انه عندما رفض شريف باشا تولى الوزارة رياض باشا لرفضهما توقيع قرار عودة الجيش المصرى من السودان قبل نوبار باشا · وكان الــرأى لدى الانجليز انفسهم فى تقديرهم للموقف وقتئذ ان نوبار باشا جاء بتكليف من انجلترا لتقليص سلطة الخديوى ·

تحت هذه الظروف ووسط عمليات التفجر (أو الفجـــر) الاوربى على أفريقيا كان تدخل بريطانيا ـ كما سبق البيان ـ فى المنطقة فقد سارعت عندما هددتها فرنسا باســــتعمار السودان ـ مستغلة الفوضى فيه ـ الى الاتفاق مع مصر لتوجيه جيش منها باسم الخديوى لاسترداد السودان ٠ (٩٦)

ولولا هذا التهافت الذبابى الاوربى لما تتطلب الامـــر من بريطانيا لبس قناع مصر ٠

هكذا استردت مصر السودان بأموالها وجيوشها دون أن تساهم انجلترا الا بالنذر اليسير فقد كان اتفاق الحكم الثنائى مبنيا أساسا على الاشــــتراك فى الادارة فقط من جـــانب انجلترا (٩٧) ٠

وقد قاد حملة اعادة السودان فى سنة ١٨٨٩ الجنرال سير هوارسيو كتشنر (فيما بعد لورد كيتشنر أوف خرطـــوم أو الملك كيتشنر ـ كيتشينر ركس ـ كما كان يســمى بمصر)٠ دخـــل أم درمان منتصرا بعـــد ان اكتســـح الدراويش فى كل مكان وقد كان اســـلوب القتال تقليـــديا فلم تفقد القـــوات المصريـــة الانجليـــزية الا ٤٨ قتيلا فقط على حين أن الدراويش قد فقدوا ٩٧٠٠ قتيـــلا ٠ وكان كيتشنر قد تعمد الانتقام من اجل جوردون بعد ٣٠ ســنة من اغتياله بل انه انتقم فعلا له فقد أمر بنبش قبر المهـــدى والقاء جثته فى النهر بعد ان أرسل جمجمته الى لندن لتحنط بالمتحف البريطانى كما حطم القبر لمنع الحج اليه ٠

---

(٩٦) حادثة فاشودة عجلت بوقف هذا السباق الفرنسى نحو النيل ٠

(٩٧) المعروف عن الادارة الانجليزية بالسودان انها كانت تضم احسن العناصر المختارة بعناية من الكفاءات العالية والمؤهلات العليا وكانوايتعمون بأعلى المرتبات وكانوا من اكثر الانجليز العاملين فى الخارج مزايا ولهم الحق فى طلب الاحالة على المعاش ابتداء من سن ٤٨ نظرا لظروف الجو والمعيشة بالسودان ٠

ومما يذكر دائما بمناسبة اعادة فتح السودان ان ونستون تشرشل كان من ضباط قوات كيتشنر فى ذلك الوقت ٠

ومما يذكر عن كيتشنر كذلك يناؤه من جديد لخط السكة الحديد بين حلفا والخرطوم لنقل قواته الى السودان بعد أن هدمه الدراويش الامر الذى يؤكد من جديد أن أعظم الانشاءات التى تمت بالسودان فى العهد المصرى كانت من عمل الجيش وجهوده ٠

وقد كان كيتشنر هو القائد الذى تفاوض مع الكولونيل مارشان في فاشودة وتوصل معه الى حق مصر فى رفع علمها على هذه البلدة فقد كان اسم مصر هو السند القانونى الوحيد لديه ٠

وقد استمر كيتشنر عشر سنوات بالسودان من سنة ١٨٨٩ حتى سنة ١٨٩٩ قائدا ثم سردار للجيش المصرى وحاكما عاما على السودان وقد خلفه وينجت باشا ليحكم السودان والجيش المصرى لمدة سبعة عشرة سنة انتهت فى سنة ١٩١٦ ٠

★★★

وبالعودة الى الاتفاق الذى وضعه اللورد كرومر ووقعته مصر فى ١٩ يناير ١٨٩٩ نجد أنه كان على ضوء تطور وتطوير الاوضاع بالسودان كان هو الوثيقة التى صاغتها انجلترا لتكون السند القانونى الذى يمكنها من العودة الى السودان نظريا مع مصر أولا الى أن تتهيأ لها فرصة الانفراد به عملا ٠ وقد بدأ ذلك التخطيط على الفور عندما أضحى السودان أرضا مباحة بعد المهدية اذ عندئذ لم ير كيتشنر امامه أى عائق يرده عن البدء فورا لحساب حكومته ٠

وبطبيعة الاحوال لم ترتح مصر لهذا الاتفاق حيث استشعرت منذ البداية خطره ، وأحداث التاريخ تشهد أن مصر لم ترض أبدا عنه وتثبت الوثائق الرسمية (٩٨) أن توقيعه كان جبرا

---

(٩٨) المرجع السابق ٠

وبالامر وباملاء صريح من انجلترا على بطرس غالى باشا وزير الخارجية المصرية وقتئذ عندما كانت يد مصر مغلولة بل وعاجزة أرضها محتلة وحكامها مغلوبون على أمرهم ٠ (٩٩)

« وفى ٢٠ فبراير ١٩١٠ نزل رئيس الوزراء المصرية المأسوف عليه بطرس غالى باشا يحيط به كعادته رجال الحكومة حتى بلغوا سلم نظارة الحقانية ولم يكد يودع مشيعيه حتى ابتدره الشاب ابراهيم ناصف الوردانى فأفرغ فيه عدة رصاصات طرحته على الارض يتخبط فى دمه أطلقها من مسدس كانت تحمله يده » ٠

« وكان هذا أول حادث قتل سياسى فى البلاد فارتج القطر للحالة » ٠

« وقبض على الجانى متلبسا بالجريمة ثم قدمت القضية للمحاكمة التى تولى رياستها مستر دلبراوجلو وجلس حوله المستشاران أمين على بك وعبد الحميد رضا بك ٠ وتولى الاتهام من بدايته لنهايته عبد الخالق ثروت باشا النائب العام ٠ ودام نظر القضية من ٢١ ابريل ١٩١٠ الى ١٨ مايو ١٩١٠ » ٠

« ووقف النائب العام يصف هول الجريمة وسوء وقعها ويطالب برأس المتهم فى بيان رائع حلل فيه شخصية المتهم وأثبت مسئوليته عن عمله ٠ وتولى الدفاع الاساتذة ابراهيم الهلباوى بك وأحمد لطفى بك ومحمود ابو النصر بك وتغلغل الدفاع فى صميم الاسباب الملابسة للجريمة وحلل شخصية المتهم والعلل النفسية التى قال انها تنزلت اليه بالوراثة ٠٠ وبعد أن انتهى الدفاع نطق القضاة بالحكم باعدامه شنقا

---

(٩٩) هذا الاتفاق الذى سمى السودان «بالسودان المصرى الانجليزى» نظريا يسجل سابقة دولية فريدة من نوعها فلم تعرف الحياة الدولية من قبله وحتى اليوم من بعده اتفاقا بين دولتين احداهما محتلة من الاخرى لاحتلال دولة ثالثة من قبلهما الاثنين معا ٠

وهكذا سقطت رأس أول قاتل سياسى تحت ضغط حبـــــل الجلاد » (١٠٠) ٠

وقد دافع دكتور محمد حسين هيكل باشا عن بطرس غالى باشا فى كتابه (تراجم مصرية وغربية) قائلا ان خصوم غالى باشا حاولوا تحريف واقع اتفاق السودان ضده وتحميلـــه نتائجه مع أنه لم يكن الا انعكاسا للاحداث العديدة والملابسات والاوضاع التى تلت التوقيع على هذا الاتفاق (١٠١) ٠

على أن الزعيم مصطفى كامل قد عبر فى أحد أيام ذكـرى توقيع هذا الاتفاق عن رأى مصر قائلا : « ان أكبر أيام الشقاء فى تاريخ مصر وأسوأ تذكار يهيج نفوس المصريين بالاحزان والآلام والاشجان هو يوم ١٩ يناير يوم تذكار اتفاق السودان ذلك اليوم المشئوم الذى أعلنت فيه الحكومة الخديوية للامـة المصرية وللعالم كله ان السودان صار مستعمرة انجليزية » ٠

وقد كان ، فما كادت انجلترا تدخل الســـودان من باب « الحكم الثنائى » الا وانفردت به تعمل بكل الطرق والوسائل

---

(١٠٠) الكتاب الذهبى للمحاكم الاهلية من ســـــنة ١٨٨٣ ــ ١٩٣٣ الصادر عن وزارة الحقانية سنة ١٩٣٧ ٠

(١٠١) تولى بطرس غالى باشا وزارة المالية فى وزارة حسين فخرى باشا سنة ١٨٩٣ وفى وزارة مصطفى رياض باشا فى سنة ١٨٩٣ ثم تولى وزارة الخارجية فى وزارة نوبار باشا فى سنة ١٨٩٥م وفى وزارة مصطفى حلمى باشا من سنة ١٨٩٥ حتى سنة ١٩٠٨ ٠ ثم تولى رئاسة مجلس الـــوزراء والخارجية معا من سنة ١٩٠٨ حتى ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ وقد ضمت هذه الوزارة سعد زغلول باشا وزيرا للمعارف العمومية (كل ذلك فى عهـــد الخديوى عباس حلمى) ٠

لاقتلاعه من مصر (بالتامر والتحايل وبث الفرقة والتخدير السياسى ٠٠٠ الخ ٠) (١٠٢)

وكان اول حاكم عام للسودان عين على أساس هذا الاتفاق (وفاق الكوندو مينيوم كما كان يوصف) سردار الجيش المصرى اللورد كيتشنر أوف خرطوم ٠

واستمر هذا الاتفاق جاثما على صدر مصر والسودان معا الى أن أعلنت الحكومة المصرية فى اكتوبر سنة ١٩٥١ الغاءه مع الغاء معاهدة (الصداقة المصرية البريطانية) الشهيرة معاهدة سنة ١٩٣٦ ٠

ولعله فى هذا المجال تجدر الاشارة ـ كما تشهد وثائق التاريخ ـ بالجهود التى واصلت الحكومة المصرية بذلها بالتفاوض مع انجلترا قبل الغاء المعاهدة منذ سنة ١٩٢٠ لتعديل اتفاق السودان ضمن جهادها للاستقلال والعودة بالعلاقات بين مصر والسودان الى وضعها الطبيعى ٠

لقد لحق هذه المفاوضات الفشل تلو الفشل ـ كما هو معلوم ـ نتيجة تحطمها ـ كما كان التعبير وقتئذ ـ على صخرة السودان ٠

---

(١٠٢) ـ فى ٥ نوفمبر ١٩١٤ اعلنت انجلترا الحماية على مصر فامتدت تبعا لذلك على السودان ٠

ـ وفى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ اعلنت بريطانيا الغاء الحماية فزالت عن مصر والسودان ولكنها احتفظت باتفاق سنة ١٨٩٩ فى السودان ٠

ـ وفى سنة ١٩٢٣ اجبرت انجلترا مصر أن تحذف من الدستور المصرى لقب « ملك مصر والسودان » حتى تفصم العلاقة بين البلدين ٠

ـ وطبقا لمعاهدة ١٩٣٦ استمرت ادارة السودان مستمدة من اتفاق ١٨٩٩ وان اتفق على اعادة القوات المصرية الى السودان ٠

ولكن الصبر لم ينفذ فما كاد يقوم جيش مصر بثورته فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتحرير البلاد الا وبـــدأت مصر تفـــاوض الانجليز من مركز القوة هذه المرة يدعمها اتفـــاق الاحزاب السودانية جميعا على رأى واحد · وقد وفقت فى الوصول الى اتفاق مع انجلترا فى ١٢ فبراير ١٩٥٣ اذ صدر عن الحكومة المصرية بيان يعلن الاتى : « فى صباح اليوم (١٢ فبـــراير ١٩٥٣) وقع اللواء أركان حرب محمد نجيب رئيس مجلس الوزراء وسير رالف سكراين ستيفنسون الســفير البريطانى فى القاهرة اتفاقا بين الحكومة المصرية وحكومة المملكـــة المتحدة فى شأن الحكم الذاتى فى الســودان وممارســـة السودانيين حق تقرير المصير » ·

تضمن هذا الاتفاق وقد سمى وقتئذ باتفاق القاهرة (١٠٣) خمسة عشر مادة الحقت بها محاضر وخطابات متبادلـــة وملاحق لم تترك صغيرة أو كبيرة الا وأحصتها :

- الحكم الذاتى خلال فترة انتقالية مدتها ٣ سنوات ·
- الغاء الادارة الثنائية وممارسة حق تقرير المصير ·
- ممارسة السلطة الدستورية العليا عن طريق لجنـــة خماسية ابان فترة الانتقال ·
- وحدة السودان كأقليم واحد يضم الشمال والجنوب ·
- لجنة للانتخابات ·
- انسحاب القوات العسكرية المصرية والبريطـــانية فور اصدار قرار البرلمان السودانى برغبته فى تقـــرير المصير ·
- جمعية تأسيسية لوضع الدستور ·

(١٠٣) مثل الجانب المصرى فى المفاوضات التى ادت الى هذا الاتفـاق المرحوم دكتور محمود فوزى وزير الخارجية وقتئذ وحسين ذو الفقـــار صبرى نائب وزير الخارجية والمرحوم الصاغ صلاح سالم وزير الارشـــاد القومى ودكتور حامد سلطان أستاذ القانون الدولى ·

- لجنة الحاكم العام خلال فترة الانتقال ٠
- لجنة للسودنة ٠
- قانون الحكم الذاتى الكامل فى السودان خلال فترة الانتقال (من ٨٤ مادة صيغت لتكون بمثابة الدستور المؤقت لفترة الانتقال حتى أنها تضمنت صيغة القسم الوزارى (١٠٤)٠

وهكذا قدمت مصر الثورة الاستقلال الى السودان على طبق من فضة ٠

---

(١٠٤) فى حديث مؤخرا مع الاستاذ دكتور حامد سلطان ابلغنى ان هذا القانون الخاص بالحكم الذاتى فى السودان خلال فترة الانتقال يمكن الاستئناس به كسابقة تصلح للتفاوض على غرارها بشان اتفاق الحكم الذاتى للفلسطينيين ٠ وهو مالا اعتقد انه قد غاب عن الفريق المصرى المفاوض حاليا ٠

٩

يسبق كل ميلاد حمل

يعتقد بعض الكتاب الانجليز أن اتفاق تقرير المصير الذى اتفق عليه عام ١٩٥٣ وبناء على ممارسة السودان لأحكامه أعلن السودان استقلاله فى يناير ١٩٥٦ ـ يعتقد بعض الكتاب الانجليز ان هذا الاتفاق لم يكن أبدا من صنع مصر كما اعتقدت وأنه بالتالى لا يحق لها أن تزهو أو تدعى فضله ٠

ويقول بعض المؤرخين فى هذا الشأن ـ وهم الى حد كبير صادقون ـ ان هذا الاتفاق لم يكن الا نتيجة تدبير انجليزى قديم عملت بريطانيا بمختلف الأساليب للوصول اليه ٠ ولو أمعنا النظر لوجدنا أحكامه ومراميه ـ وان بدت ظاهريا لصالح السودان ـ لا تستهدف فى الواقع الا اقتلاع مصر منه للانفراد به ٠

وقد بالغ البعض فى وصف هذا الاتفاق بانه ما كان الا سلاما خادما للأهداف البريطانية (باكس بريتانيكا)٠(١٠٥)

على أن أحداث التاريخ ـ ونحن ننظر اليها اليوم من على ـ قد أحبطت كل هذه التقديرات فلم ينفرد الانجليز بالسودان

---

(١٠٥) وراء السودان الحديث ٠ مرجع سابق ٠

كما رسموا على المدى الطويل ، أو يضـمونه للكومنولوث كما حدث مع الهند وتمنوا ، ثم انهم لم يوفقوا رغم كل ما فعلوا لاقصائه عن مصر ، وان نجحوا فى حفر الحفر أحيانا ٠

وقد كان لبروز وعى السـودانيين بوطنيتهم والتيارات التى احاطت بهم من كل جانب مع الجهـود المصرية المتواصلة بعد الفتح المصرى بالتعاون مع السودان وعونه ثم التفـاوض المستمر مع الانجليز من اجله فى عهد الحكم الثنائى للحيلولة دون بتره ـ كان ذلك شاهدا على أنمدى وكيفية الارتباط بين مصر والسودان على مدى الأحقاب الأخيرة لم يكن من رسم مصر وحدها ، او السودان وحده وان بدا ذلك ٠

ان تطور السودان نحو الاستقلال تام بمشـيئة المصريين والسودانيين معا ٠

والتاريخ مهما قص علينا من تطرف او بمعنى آخر مـن انحراف أحيانا لدراويش المهدية لايمكن ان يتجاهل مدى التوفيق الذى اصابه هؤلاء الدراويش بسيوفهم لتحقيق كيان موحد مستقل قائم بذاته للسـودان لاول مرة منذ الفتح المصرى ٠

ان المهدية قد أثبتت شخصية السودان مهما قيل عنها ٠لقد أكدت على نحو جلى واضح ان السودان يمكن ان يكـون للسودانيين وحدهم ٠

عندما حكم السودان أيام المهدية نفسه لاول مرة وصـار الخليفة التعايشى بعد فتح خط الاستواء سنة ١٨٨٩ سـيد السودان كله انبثق فى صدور السودانيين الوعى الوطنى الذى شقوا على ضوئه منذ ذلك الوقت مسيرتهم نحو الاستقلال مجددا فى عهده الحديث ٠

ويهم السودانيون الآن بطبيعة الحال أن يذكروا أيام المهدية من خلال هذا الفضل ، من خلال انتصـارات الدراويش الفرسان وبطولاتهم ربطا لحاضرهم بماض كما أساء وأغار ، أضاء وأنار وان حرق الكثير ٠

يذكر السودان الحديث من رجال المهدية (بعد مفجـــــرها السيد محمد أحمد وخليفته التعايشى) عثمان دقنه (١٠٦)الذى حقق للمهدية أعظم انتصاراتها الاولى على الانجليز ، والحاج محمد أبو قرجه ومحمد الخير الغيشاوى وعبد القادر ودحبوبه الذين يصفقهم الشباب اليوم بالسودان ـ اعتزازا بماضيهم ـ بصانعى الرعد ·

ولكن هذه الشخصيات التى الهبت الحس لم تكن منقطعة الصلة بمصر فقد تعهد الفكر المصرى منذ الفتح تمهيد الطريق امامها وشق القنوات الذهنية لعبررها الجديد نحو تحقيق ذاتيتها ·

ومثالنا الكثيرون من العلماء مثل الشيخ احمد التركى (١٠٧) الذى عايش الفتح المصرى عـــــام ١٨٢١ عندمـــا انتظم للبلاد اسم واحد هو السودان لأول مرة فقد كان لهذا الرجل أكبر الافضال فى بث الفكر الجديد الممهـــد للثورة المهدية · لقد بدأت صلاته مع الازهر منذ الفتح المصرى وكان فقيها متبتلا فى طاعة الله ، أحاط به المئات من الطلاب وأشعل الحماس واليقين فى الآلاف من قومه · أن ثورته على البطش (التركى) كانت بمثابة شرارة الانطلاق نحو الثورة الكبرى ·

كما ذكرت وثائق التاريخ عالما آخر من الذين فجروا الفكر الثورى هو الشيخ محمد الخير الغيشاوى فقد كان محمـــــد الخير رجل صلاح وتقوى عكف على الدرس والتحصـــيل · عاصر الانجليز والمصريين فى آخـــر أيام الفتح المصرى وثار عليهم عاملا تحت الامام محمد احمد المهدى بعد أن كان له استاذا · كان هـــــــذا الرجل اول من كشف عن نية الانجليز وفضح مراميهم عندما تلقف تصريح للجنرال جوردون أدلى به

---

(١٠٦) من اعظم انصار المهدية واشدهم باسا · يضع له الرئيس نميرى صورة ضخمة له فى اكبر قاعات القصر الجمهورى ·

(١٠٧) التيجانى عامر ـ المرجع السابق ·

خلال الكفاح بأنه جاء للسودان حاكما بمهمة معينة هي رد حكم السودان الى أيدى أبنائه وتصفية الجيش المصرى والحكومة وترحيلها الى مصر (كذا) ٠

لقد خدم هذا التصريح من الجنرال جوردون انتشار الدعوة المهدية خدمة لا تقدر بثمن فقد بات المهديون يعتقـــدون ان الانجليز معهم وانهم ما قدموا الى الســـــودان الا لتحقيق أمانيهم ٠

وقد أكد هذا الاعتقاد ما جاء فى خطاب لمحمد خير الى حسين باشا مدير اقليم بربر وقتئذ « ان خديوى مصر قـــد ترك لنا بلادنا على لسان جوردون فسلمونا بلادنا والا فنحـن مصممون على قتالكم حتى نخرجكم منها مرغمين » ٠

ولدى نجاح محمد الخير فى اكتساح بربر ودنقلا أسماه الامام المهدى أميرا ٠

وكان محمد الخير فى جهادة شأنه شأن رجال المهـــدية الآخرين ـ مدفوعا بمفهوم خاص عن حربه ضد الاتراك والانجليز استقاه من أحمد العوام المصرى ناصح المهـــدية ومفكرها (١٠٨) مؤداه أن حكم المســـلم للمسلم لا يسمى استعمارا واضـــــطهادا وانه ما حارب الاتراك والانجليز الا لأنهم لا يجاهدون لله ولكن « للرئاسة والقيادة » ٠

ومن مفكرى المهدية ومشاعلها كذلك عبد القادر محمد آمام « ود حبوبة » ٠ لقد كانت ثورته متأخرة ولكنها أثرت فى مسيرة الســـودان نحو تحقيق ذاته على نحو واضح ٠ ومن المعلوم ان قيام ود حبوبة بحملته الفكرية قد عاصر قيام ثورة مصطفى كامل باشا بمصر (١٩٠٦) الذى اتخذ مع زعمـاء الحـــزب الوطنى مـــن محـــاكمة الانجليز له أى لود لود حبوبة قاعدة لهجومهم على الحكم البريطانى وبطشـــه

---

(١٠٨) يراجع فصل ـ كحاطب بليل ٠

فى السودان فى حملاتهم الخطابية والصحفية وعلى يد جمال الدين الافغانى ومحمد عبده ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وغيرهم » مما كانت أصداؤه فى السودان كالرعد » ٠

ثم فى عام ١٩٠٨ نفى الانجليز كل رجـــــال المهدية الكبار وعائلاتهم الى دمياط بمصر ثم نقلوهمالى وادى حلفا لابعادهم عن الاتصال بالحركة الوطنية المصرية التى تفاعلت مع ثورة ود حبوبة ٠

كانت نصائح أحمد العـــــــوام المصرى التى سبق الاشارة اليها وسط كل ذلك كما ذكرت « وقائع المهدية » مـــن أقوى دوافع الفكر المهدى على مدى الايام وقد قيل فى هذا المجال أن قتل أحمد العوام لم يقتل نصائحه فى نفوس المهدية أو بيئتها الثورية ٠ (١٠٩)

ولعله من هنا كان الربط بين ثورة المهدية بالسودان وثورة عرابى بمصر ٠ وكان يمكن ان يكون لثورة المهدى شـــأنها الكبير فى استمرار مسيرةالسودان نحو الاستقلالدون تعرضه لنكسة عودة الانجليز تحت خدعة اللعبة الشـــيطانية ـ لعبة ـ لعبة الرايتين ـ لولا انها انحرفت ـ ويا ليتها تطرفت ـ فانهار بناؤها سريعا بعد ستة عشرة سنة فقط ٠

★★★

ولكن وعى السودانيين قد واصل النمو وان قاسى من الكبت بل يبدو أن الكبت قد أفاده فى تفجير العديد من الطاقات على مدار سنوات الحكم الثنائى ٠

---

(١٠٩) « وقائع المهدية » تعبير خاص بالمهدية يعبر عن ســــجل وثائقها واحداثها ٠ ولعل افضل مرجع عن نصائح احمد العوام كتـــاب دكتور ابراهيم شحاته (١٩٧١) عن دراسته المقارنة فى الاصول التاريخية للثورتين العرابية والمهدية ٠

ولعل هبة مصر سنة ١٩١٩ لتقويض دعائم الاســـتعمار البريطانى كانت بأية نذر الكفاح السودانى ٠

ساعد على ذلك الفساد الذى استشرى فى نهـــاية عصر المهدية ثم بلغ الذروة تحت الاحتلال المزدوج ٠

وقد كان فى مقدمة طلائع الكفاح السودانى الضابط على عبد اللطيف (١١٠) الذى شكل أول جمعية سودانية بالخرطوم انتهت فى سنة ١٩٢٢ الى اصدار نشرة تحت عنوان « مطالب الأمة السودانية » كان محورها ان الســياسة الانجليزية فى السودان هى وحدها أم المصائب والمتاعب ٠ (١١١) ٠

وقد غدا على عبد اللطيف منـــذ ذلك الوقت رمزا لليقظة السودانية ورسولها الاول ٠

واستمر النشاط السياسى رغم الظروف القاسية حتى أنشئت جمعية وطنية أخرى فى سنة ١٩٢٤ سميت بجمعية « اللواء الابيض (١١٢) كان من أعضائها محمد نجيب (أول رئيس لجمهورية مصر) غرضها الحصول على مطالب البلاد بالطرق السلمية المشروعة ٠ ولقد ساعد على انتشار فكر هذه الجمعية أن معظم أعضائها كانوا من موظفى مصلحة التلغـــراف الذين استثمروا وظائفهم فى نقل انبائها مما ربط الخرطوم ببقية انحاء البلاد ٠

ثم قامت المظاهرات بالخرطوم فى نفس العام وقد أفصح

---

(١١٠) من قبائل الدنكا بجنوب السودان ٠

(١١١) يقظة السودان للدكتور ابراهيم العدوى ٠ مكتبة الانجلو المصرية ـ ١٩٧٩ ٠

(١١٢) ليس من قبيل المصادفة ان تحمل هذه الجمعية اسم اللواء فـــلا شك ان جريدة اللواء التى اصدرها مصطفى كامل بمصر ابان غليان الشعور الوطنى منذ اكثر من عشرين سنة قبل انشاء هذه الجمعية كانت مصـــدر الالهام من وراء اختيار اسم اللواء لاول جمعية سودانية وطنيـــة بالسودان ٠

المتظاهرون خلالها عن نواياهم بحملهم أعلام الجمعية التى كانت « بيضاء حاملة رسم خريطة النيل من منبعه الى مصبه على يساره الهلال وعلى يمينه عبارة الى الأمام وفى ركن منه العلم المصرى الأخضر ٠

وبطبيعة الحال بطشت الادارة البريطانية بالجمعية التى علا صوتها وقدمت اعضـــاؤها للمحاكمة بتهمة التآمر على قلب نظام الحكم ٠ وكانت تعليمات الادارة الانجليزية وقتئذ « اضربوا أولاد الريف أينماهم » وكان المقصـــود المصريين الذين كان يناديهم (نـــادى ناصر الثقافى اليوم) وبنـــادى الضباط المصريين تعقد الاجتماعات الوطنية وتناقش وتدير حركات الوطنيين السودانيين ٠

ولكن تكميم الأفواه لم يستمر طـــويلا فقد أضرب طلبة المدرسة الحـــربية ولكنهم ازاء الحبس فى الســـجن مع المجرمين اضطروا الى الاستسلام الى أن هيئت لهم فرصة أخرى عندما انشئت « جمعية الاتحاد السودانى » التى أخذت تواصل دعوتها الوطنية تحت الأرض الى ان كان مقتل السردار وجلاء القوات المصرية من السودان فى نهاية ١٩٢٤ وتصفية كل أثر مصرى فى السودان تمهيدا لعملية فصله عن مصر كما خطط لها اتفاق ١٨٩٩ ٠ وقد ذكر المارشـــال ويقل فى كتابه (اللنبى فى مصر) أن جثة السردار كانت تهيئة من الاقدار لحل موقف لم يكن يطاق ٠

عندئذ دخلت البلاد فى مرحلة الكفاح الفعلى اذ حمل لواءه المثقفون من خريجى المدارس السودانية والمصرية ٠

ومن خلال ماسمى « بمؤتمر الخريجين » بدأت هذه المرحلة التى اتسمت كذلك ببدء ظهور الاحزاب بصفة غير معلنة ٠

هذه المرحلة الجديدة التى بدأت على يدى الطبقة المثقفة

وعلى من تلقوا العلم فى الأزهر اخذت تنحو نحو مصر منحى جديدا فلم يعد الفكر السودانى يتحمس للوحـــدة تحت التاج المشترك كما كان تفكرى مصر وقتئذ • بات الفكر السودانى يحاول ألا يكون نسخة مطـــابقة للفكر المصرى فى هـــذا الوقت •

لقد بدأ المثقفون يرون ان السودان بحدوده الجغرافيه له ان يقرر مصيره وللسودان ومصر وحدهما تنظيم علاقاتهما على اساس المودة والاخاء بين الشعبين •

قد تعطى الصورة العامة لهذا الوقت الشعور بأن السودان لم يفكر أبدا فى وحدة مع مصر فهاهى الختمية (١١٣) تنضم الى المهدية من خلال صياغة جديدة ولكن فى نفس الاتجاه •

ومع الوقت تعمق هذا الفكر العام حتى أن مؤتمر الخريجين فى سنة ١٩٤٥ بدأ ينادى « بقيام حكومة سودانية ديموقراطية فى اتحاد مع مصر ، وتحالف مع بريطانيا على أن تحـــدد

---

(١١٣) مؤسس الطريقة الختمية هو الامام السيد محمد عثمان الميرغنى (الختم) وتربط اتباعه بمصر صداقة تقليدية • يرأس هذه الطائفة اليـوم حفيده السيد محمد عثمان راعى امثل والده على الميرغنى باشا الاتجاهات السودانية نحو مصر ، على غير مسلك المهدية التى نحا بها السيد عبـــد الرحمن المهدى باشا الى رعاية الحركة الانفصالية ، وفق ما كان يقضى به التقسيم التقليدى لمواقف السودانيين وقتئذ وحتى اليوم • وقد واصـــل الخطوات بعد المهدى باشا الصديق والهادى ثم الصادق الان كل باسلوبه ومنهج سياسته . ومن الطريف أن نذكر أن انجلترا كانت قد منحت لقب سير - كما فعلنا ومنحنا الباشوية - لكل من السيد عبد الرحمن المهدى والسيد على الميرغنى واطلقت على سير رحمن اسم « سار » اختصارا وعلى سير ميرغنى اسم « سام » اختصارا ايضا حتى تسهل لها ممارسة لعبة البيضة والحجر كما نعبر عن مثل هذه التصرفات فى مصر •

الحكومة السودانية نوع الاتحاد وأن تقرر على ضوئه نوع التحالف مع بريطانيا ٠

صياغة ذكية أفصحت عن التفكير السودانى فى هذا الوقت بدأت بصوت خفيض اخذ يعلو ويعلو حتى قامت الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتواجهه هتافا مدويا ٠

لم يكن هناك فى الواقع من مفـــــر ـ والروح ثائرة بمصر واتجاهات الفكر العالمى تناهض الاستعمار وتنادى بالتحرير وتقرير المصير ـ لم يكن هناك من مفر أمام الثورة المصرية الا أن تنحو المنحى الطبيعى الذى حتمته مع اتجاهات العالم الحديث ـ متغيرات البيئة السودانية نفســـــها بعد تطورها الأخير ٠

لقد كانت الثورة المصرية بفكرها الجديد متوائمة مع الشعور الحماسى الوطنى بالسودان . متفهمة له مدركة نوازعه الطبيعية وتوقيته فسارت به وسار بها كما تلتقى روافد النهر الواحد فى المجرى الكبير ٠

انه قدر الشعبين او الشعب الواحد فى جنـــــوب الوادى وشماله . الحياة لنا وارادة الشعوب من أرادة الله ٠

اذا الشعب يوما أراد الحياة
فلابد أن يستجيب القـــدر
ولابـــــد لليـل أن ينجلى
ولابـــــد للقيد ان ينكسر

ومضى الدخيـــــل ، وصفا النيل ، وأصبحنا بنعمة الله اخوانا ٠



١٠
كهنة الاستقلال

بدأت العلاقات الرسمية بين حكومة مصر والشخصيات السودانية التى بدأت تحمل مشاعل الوطنية (للذاتية) منذ عام ١٩٤٢ ٠

وقد كان أول اتصال سجلته الوثائق ذلك الاتصال الذى تم به محمود زكى الخبير الاقتصادى المصرى وقتئذ بالخرطوم (١١٤) بالاستاذين اسماعيل أزهرى والدرديرى أحمد اسماعيل المحامى ٠ وقد تفاهم معهما على وجوب التعاون فى مواجهة المعسكر المناهض لمصر داخل مؤتمر الخريجين (الأنصار) بزعامة الاستاذ ابراهيم حمد ٠ (١١٥)

---

(١١٤) كان اكبر شخصية مصرية فى ذلك الوقت بالخرطوم ٠ وكانت اقامته فى الدار التى اضحت اليوم دار مكاتب السفارة بالمقرن وهى من اعرق واجمل الدور بالخرطوم ٠

(١١٥) عيب على مصر وقتئذ هذا الاتصال على انه تفريق بين السوانيين عزلها عن الانصار ٠ والحق ان المهدية اليوم لا يقل تقديرها لمصر ولضرورة واهمية التكامل عن الختمية ، كل ما جعلها على خلاف مع مصر مؤخرا اعتراضها على اتجاه السياسة الخارجية المصرية لا علاقاتها الثنائية مع السودان ٠ وقد عبر عن ذلك السيد الصادق المهدى فى اجتماع مع وزير الخارجية دكتور بطرس غالى اثناء احدى زيارات الوزير للخرطوم (يونيو ١٩٧٨) ٠

واستمرت الاتصالات تنمو بين مصر والازهرى بعد ذلك خلال قنوات أخرى مع مفتش عام الرى المصرى وقتئذ (محمد صبرى الكردى) والمراقب العام للتعليم (محمد عبد الهادى) ورئيس اركان حرب الجيش (الامير آلاى محمد عبد الفتاح البشارى) ·

وكان يمكن أن يرجى الخير للشعبين من هذه الاصالات الى ان وقع الشقاق فى حزب الاشقاء عام ١٩٥٢ عندما انشق السيد على نور الدين على الازهرى الذى زايد وتطرف فريسة لحملة تجهيل متعمدة ضد مصر كان من نتيجتها تعيين الاستاذ الدرديرى احمد اسماعيل المحامى وكيلا لوزارة شئون السودان بمصر ·

وقد شاركت فى الحملة السودانية ضد مصر انجلترا على نحو نشط عاونتها عليها لعبة التقارب من الختمية لضرب المهدية احيانا وبالعكس احيانا أخرى ·

ولولا تفهم الثورة المصرية ـ كما سبق البيان ـ للبيئة السودانية الجديدة وتكييفها تكييفا حديثا لما زال ابدا هذا الحاجز الوهمى الذى بناه الانجليز بين الشعبين المصرى والسودانى ·

كان الصاغ صلاح سالم وزير الدولة المصرية لشئون السودان هو الذى باشر هذه العملية (١١٦) التى على اساسها استقل السودان ثم ارتبط بمصر بميثاق للتكامل بعدئذ ظل باقيا رغم هزات الاحداث مؤخرا كأفضل صيغة للارتباط بين البلدين ·

ولعله من الجميل ان نذكر اليوم أن الصاغ صلاح سالم قد اصطحب معه فى مهمته بالسودان السيد الشيخ أحمد حسن الباقورى وانه قبل ان يوفق الى الحصول على الوثيقة المشهورة

---

(١١٦) يراجع ما جاء بحكمة التاريخ ·

التى سجل فيها جميع السودانيين بمختلف أحزابهم اتفاقهم مع مصر ، قد تعرض لغضبة من السيد الدرديرى محمد عثمان عندما قال له صائحا : « هل قدر لنا ونحن قــــادة البلاد وأصغرنا تجاوز الاربعين ان يعلمنا الوطنية شاب فى الخامسة والثلاثين قادم من مصر » ·

كذلك لا يمكن أن نغفل ونحن وقوف على اعتاب استقلال السودان الاشادة بكبار المصريين الذين انذروا انفسهم لخدمة مصر فى السودان أمام أعتى قوة استعمارية وقتئذ ·

لا يمكن أن نغفل محمود زكى (الخبير الاقتصادى) وصبرى الكردى (مفتش عام الرى) ومحمد عبد الهادى (مراقب عام التعليم) وعبد الفتاح البشارى (الجيش) فقد كانوا الاربعة ـ كما سبق البيان ـ روادمصر الحديثة لدى السودان الحديث· لقد كانوا رجالا أفذاذا ارجو أن ترى قاعات السفارات المصرية بالخرطوم فى يوم من الايام صورهم لحديث التاريخ ·

وكان من الاسماء المصرية التى عاصرت السودان فى فترة انتقاله الى الاستقــــلال حسين ذو الفقار صبرى نائب وزير الخارجية السابق الرجل الصلب الجرىء الذى كانت تدخلاته من أقوى المواقف التى دفعت بالمفاوضات بين مصر وانجلترا بشأن السودان الى ذروة النجاح ·

ثم كان نشاطه بعدئذ فى لجنة الحاكم العام من أنصــع مراحل حياته فلقد كانت مرحلة نزاهة وامانة واخلاص لقضية وادى النيل بشقيه ·

وكان المرحوم الاميرالاى عبد الفتاح حسن رئيس اركان حرب الجيش المصرى فى السودان ثم العضو بلجنة الانتخابات خلال فترة الانتقال ثم نائب وزير الخارجية أحد القلائل الذين عرفوا السودان وكان لهم فيه صداقات وثيقة بين الاتحاديين والاستقلاليين معا الواقفين بين بين ·

ومن الذكريات التى أسعد لها دائما عندما تمر بخاطرى

ذكرى هذين الرجلين : ذو الفقار صبرى أطال الله عمره وعبد الفتاح حسن رحمه الله · فقد تعرفت عليهما فى بداية الثورة ويبدو أن عقلى الباطن قد تعلق بهما منذ ذلك الوقت عندما وجدت نفسى أهفو بعد سنوات الى السودان ·

★★★

ما كان السودان يبدأ مرحلة الانتقال ويمارس طقوس صلاة الاستقلال الا وكما زخر المعبد بالكهان زخر بحملة القماقم ·

انشق حزب الاشقاء الى جناحين أحدهما برئاسة الاستاذ اسماعيل الازهرى والآخر برئاسة الاستاذ محمد نور الدين · ثم من جديد انفصل عن جناح الازهرى ميرغنى حمزة وخلف الله خالد واحمد حلى ليعلنوا عن قيام الحزب الاستقلال الجمهورى ·

وكان يحيى الفضلى ومبارك زروق وابراهيم المفتى وخضر محمد ومحمد أحمد المرضى ويعقوب عثمان وعلى البرير (الرائد الاول للسودانيين بمصر) أكثر هذا الفريق حماسا حتى اليوم الشيخ الفاضل السيد على عبد الرحمن اطال الله فى عمره ·

ومما يجدر ذكره ان حزب الاشقاء لم يسم كذلك لمناداته بمصر الشقيقة وانما لضمه أصلا عددا كبيرا من الاخوة الاشقاء الذين كان من بينهم اسماعيل الازهرى وعلى الازهرى ويحيى الفضلى ومحمود الفضلى واحمد يس وحسن يس واسماعيل عثمان صالح وميرغنى عثمان صالح وعبدالرازق العتبانى ومحمود العتبانى وحمد عوض الله والحاج عوض الله ·

وقد قام هذا الحزب بمعاونة الختمية فى بداية نشأته بمناهضة المهدية التى اتجهت نحو العمل على انشاء حكومة

سودانية مستقلة عن مصر كمظهر من مظاهر الصراع التقليدى بين الانصار والختمية ٠

وقد ظهرت بالتبعية ازاء هذا الصراع أحزاب أخرى فظهر حزب ينادى بوحدة وادى النيل برئاسة الاستاذ الدرديرى احمد اسماعيل الذى أسس حزبا جديدا فى سنة ١٩٥٢ تحت اسم الحزب الوطنى الاتحادى ، وحزب الاحرار الاتحاديين للدعوة الى الاستقلال التام بزعامة الطيب محمد خير وقد قيل ان أحد جزئى هذا الحزب كان له لون يسارى واضح ٠

وفى الاثناء تالفت الجبهة الوطنية سنة ١٩٤٩ ومن قبلها عقد مؤتمر السودان . ووسط كل هذه الظروف كانت تعلو أسماء وتنخفض أسماء وتضيع أحيانا أسماء كثيرة ٠

وبطبيعة الحال كان يقف للاتحاديين موقف العداء الاستقلاليون الذين وصف بعضهم بدهاقنة الانفصال مثل ميرغنى حمزة رئيس حزب الاستقلال الجمهورى (١١٧) ومحمد صالح الشنقيطى (وان تخلى فى نهاية ايامه عن تعصبه لحزب الأمة وأضحى رسول سلام بين الحزب ومصر وقد كان احد ثلاثة ذهبوا لمقابلة نجيب الهلالى باشا قبل الثورة) ٠ ومحمد أحمد محجوب (رئيس وزراء السودان عدة مرات قبل ثورة الرئيس نميرى) وقد كنت كثير الاجتماع به قبل وفاته وهو كاتب وشاعر رقيق لم أسمع منه الا تقديرا للوشائج بين مصر والسودان وكان دائم الذكرى لاجتماعه بالرئيس عبد الناصر تحت شجرة المانجو بحديقة منزله اثناء انعقاد مؤتمر القمة العربى بالخرطوم سنة ١٩٦٧ عقب النكسة ٠

---

(١١٧) لم أسمع منه قبل وفاته ـ والحق يقال ـ الا مديحا لعلاقة الشعبين٠

ومن بين كل هؤلاء كان هناك زملاء الدراسة معى فى باريس فى نهاية الاربعينات المرحوم دكتور عقيل أحمد عقيل المحامى دمث الخلق الوديع واحمد عبدون الوزير السابق الجاد المرح واحمد السيد حمد الوزير الحالى المثابر القدير ودكتور بشير البكرى سفير السودان فى باريس الذكى الرقيق ودكتور محيى الدين صابر الوزير السابق وامين عام اليونسكو العربية اليوم وهو عالم شاعر · لقد واصلت صداقتى معهم معتزا فخورا بهم · جمعتهم فكرة الاتحاد على اساس انه عقد بين طرفين يمتلكان الأهلية القانونية لتوقيعه · يؤمنون بالتعاون الوثيق مع مصر على أساس المصالح المشتركة · يفهمون الاتحاد مع مصر اتحادا أفقيا لا رأسيا على حـــــد تعبير محيى الدين صابر ·

خلال هذه الحقبة وفى هذه البيئة المقبلة على الاستقلال ، لم يدع اليساريون الأمور تســــير دون ان يتدخلوا بل كان تدخلهم أحيانا من الحوافز المؤثرة التى ســـــارعت بتوجيه الأحداث ·

وقد يلاحظ ذلك فى عام ١٩٤٧ عندما اشتد النضـــــال بين معسكرى الوحدة والاستقلال وبدأ ظهور الحركة النقابية فقد رأت أحزاب الوحدة التفاهم مع هذا التيار الجـــديد الذى بدأ يدعو لفلسفة اجتماعية وسياسية جديدة تعتمد على التفسير الماركسى للأحداث · على ان أصـــــحاب هذا التيار كان من صالحهم العمل داخل كل الاحزاب يبثون فكرهم عن (الرجعية المصرية) و (الاستعمار الانجليزى الامريكى) و (تعاون السودان مع الشعوب الحرة التى فى طليعتها الاتحـــــاد السوفييتى) · وبدأ هؤلاء التقدميون يتحدثون بلغة جديدة استهوت الشباب بالسودان مثل عبارات : الكادحون وتمييع الكفاح · والانصرافية والانهزامية والانتهازية والطبقة العاملة والنضال التحريرى · والقيادية ··· الخ ·

لقد كانوا يمثلون فكرا ، أكثر منهم حزبا ٠

ومن الذين اعتنقوا هذا التفكير وقتئذ الاســـــتاذ حسن الطاهر زروق ومحمد سعيد معروف وعبد الرحمن عبد الرحيم الوسيلة وعبد الخالق محجوب الذى واصل نشـــاطه الى ان أعدم مع شفيع الشيخ وبابكر النور وعثمان حمد الله عندما احبطت ثورة هاشم العطا الشيوعية بعد الاستقلال ضد الرئيس نميرى فى سنة ١٩٧١ ٠



١١

محكمة التاريخ

بالعودة الى مطلع التاريخ الحديث للسودان نجد أن انجلترا كانت من اكثر الدول الاستعمارية وقتئذ انزعاجا من الفتح المصرى سنة ١٨٢٠ وأنه لو لا مسارعة مصر الى ضم السودان اليها كجزء لا يتجزأ من أراضيها لا بتلعته كنصيبها فى الذبيحة التى وقف جزار الاستعمار البغيض فى أفريقيا يوزعها فى بداية القرن على الجميع (١١٨) دون دول القارة ٠

كان الطريق الى السودان ميسرا فعلا قبل الفتح المصرى أمام انجلترا ٠ فلم يكن يشعر بكيان موحد ٠ كان مقطوع الأوصال بين أربع ممالك متداخلة ضعيفة متهالكة ٠ على ان الفتح المصرى لم يصن السودان فقط من ابتلاع انجلترا له وقتئذ وانما صانه من موجة التعصب الدينى للمسيحية التى ركبتها انجلترا حنذاك عن عقيدة أو لتهدد مصر بهـــا بأن « اقترابها من الحدود الحبشية يهدد ذلك البلد الذى ما زال وحدة متمسكا بالمسيحية ٠٠٠ » ٠ (١١٩)

---

(١١٨) دول الاستعمار الغربى وقتئذ انجلترا وفرنسا والبرتغال وبلجيكا وايطاليا ٠

(١١٩) الامبراطورية السودانية لمحمد صبرى (١٩٤٨) ٠

ثم انها هى مصر التى عندما حاولت الاطمـــاع انتزاع موانى البحر الاحمر منها هبت تناضل حتى دفعت من خزانتهـــا للسلطان ـ وهى المتواضعة الموارد ـ الثمن غاليا ليتنازل لها عنها • (١٢٠)

وقد سبقت مصر عصرها عندما بعثت بوفود الاستكشاف الى المناطق الاستوائية باعـــالى النيل للكشـــف العلمى والتعمير •

ولعله من الجميل ان نذكر فى هذا المجال انه كان من أولى التعليمات التى وردت فى أمر تعيين جوردون « ان عليه حسن المعاملة والاهتمام بالاهالى للاستحصـــان على ما فيه عمارية جهات الاستواء المحكى عنها وراحة أهاليها وحسن توطينهم وتأليفهم على الدخول فى سلك الانسانية » • (١٢١)

كان للمراكز المصرية القائمة على خط الاســـتواء فضل سجلة الاوربيون قبل غيرهم فى نشر العلم والحضارة والرقى كما جاء فى مؤلفاتهم عن السودان وعلاقته بمصر • لقد قالوا ان الفتح المصرى جعل العالم يدرك ان السودان قد بعث كأمة جديدة فى قلب افريقيا • (١٢٢)

---

(١٢٠) سواكن وزيلع •

(١٢١) وثائق السودان فى ارشيف قصر الجمهورية بعابدين • « ولقـــد يعجب الانسان ان تبقى هذه الوثائق مطوية فل من يراجعها ومن المصلحة ان تنشر لتكون بين يدى كل من يريد ان يتعرف على تاريخ مصر • ومـــن الواجب على كل مصرى ان يردد النظر فيها وان يحيط بتفاصيلها ومغازيها وهو جدير ان فعل ان يكون اصبح بصرا بحاضره واسد سعيا لمستقبله • » من تعليق للمرحوم دكتور عبد الحميد بدوى باشا سنة ١٩٣٣ بشان وثائق تاريخية اخرى اقتبسته بنصه البليغ اذ وجدتنى أراه اليوم بالنسبة لوثائق العلاقات المصرية السودانية يشير الى ضرورة اكثر الحاحا باتت تتطلـــب التبنى الفورى من جانب اية جهة مختصة معنية •

(١٢٢) يقظة السودان للدكتور ابراهيم العدوى •

ولدى متابعة الجهود المصرية فى السودان منذ مطلع القرن لا يجب ان نغفل عن فضل العمالة المصرية فى تعمير البلاد وتحديثها · وجولة اليوم بالسودان من حلفا شمالا الى جـوبا جنوبا تملا كل مصرى بالزهو والفخر فما من مبنى كبير أو مرفق من مرافق الحياة : تعليم أو رى أو صحة أو زراعـــة أو صناعة أو بريد أو دين أو نقل او قضاء أو دفاع الا وكان المصريون من رائه روادا : بناة وعمالا معلمين ومهندسين أطباء وقضاة ، عسكريين ووعاظ ومرشدين ·

ولنا وقفة تأمل لدى هذه الحقبة أود أن أغتنمها لاسجل فضل عالم مصرى جليل يضعه الســودانيون قبل المصريين فى مقدمة بناة الفكر فى السودان الحديث ·

ان هذا العالم الكبير هـــو رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) (١٢٣) فقد كان هذا الرجل فريدا بين الرجال · وصفه المفكر والعالم السودانى جمال محمد احمد بأنه كان وسيظل دائما فى مقدمة المصريين الذين خرقوا الفكر فى المجتمع · أنه كان وحده علامة طريق ·

لقد تعددت مؤلفاته عن الاصلاح والنهضة · بدأ حياته فى السودان عندما نفاه اليه الخديوى عباس باشـــا سنة ١٨٥١ لتولى نظارة المدرسة المصرية بالخرطوم · وكان مما نادى به ان مصر لها طابع خاص كأمة تتباين به عن الجسم العـــام للمجموعة الاسلامية · وله نص مأثور يقول : « أن لكل أرض كوكب من أفقه تبزغ الشمس · ومصرنا كوكب افريقيا مـــن منازلها العليا وهى أفقها تبزغ الشمس على القارة » · (١٢٣)

---

(١٢٣) وثائق السودان + الاصول الفكرية الوطنية بالانجليزية للمفكر العالم جمال محمد احمد وزير خارجية السودان الاسبق ·

(١٢٤) يؤسفنى انه لم يتيسر لى الرجوع الى الاصل العربى مما اضطرنى لترجمة هذا النص عن الانجليزية من كتاب جمال محمد احمد ـ المرجـــع السابق ·

عمل رفاعة الطهطاوى خلال اقامته بالخرطوم على بث هذه الروح الملتهبة حماسا لوادى النيل • وقد كانت مشاركاته مع أهل الفكر فى السودان من أقوى المؤثرات فى خلق الروح الوطنية لديهم • وكان من أهم كتبه ترجمته لكتاب الرحالة سبيك الى العربية (١٢٥) فقد احتوى هذا الكتاب على « مباحث وموضوعات جمة تعود بالنفع العميم على سكان وأهالى الاقاليم السودانية مذ منبع النيل آلى مصبه » •

كما كان من كتبه ترجمته عن الفرنسية لكتاب محمد عمر التونسى عن رحلته الى دار فور والحبشة •(١٢٦)

وقد كان رفاعة الطهطاوى مؤمنا بارتباط مصر بالسودان متحمسا للسودانيين محبا شغوفا بهم • وقد سجلت مذكراته هذا الحماس والحب والتقدير • (١٢٧) •

وظلما وعدوانا خلال الحقبة المصرية فى تاريخ السودان بث الانجليز الكراهية فى صدور السـودانيين عن عمد لصد المصريين من ناحية عن السودان ولتنفير السودانيين منا من ناحية اخرى فامتهنوا تجارة الرقيق وادعو أن العـرب هم المسئولون وحدهم عنها •

وباسم مصر تابع جوردون سياسته لصالح بريطانيا فبعد ان بث الكراهية بين العرب والسـود بدأ فى عزل المصريين وتعيين أجانب من مختلف الجنسيات بدلا منهم (٢٨) واخذ فى عمليات التضليل وزعزعة العقائد وتسفيه التقـاليد رغم رقته الظاهرة ووداعة مظهره حتى أنه « أجـاز اقامة العاهرات بجوار الزوايا • وشجع الناس على التخلى عن سنن الزواج

---

(١٢٥) يقظة السودان ـ المرجع السابق •

(١٢٦) وثائق السودان •

(١٢٧) مناهج الالباب لرفاعة الطهطاوى •

(١٢٨) شنتز الالمانى وفردريك الروسى وجيسى الايطالى وكازاتى الايطالى •

فى الشريعة الاسلامية بدعوى ان الدنيا حرية » • (١٢٩)

ويذكر محمد صـــبرى المؤرخ المصرى فى كتـــابه عن الامبراطورية السودانية ١٩٤٨ عن أحد المرتزقة الاجانب الذين استجلبهم جوردون انه قال فى رسالة بعث بها الى صحيفة فى ميلانو « يجب ان نفصل تماما البــلاد الســـوداء (جنوب السودان) عن البلاد العربية من السودان ذلك ان العـــرب المنتشرين فى البلاد ليسوا الا لصوصا أو شـــحاذين يجب ارجاعهم الى بلادهم الأصلية وقطع كـــل أمل عندهم فى العودة » •

وقصة الزبير فى السودان يجب ان نذكرها ليل نهار وندق بها الاذهان حتى نعى كيف دبرت المؤامرات لاقتلاع مصر من الســـودان •

تقول القصـــة ان ســليمان بن الزبير كان يقيم بجنوب السودان معينا من قبل مصر منذ ســافر أبيه الزبير باشا الى مصر ليتفق معها على اسلوب جديد للســياسة المصرية ازاء بلاد دارفور والسودان بوجه عام • وكانت الحكومة المصرية وقتئذ قد ابلغت جوردون ان الزبير باشـــا مريض ويرغب فى العودة الى السودان ولكن جوردون لتعصب فى نفسه رفض فثار ابن الزبير واضطلع بزعامة حركة للمقاومة فى غياب أبيه واستمر فى نضاله حتى أعدم رميا بالرصاص مـــع تسعة من الزعماء السودانيين . ولم يكتف جوردون بالتخلص من وريث آل بيت الزبير وانما عمد الى اقصاء الزبير باشا نفسه بالحكم عليه بالاعدام •

وبطبيعة الحال لم يقر مجلس الاحكام بمصر هـــذه الادانة

---

(١٢٩) الحكم المصرى ـ لفؤاد شكرى ١٩٤٧ •

البربرية وأبى تنفيذ هذا الحكم الزائف (١٣٠) ٠

لم يغب عن الانجليز كذلك تفتيت اواصر الســـــودان وبتر اطرافه فى كل فرصـــــة تحين لهم على الرغم من انهم كانوا يتذرعون باسم مصر ٠٠ فقد سمحوا لايطاليا باحتلال بيلول فى شمال عصب والاستيلاء على المنطقة الساحلية قرب مصـــوع كذا كسلا وأرتريا خلال وليمة الاســــتعمار أو اللئام وتوزيع الذبيحة ٠

وانجلترا فيما فعلته لم تكن تعمل لصالح ايطاليا بقـــدر ما كانت تعمل لصالحها على حساب السودان فانها لم تعهـــد لايطاليا بهذه المناطق الا على سبيل الحراسة ككلب الجناينى الذى يتولى حراسة ما يعهـــد اليه به من أملاك حتى تحين الفرصة ليسترد السيد هذه الاملاك ٠ (١٣١)

ولما كان الانجليز منذ بزغ للسودان نجم فى ســـماء مصر يعملون على فصل جنوبه عنه فقد سلكوا نفس المسـلك عندما عهدوا الى ملك بلجيكا ليحكم حوض بحر الغزال مدى حياته كحارس آخر للجناينى مما جعل حدود (الكونجو البلجيكى) تمتد حتى فاشودة هدف الفرنسيين والاحباش فى ذلك الوقت ٠

---

(١٣٠) لقد اختلف الرأى بشأن شخصية زبير باشا فمن قال ان سلطتـه جاءت عن طريق سلطانه فى سوق الرقيق ومن قال ان وطنيته كانت مـــن وراء ذلك ٠ على انه مهما كان الرأى فالثابت أن مصر منحته رتبة الباشوية ورشحته نائبا لجوردون ولكن الحكومة الانجليزية رفضت بتهمة مخابرته مع المهدى بل انها نفته من مصر الى جبل طارق خشية عودته الى الســـودان مفضلة فى تخطيطها تهاوى الوضع تحت ضربات المهدية على احتمال عودة الامور تحت سلطنة الزبير ومن ثمة استرجاع مصر لمكانتها لعل الوضـــع يئول بالسودان الى وضع الهند ٠ وقد كان لانجلترا ما رسمت ولكن دون تحقيق غايتها ٠ وعندما ضعف خطر زبير سمح له بالعودة الى السودان حيث عاش فى مزرعته على مقربة من ام درمان الى ان مات سنة ١٩٣٣ ٠

(١٣١) المرجع السابق ٠

ولم تضع انجلترا وقتا بعد توقيع اتفاق الحكم الثنائى فقد باتت اكثر انطلاقا وأوفر مجالا للعدوان باسم الشرعية ٠

فأعادت باسم مصر ترتيب الامور على نحو سيطرت فيه الايادى البريطانية تماما على ادارة السودان تمهيدا لضمه كما سبق البيان ٠

ولم يعد لاحد سلطة بالسودان الا للحاكم العام وكان جميع المديرين من الانجليز الذين منحهم الحاكم من الامتيازات ما جعلهم يعيشون فى السودان « كاللوردات فى عهد الاقطاع »

ومزقت انجلترا السودان وقفلت بعض مناطقه على السودانيين أنفسهم (١٣٢) حتى بات السودانى ليس له ان ينتقل من بلد لآخر الا باذن الحاكم العام ٠ (١٣٣) واعتبر السودانى من الشمال فى حكم الاجنبى بجنوب السودان واعترف بالقبلية واعتبرت بديلا للجنسية فى محاولة تفتيت وتمزيق اوصال وأواصر السودانيين عندما اشترطت الادارة الانجليزية ذكر اسماء القبائل فى المكتبات الرسمية ٠

وقد جاء عن هذا الموضوع وغيره تفصيل فى كتاب عن السودان يحمل عنوانا بليغا « موت دنيا » (١٣٤) جاء فيه :

« ومنعت الصحف والمجلات والكتب التى تصدر فى مصر من دخول السودان وبدأت السلطات البريطانية فى السودان سياسة قمع وارهاب وأشاعت الخوف فى نفوس الطلاب ببث الجواسيس والمراقبة الصارمة ٠ وكنت ترى انت كيف نعامل فى تلك السنين ٠ الم يحرم علينا أن نقرأ الصحف والمجلات الأدبية ؟ وكم من عنت لقينا وكم أصابنا من شر ونحن نحاول

---

(١٣٢) قانون المناطق المقفلة بالسودان كان أول سابقة فى التاريخ لنظام الستار الحديدى ٠

(١٣٣) ذكرنى ذلك بسيناء فى أوقات معينة ٠

(١٣٤) « موت دنيا » لمحمد أحمد محجوب وعبد الحليم محمد ٠

ان ندرس جريدة السياسة الاسبوعية والبلاغ الاســـبوعى والهلال وكان من يضبط متلبسا بجريمة قراءة صحف مصرية او حيازتها فى السودان يعاقب بالجلد أو بالطرد » ٠

وكانت انجلترا تمارس ذلك باسم مصر ٠ ثم يستطرد كتاب « موت دنيا » فى فصل آخر يقول :

« تكلم احد المعاصرين ممن شاهد مآسى الاستعمار بصـــدد احيــاء أنزعة القبلية والنص على ذكر القبيلة فى المكاتبات الرسمية فقال أنه وزملاءه من طلبة كلية جوردون أحســوا بالخطر الداهم الذى يترتب على هذه السياسة الاستعمارية ٠ ولذلك فقد اتفقنا على ان نضرب المســمار الاول فى نعش تلك المشكلة البغيضة الا وهى مشكلة القبائل التى شعرنا بخطورتها ونحن طلاب وحاربناها فى دفاتر الكلية الرسمية يوم ان طلب منا أن نقيد أجناسنا فاحصيناها فوجـــدنا فصلا واحدا به ثلاثون طالبا عدد قبائلهم بلغ اثنين وعشرين قبيله » ٠

ودعم المستعمر هذه الفوارق الاجتماعية باطلاق الارساليات المسيحية تخدم أغراضه باسم الدين ٠

وكان كل هذا باسم مصر ٠

ولكن كما قال الاستاذ دكتور ابراهيم العدوى مدير جامعة القاهرة فرع الخرطوم السابق (١٣٥) وصاحب الكتاب القيم « يقظة السودان » ، ان الضغط الســياسى سرعان ما ولد الانفجـــار ٠

ولكن الانفجـــار فى الواقع لم يكن وليد هذا الضغط السياسى وحده فقد كان نتيجة نار اشتعلت على طول الوقت فى نفوس الناس وضمائرهم ٠

ان الفكر المصرى ممثلا فى مدرســـيه ومهندسيه ووعاظه وعلمائه واطبائه وزراعه وعماله وكتبه وصـــحافته هو الذى أشعل هذه النار منذ الفتح المصرى لتنير الوعى السودانى وهو

---

(١٣٥) حاليا نائب مدير جامعة القاهرة ٠

الذى لم يكف لحظة بعدئذ عن وقد جذوتها كفاحا ونضالا من أجل السودان أينما ووقتما توفرت له سانحة .

★★★

بدأ المفاوض المصرى منذ سنة ١٩٢٠ عندما صحا على فاجعة اتفاق الحكم الثنائى يناضل من أجل السودان ضمن نضاله من أجل مصر (١٣٦) .

وقد رأينا عدلى يكن باشا رئيس وزراء مصر وقتئذ يقول للانجليز فى مفاوضاته مع كيرزن بشأن السودان « ان الاتفاق (الحكم الثنائى) يقضى بالاشتراك فى الادارة ولكن حق السيادة فهو لمصر وحدها . لا أحد يجهل ان نصيب مصر حتى فى الادارة بات فى حكم العدم . ان مصر لا تطالب بأن يكون لها يد فى ادارة السودان من قبيل المطالبة لمجرد التمتع بلذة الحكم أو لقضاء شهوة السلطة . هناك هجرة المصريين الى السودان ومسألة النيل .. » .

وجاء من بعد عدلى سعد زغلول سنة ١٩٢٤ ليقول لماكدونالد عن السودان « ان الحال تبدلت فى السودان . لقد أخرجت وحدات من الجيش المصرى منه وكادت تنقطع كل الصلات الفعلية الباقية بينه وبين مصر . ان حكومة السودان (البريطانية التى تحكم باسم مصر) تشجع حركة مصطنعة بقصد انفصال السودان عن مصر » .. وقال كلمته المشهورة « ان مصر جزء لا يتجزأ من السودان حياته من حياتها ان السودان ألزم لها من الاسكندرية » .

وبطبيعة الاحوال لم ترتح انجلترا لسعد زغلول فدبرت له المكائد . وهنا يذكر الكاتب الكبير مصطفى أمين فى مذكراته تحت عنوان من عشرة لعشرين « أنه لما اطلق عدد من الثوار الرصاص على سيرلى ستاك سردار الجيش المصرى

---

(١٣٦) الكتاب الاخضر عن مصر والسودان (١٨٤١ - ١٩٥٣) .

وحاكم السودان ذهب اللورد اللنبى المندوب السامى البريطانى فى مظاهرة مسلحة الى مجلس الوزراء ليقدم الى سعد زغلول اعجب انذار فى تاريخ الشعوب فقد امر بتسريح الجيش المصرى واخراجه من السودان فلما اعترض سعد زغلول كلف زيور باشـــا بتأليف الوزارة فى ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤ .. التى دخلها لأول مرة وزير يهودى فى تاريخ مصر هو يوسف أصـــلان قطاوى (وزير المالية فى الوزارة الاولى ووزير المواصلات فى الوزارة الثانية) » .

رفض الجيش المصرى ان يغادر السودان وتمردت أورطتان سودانيتان فى الخـــرطوم احتجاجا على فصــــل مصر عن السودان واعدم الانجليز خمسة من الضباط الســـــودانيين فارسل الملك فؤاد ضابطا كبيرا للجيش المصرى يأمره بالتسليم .. وادعى زيور باشـــــا ان مهمة حكومته هى انقاذ مايمكن انقاذه . واكتشف المصريون بعد ايام ان مهمتها كانت اغراق مايمكن اغراقه » . لقد اقتلعت مصر من السودان .

على ان عبد الخالق ثروت باشا واصل المســـيرة فبدأ مع تشمبرلن سنة ١٩٢٧ مفاوضاته بالنسبة للسودان على أساس ان انجلترا أخذت بالمساواة فى ادارة شئون السودان لصلحتها وأنها أفرغت اتفــــاق الحكم الثنائى من معناه .. حتى أنها جعلت من مراقبة مصر على مياه النيل مراقبة حسابية للارقام وعمليات الجمع والطرح فقط .. ولم يعـــــرض ثروت باشا لموضوع عودة الجيش المصرى الى الســـودان . على عكس ما فعل محمد محمود باشا بعده فى سنة ١٩٢٩ فى مفاوضاته مع هندرسن فقد طالب بعودة الجيش المصرى الى الســـودان ولكنه لم يوفق .

على أنه نجح فى ٧ مايو ١٩٢٩ فى توقيع أول اتفــــاق لمياه النيل مع بريطانيا .

ثم كان عام ١٩٣٠ ليبدأ مصطفى النحاس باشا جولته مع الانجليز بشأن جلائهم عن مصر ورفع أيديهم عن السودان ..

وقد عرف النحاس باشا « الاشتراك الفعلى فى ادارة السودان برفع القيود الموضوعة على حرية المصريين بالنسبة للسودان أى حرية الهجرة اليه ومنه وحرية الاقامة فيه والتجارة وحرية التملك وجعل الادارة فى أيد المصريين والانجليز على السواء ... الخ » .

ورفض النحاس باشا مماطلة الانجليز بالنسبة لمشكلة السودان « عندما رآهم يقصدون بتسوية المسألة المصرية أن تكون تسوية فعلية بالنسبة لمصر ومجرد تسوية اسمية بالنسبة للسودان بحجة ان البرلمان والشعب الانجليزى لا يقبلان الآن تغييرا فى حالة السودان الراهنة » .

وفشل النحاس كما فشل غيره من قبل وتأجلت « مسألة السودان » عندما اتفق على العمل باتفاق الحكم الثنائى فى المعاهدة المصرية الانجليزية التى وقعت سنة ١٩٣٦ بشأن الجلاء عن مصر وان كان الطرفان قد اتفقا على عودة رمزية لبعض وحدات الجيش المصرى الى السودان .

على أن المفاوض المصرى لم يرتح لهذه المماطلة وواصل عندما تولى اسماعيل صدقى باشا رئاسة وزارة مصر المفاوضة بشأن (المسألة السودانية) المؤجلة » على أساس التسليم « بوحدة وادى النيل تحت تاج مصر » وقد اخترع صدقى باشا هذا التعبير لأول مرة حتى لا تستطيع بريطانيا ان تحتج بمصالح السودانيين طالما أنهم على أساس مبدأ وحدة وادى النيل تحت تاج مصر يكونون جزءا من دولة منظمة بدلا من أن يعيشوا تحت نظام غير طبيعى » (١٣٧) .

وقد شرح صدقى باشا اتجاهه فى مذكرة شخصية منه سلمها الى مستر بيفين فى ١٩ أكتوبر ١٩٤٦ جاء فيها « ان سيادة مصر على السودان حقيقة تاريخية وقانونية اعترفت بها الحكومة البريطانية اعترافا صريحا سواء فيما قبل اتفاقية

---

(١٣٧) المرجع السابق .

١٨٩٩ أو بعدها . ولقد كان المقصد الاساسى لاتفـاقية ١٨٩٩ تنظيم ادارة السودان وعلى الرغم من ان بريطانيا العظمى قد طلبت حق الاشتراك فى هـــــذه الادارة اشتراكا بعيد المدى وحصلت عليه فعلا الا انها لم تقصد مع ذلك المســـاس بمبدأ السيادة المصرية » .

وكان من بين الجديد فى مبادرة صدقى باشا انه عنـــدما تحدث عن الاتحاد الشرعى بين مصر والسودان ، لم يستعمل لفظة السيادة ولكن لفظة الاتحاد تحت التاج المصرى . وعندما لاحظ صدقى باشا المراوغة من جانب الانجليز اقترح بدلا من تعبير التاج المصرى تعبير (التاج المشترك) . وعن مسـتقبل السودان نص مشروع البروتوكل الذى انتهت اليه المفاوضات على « أن للسودانيين عندما ينضجون للحكم الذاتى الحـرية فى اختيار وضع حكومة السودان فى حدود الاستقلال الذاتى بحيث لا ينبغى ان يشمل الانفصال السياسى عن مصر » .

وفى حديث شخصى مؤخرا مع حسن يوســـف باشا نائب رئيس الديوان الملكى قبل الثورة ابلغنى أن صـدقى باشا كان يفاوض فى لندن وهـو مريض بفندق كلاريدج الامر الذى كان يضطر معه مستر بيفين الى الانتقال اليه بالفندق للتفاوض . وكان ذلك لعلاقات السفير عبد الفتاح عمرو باشا الشخصية وجهوده .

وقد وصف حسن باشا يوسف مشروع صـــدقى ـ بيفين بشأن السودان بأنه كان أفضل صياغة لصالح الشـــعبين فى هذا الوقت فقدتها مصر بسبب تدخل دكتور محمد صلاح الدين باشا وزير خارجية الوفد وقتئذ لاعتبارات حزبية .

لم تستمر مفاوضات الجلاء ووحدة وادى النيل طويلا عندما تولاها بعد صدقى باشا فى سنة ١٩٤٦ محمود فهمى النقراشى

باشا الذى اضطر ازاء تعنت الانجليز ومناوراتهم (١٣٨) الى قطع المفاوضـــــات ورفع القضــــية الى مجلس الأمن للأمم المتحـــــدة ٠

وامام مجلس الأمن فى ٥ أغسطس ١٩٤٧ شــــكت مصر بريطانيا على لسان النقراشى ٠ ولايزال المثقفون بالســـودان يتذكرون هذا الحدث الذى رفع مشكلة السودان الى المستوى الدولى لأول مرة ٠

قال النقراشى فى شـــــكواه أمام مجلس الأمن « ان احتلال القوات البريطانية غير المشروع لمصر فى سنة ١٨٨٢ واحتلالها للجزء الجنوبى من وادى النيل اى السودان تبعا لذلك قـــد مكن المملكة المتحدة منذ ســنة ١٨٩٩ من أن تفرض على مصر اشتراكها معها فى ادارة السودان وان تنفرد بعدئذ بالسلطان فيه متبعة سياسة ترمى الى فصــــله عن مصر ٠٠ وأنه لذلك تطلب مصر :

(أ) جلاء القوات البريطانية عن مصر والســـودان جلاء تاما ناجزا ٠

(ب) انتهاء النظام الادارى الحالى للسودان ٠

وكان خطاب النقراشى باشا أمام مجلس الأمن وثيقة تاريخية يجدر بنا أن نذكرها من وقت لآخر لا سيما الجيل الجديد الذى لم يعاصر هذه الأحداث ٠

قال النقراشى كذلك « أن مســــــألة الادارة البريطانية فى السودان لا يستطاع فهمها من الناحيتين المنطقية والتاريخية الا على ضوء الاحتلال البريطانى لمصر ٠٠٠ » ٠

« ان مصر والسودان قطر واحــــد من الناحية الطبيعية ٠

---

(١٣٨) مؤتمر ادارة السودان الذى دعت اليــــه الادارة الانجلـــيزية بالسودان فى ٢ مارس ١٩٤٧ ٠ ضاما سودانيين مختارين بالذات كان مـن بينهم السيد الصديق المهدى ومحمد احمد محجوب ومكى عباس ومصطفى ابو العلا والدرديرى عثمان ومحمد صالح الشنقيطى ٠٠ الخ ٠

أرادت الطبيعة أن يكون وادى النيل كيانا واحدا وأمام التاريخ الشواهد على ذلك ·· ان النيل ـ كما قال تشرشل ـ كالنخلة لا خير فى جذورها اذا فصل الساق عنها ولا خير فى الساق اذا فصل عن الجذور ·· ترتبط مصالح مصر فى مياه النيل بمصالح السودان ·· بين مصر والسودان وحدة فى التاريخ والدين واللغة والثقافة » ·

« ان الحكم المصرى قد أحال الصحراء أرضا غنية آهلة بالسكان ·· استغلت بريطانيا الثورة المهدية فسرحت الجيش المصرى ·· أعيد فتح السودان لحساب بريطانيا التى تذرعت بحقوق مصر فى وادى النيل عندما اصطدمت مطامعها مع غيرها من الدول الاوربية فى افريقيا » ·

« ان وفاق ١٨٩٩ بدعة خلق نظاما هجينا من الحكم لم يعرفه القانون الدولى من قبل » ·

« استغلت بريطانيا مقتل سردار الجيش المصرى سنة ١٩٢٤ الذى كان فى الوقت نفسه حاكما للسودان ففرضت على مصر تعويضا قدره نصف مليون من الجنيهات وسحبت وحدات الجيش المصرى من السودان ··· » ·

« ان بريطانيا توسلت بالدعاية والبطش لاسكات جميع السودانيين الذين ينادون ببقاء وحدتهم مع مصر ·· منعت المحامين المصريين من الدفاع عنهم أو دخولهم السودان وقيدت الرأى العام وخنقت الصحافة السودانية وراقبت الصحافة المصرية لدى دخولها السودان وأبعدت المصريين تدريجيا ·· وواصلت التصريحات بالحط من قدر مصر والمصريين » ·

« وحاولوا تقسيم السودان ذاته بفصل جنوبه عن شماله ان محاولات انجلترا لاخفاء اقذار الاستعمار بألوان الطلاء كشفتها أحداث التاريخ ودراسات الثقاة من المؤرخين ·· » ·

واختتم النقراشى باشا خطابه بمجلس الامن ـ والدموع

بعينيه (١٣٩) ـ قائلا « لن نتخلى عن السودانيين وسنعمل كل ما فى وسعنا لحمايتهم من عدوان استعمار اجنبى غريب · ولن نتركهم يفقدون شخصيتهم · لن نقبل أية مســـاومة على مستقبل الشعب السودانى » (١٤٠) ·

ولكن مجلس الامن اخفق فى اصدار توصـــية فقـــرر الاحتفاظ بالنزاع على جدول اعمال المجلس ·

لم تفقد مصر الامل عندما واصل خشبة باشا مباحثاته مع كامبل فى مايو ١٩٤٨ ولكنه لم يوفق هو الآخر · كذا الحال مع دكتور محمد صلاح الدين باشـــا عامى ١٩٥٠ و ١٩٥١ عندما حاول مع بيفين مناقشة الموضـــوع · لقد اراد ان يزايد على ما وصل اليه (بيفين) مع صدقى باشا فى سـنة ١٩٤٦ ولكنه أخفق فقد بدا للانجليز انهم اعطوا صدقى اكثر مما كان ينبغى فتراجعوا بشتى الحجج ·

وكان مما قاله صلاح الدين جديدا فى مفاوضـــاته : « ان الامم تميل اليوم الى التكتل فيما بينها كما يحـدث فى اوروبا نفسها فلماذا تعمل الحكومة البريطانية على شـــطر الوطن المصرى السودانى الذى ظل موحدا من اقدم عصـور التاريخ ·· لقد شاهدت بنفسى كيف كان الوفد البريطـــانى فى هيئة الامم يبذل كل جهده لتحقيق وحـــدة اريتريا مع أثيوبيا تحت التاج الاثيوبى حتى تم ذلك أخيرا ·· فهل يمكن لأى منصف ان يقول بأن العلاقات التى تربط هذين البلدين تعادل العلاقات بين مصر والسودان » ·

ولما انتهت مفاوضات صلاح الدين بعـــد اكثر من عام الى

---

(١٣٩) عن وصف للمرحوم حمزة بدوى احد اعضاء الوفد ·

(١٤٠) تعمدت نقل عدة فقرات لاصلاح شبابنا (جيل ابنى) على نحـو خاص بمدى الحماس الذى كان يملأ صدور ابائه اذا برزت مشـــكلة السودان ·

الفشل نادى الســـودانين من منبر مجلس النواب المصرى فى ٦ أغسطس ١٩٥١ قائلا :

« ألا فيلزدد المواطنون فى جنوب الوادى ادراكا وانتباها لهذا الخطر الجسيم · وليوحدوا الصفوف لاتقائه وليجمعوا الرأى على ان تكون كلمتهم للانجليز اخرجوا انتم اولا واتركونا والمصريين نتفق على ترتيب بيتنا فى نجـــوة من الدخـــلاء الطامعين » ·

وبعد شهرين من هذا النداء صـــدر القـــانون رقم ١٧٥ لسنة ١٩٥١ بتاريخ ١٥ أكتوبر ١٩٥١ بانهاء العمل بأحكـــام المعاهدة المصرية الانجليزية الموقعة سنة ١٩٣٦ واتفاق الحكم الثنائى الموقع فى ١٩ يناير ١٨٩٩ ·

كان رئيس الوزراء وقتئذ مصطفى النحاس باشا ووزير الخارجية دكتور محمد صلاح الدين باشا · ومن العبارات المشهورة عن النحاس باشا أنه كان يقول « تقطع يدى ولايقطع السودان » ·

وفى اليوم التالى ١٦ أكتوبر ١٩٥١ صدر القانون رقم ١٧٦ لسنة ١٩٥١ بتعديل المادتين ١٥٩ ، ١٦٠ من الدستور بتقرير الوضع الدستورى للسودان وتعيين لقب الملك بالنص على انه « مع أن مصر والسودان وطن واحد يقرر نظـــام الحكم فى السودان بقانونٍ خاص · » ونص على أن يقلب الملك بلقب « ملك مصر والسودان ·

وفى اليوم التالى ١٧ أكتوبر ١٩٥١ صدر القانون رقم ١٧٧ لسنة ١٩٥١ لوضع دستور ونظام حكم خاص بالســـودان من من خمس مواد قضت بترتيب وضع دستور خاص للســـودان بمعرفة جمعية تأسيسية تمثل أهالى السودان وباقرار النظام الديموقراطى النيابى فى البلاد وباستقلال السلطة القضائية »

غير ان هذه الترتيبات لم تعمر طـويلا وان كانت هى التى رسمت كل خطوات الثورة المصرية عندما تصدت لمشـــكلة الســـودن ·

وفى هذا الصدد كتب الاستاذ دكتور بطرس غالى (الوزير الحالى للشئون الخارجية) سنة ١٩٦٤ فى كتابه عن منظمة الوحدة الافريقية انه لم يكن لمشروع الوفد أى اثر فعلى اذ صدر من جانب واحد ولم يؤخذ فيه رأى شعب السودان ولم توافق عليه انجلترا باعتبارها طرفا فى ادارة الســـــودان • فاذا استثنينا المحاولات التى بذلتها الدبلوماســـية المصرية لحمل الدول على الاعتراف بلقب ملك مصر والسودان (١٤١) لا تجد لهذا المشروع اى أثر فعلى او ترجمة للواقع • يضاف الى ذلك ان هذا المشروع الاتحادى كان يؤخذ عليه انه قائم على علاقة غير متكافئة بين البلدين مما جعل التجربة معيبة من اساسها •

وقد يقتضى منا تسلسل الاحداث ان نتعرض للسنة السابقة مباشرة على الثورة بعد سقوط وزارة الوفد اذ الملاحظ أنه رغم تعاقب عدة وزارات على مصر خلال هــذا العام فان الوضع بالسودان لم يكن محل اهتمــامها فى المركز الاول ربما لدقة الموقف السياسى الداخلى صمصر خلال هذه الفترة اللهم الاعلى يدى وزارتى على ماهر باشـــا وأحمد نجيب الهلالى باشا ـ الأول لاهتمامه الشخصى بالسودان ولسبق زيارته له وحسن علاقاته بالمهدية والختمية معا ، والثانى بمناسبة زيارة وفد سودانى من المهدية دعى لمصر على أساس ضرورة عـــدم اغفال المهدية وايجاد توازن فى علاقات مصر مع المهـــدية والختمية معا •

وقد ذكر لى حسن باشا يوسف نائب رئيس الديوان الملكى

---

(١٤١) ابتداء من ١٦ـ١٠ـ١٩٥١ كانت تصدر المراسيم بمصر باســم ملك مصر والسودان وقد استمر الوضع كذلك حتى ١٨ يونيو ١٩٥٣ عنـدما الغيت الملكية اذ ابتداء من هذا التاريخ صدرت المراسيم باســـم رئيس جمهورية مصر دون ذكر السودان حيث كان قد وقع فى ١٢ فبراير من نفس السنة اتفاق الحكم الذاتى وتقرير المصير بالسودان •

فى ذلك الوقت (١٤٢) عن اهتمامات على ماهر باشا الشخصية بالسودان أنه عندما فكر فى زيارة الســـودان فى سنة ١٩٤٠ ابلغ السير مايلز لامبسون السفير البريطـــــانى فطلب منه السفير ان يسافر الى السودان بوصفه ســـائحا فرفض على ماهر باشا رفضا قاطعا وتعمد على العكس عندما ســـافر ان يكون مصحوبا بشكل رسمى بوزيرى الحربية والمعارف ٠

ومن المعلوم ان دراسات على ماهر باشــــــا عن الوضع بالسودان كانت من الأســـس التى بنيت عليها مذكرة حكومة الثورة التى سلمت على يد اللواء محمد نجيب الى الحكومة البريطانية مستوحاة من الموقف الاخير لحكومة الوفد كمـــا سبق البيان.٠

***

وهكذا تطورت الأفكار بسرعة قبـل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى وجدت عندما اتجهت الى مشكلة السودان ، أن الأرضية صالحة ممهدة لحلها بعد أن زال تلقائيا آخر قيد على المشكلة : شرط التاج المصرى او التاج المشترك ٠

ومما يؤكد ان النظرة الجــــديدة للثورة لم تكن من فراغ ما كتبه مكرم عبيد باشا فى سنة ١٩٤٥ فى مقدمة كتاب للأستاذ جلال الدين الحمامصى عن الســـودان (١٤٣) . فقد قال قبل الثورة بسبع سنوات : « ولعل اخواننا السودانيين يعذروننا اذا كنا حتى الآن قد أغفلنا العناية بهم وبشئونهم فلقد أغفلنا من قبل العناية بأنفسنا ٠ ولم نحس نفوسنا حية فينا الا حينما

---

(١٤٢) فى حديث مؤخرا فى يناير ١٩٨٢ ٠

(١٤٣) ماذا فى السودان ـ جلال الدين الحمامصى ١٩٤٥ ٠ كان محور تفكير الكاتب القدير « فليكن اذن الاساس الاول لسياستنا الجديدة نحـــو السودان حكومة وشعبا ان نتناسى المبادىء العتيقة البالية وان نشعر هـذا الشعب الذى يتطلع الى مصر بقلب نابض بالحب اننا لا ننظر اليه نظـــرة صاحب الحق فى أرضه ووظائفه وقوته ٠

نهضنا نطالب بحـــرية بلادنا فأحسسنا أن لنا وطنا نحيا فيه ويحيينا . وكان طبيعيا ان يتجه شعورنا الوطنى بادىء الأمر الى وطننا الصغير ــ مصر ـ كما يتجه حب الفرد أولا لأسرته او القروى الى قريته . ثم تطـــورت بنا الوطنية وامتدت الى وطننا الكبير ــ وادى النيل ـ فاذا بنا نحب السودان للسودان بعد ان كنا نحب السودان لمصر » .

دفع كل ذلك وعى الشعب السودانى الذى أخذ يعلو صياحه خلال الفترة الأخيرة تحت تأثير اتجاهات العصر فى التحرر والتحرير ومكافحة الاستعمار مدفوعا بتفاعلات علاقاته بمصر قديما وحديثا ـ دفع كل ذلك وعى الشعب السودانى الى مطالبة الثورة المصرية بردود فعل سريعة ايجابية .

★★★

تضمنت مذكرة الثورة التى تقدمت بها فى ٢ نوفمبر ١٩٥٢ الى الحكومة البريطـــانية النص الصريح على « ان الحكومة المصرية تؤمن ايمانا وطيدا بحق السودانيين فى تقرير مصيرهم وفى ممارستهم له ممارسة فعلية وانها لذلك تبدأ فـــورا فى تمكينهم من ممارسة الحكم الذاتى الكامل وتهيئة الجو المحايد الذى لابد من توافره لتقرير المصير » .

واقترحت عدة ترتيبات لبلوغ هذه الغاية .

وفى يناير ١٩٥٣ سافر المرحوم الصاغ صـــلاح سالم الى السودان شماله وجنوبه واجتمع مع جميع ممثلى الاحـــزاب (حزب الأمة والحزب الجمهورى الاشتراكى والحزب الوطنى الاتحادى والحزب الوطنى) .

ولأول مرة فى تاريخ السودان تتفق كلمة الجميع مع مصر فى وثيقة موقعة منهم فى ١٠ يناير ١٩٥٣ على الترتيبات التى

اقترحتها مصر لتمكين الســـودان من الحكم الذاتى وتهيئته لتقرير المصير ٠

فوجئت بريطانيا واصـــــاب تفكيرها الشلل حيث سحب السودانيون أنفسهم الذين كانت تحتج دائما بهم ـ البساط من تحت قدميها ٠

هالها ما حدث فادعت حانقة فاغــــرة الفاه عندما رأت من بزها قائلة « ان مصر امطرت الســــــودانيين بالذهب وان الكولونيل صلاح سالم رقص عاريا مع قبائل الجنوب فاستهوى الشماليين وجـــذب الجنوبيين » ويا ليتها صمتت عن السب والتسفيه للسودان باقليميه شمالا وجنوبا ٠

★★★

سارت مصر فى طـــريقها وبدأ محمد نجيب يتفاوض من مركز القوة وبالروح العملية الجـــديدة المتطورة مع بريطانيا على هذا الاساس الجديد للحكم الذاتى وتقرير المصير وقـــد انتهت المفاوضات سريعا الى اتفاق وقعه محمد نجيب عن مصر فى ١٢ فبراير ١٩٥٣ قبل عشرين شهرا من توقيع الجلاء عن مصر نفسها (١٤٤) ٠

وبعد الســـــنوات الثلاث لفترة الانتقال أعلن السودان استقلاله فى رأس السنة فى اول يناير ١٩٥٦ ٠

★★★

اننى عندما قلت ان مصر قدمت الاســـتقلال للسودان على طبق من فضة فى مكان سابق من هذا الكتاب لم أقصـــد المن أو الزهو . فان مصر التى اندمجت بالسودان فى مطلع التاريخ

---

(١٤٤) وقع فى ١٩ اكتوبر ١٩٥٤ على يد الزعيم الراحل جمال عبدالناصر بعد ٧٢ سنة من الاحتلال البريطانى ٠

الحديث ، وقدمت اليه كل ما قدمته لنفسها تحت الحكم الثنائى وقبله على الرغم من كل الاسلاك الشائكة التى بثها الانجليز، وغذت حركاته الوطنية على الرغم من ظروفها تحت الاحتلال ثم الحماية لايمكن أن تمن أو تفاخر ٠

ان ما فعلته الثورة لم يكن الا رد فعل مصرى لفعل سودانى أو بالعكس التقيا لدحر العدو المشترك ولفظ الجسم الغريب ٠

ولاتزال مصر تمد يدها للسودان المستقل لأن ما بيننا أكبر من ان يقال عنه « أخذنا أو أعطينا » ، فقد عشنا وسنعيش معا ابدا تحت سقف واحد رضينا أم أبينا ٠

راح ماراح وجمعتنا من جديد (الكسرة والملاح) ، وسوف تجمعنا ما بقى الوادى وجرى النيل فى كل الأوقات ٠



١٢
كلمات متقاطعة

بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أصبح الوضــع فى مصر مختلفا تمام الاختلاف فقد بدأت نظرة جديدة الى (مشــكلة السودان) • واجه الثائرون منطق الانجليز بمنطق مضاد • رأوا ان ادعاءات الانجليز الخادعة فى ضرورة اعطــاء السودانيين حق تقرير مصير هم بأنفسهم فيمــا اذا كانوا يريدون الوحدة مع مصر أو الاستقلال لا يمــكن أن تدحض الا باعطاء السودان هذا الحق فعلا عن أخلاص وصدق وكان الامل دائما يراود المصريين والسودانيين أنهم باتحادهم يمكن أن يشكلوا أقوى دولة بالقارة بعد اتحاد جنوب افريقيا •

بهذه الروح والايمان الجاد بمصلحة السودان ورغبــة أهله تم الوصول فى ١٩٥٣ ـ كما سبق البيان ـ الى الاتفاق الذى رتب للسودان حكما ذاتيا مارس السودان بموجبه حق تقرير مصيره بنفسه • وقد وصف هذا الاتفاق وقتئذ بشهادة بلوغ سن الرشد •

★★★

على أثر هذا الاتفاق أجريت الانتخابات العامة فى نوفمبر ١٩٥٣ لاول برلمان شامل فى السودان وقد حصل فى هــذه الانتخابات حزب الاشقاء الذى تغير اسمه الى الحزب الوطنى

الاتحادى برئاسة السيد اسماعيل الازهرى على أغلبيـــــة واضحة · الامـــــر الذى دعا انجلترا الى أن تهرع اليه على الفور لاستقطابه بمختلف الوسائل وكان أول ما فعلته أن دعته فى سنة ١٩٥٤ الى لندن ليستقبله تشرشل وليحظى ـ كمـــا أفهم بانها عملية استثنائية ـ بمقابلة الملكة ·

ولكن القوى الحزبية الاخـرى ـ كما سجلت الاحـــداث خلال فترة الانتقال ـ أخذت تسعى للحكم بمختلف الوســائل فأثارت الاضرابات والفتن واستمر الوضع كذلك حتى حصل السودان فى أول يناير ١٩٥٦ على الاستقلال وســـط خلافات حزبية وظروف اقتصادية واجتماعية بلغت فى حد ذاتها درجة الازمة ·

وقد كان من انجازات برلمان فترة الانتقال الانتهـــاء من اصدار الدستور المؤقت فى جلسته فى ٣١ ديســمبر ١٩٥٥ قبل اعلان الاستقلال بيوم واحد · وقد قضى الدستور المؤقت بانشاء مجلس للسيادة من خمسة أشخاص يرأسه رئيس من بين أعضائه دوريا كل شهر · كما أقر البرلمان فى هــــذه الجلسة العلم السودانى الجديد الذى خلا عن عمد من الوان العلم المصرى حيث تقرر أن يكـــون من الازرق والاصـــفر والاخضر (تعدل ذلك بعد ثورة نميرى حيث اصبح العلـــم السودانى فى الوانه وتصميمه مثل العلم المصرى مضـــافا اليه مثلث أخضر قاعدته توازى السارى · كذا تعدل الخرتيت رمز السودان ليصبح النسر واسم الدولة ليصبح بعد ان كان جمهورية السودان جمهورية السودان الديموقراطية ·)

وقد اقتضت عملية اصدار عملة نقدية ســودانية لــدى الاستقلال تعـــويض مصر للسودان بعشرين مليو جنيهـا استمرت مصر على ادائها طواعية وهى تعانى أقسى ظروف العدوان الثلاثى والحصار الاقتصادى وتجميد أرصدتها ووقف الملاحة بقناة السويس ·

بالعودة الى بدء الاستقلال نجد أن السودان قد بدأ عهد التيه السياسي كما وصف هذا العهد بعض الكتاب ، حيث أخذت الزعامات الدينية لطائفتى المهدية والختمية تتسلط على الحياة السياسية مما تعددت معه التغيرات الوزارية التى بلغت فى الثلاث سنوات الاولى بعد الاستقلال سبع حكومات ضمت مائة وستين وزيرا ينتمون الى احزاب مختلفة ٠

لقد خابت آمال مصر بطبيعة الحال ازاء هذا التيه وانهارت أمانيها فى السودان الذى توقعت منه على أساس نظرتها الجديدة وسعيها اليه سعيدة بخلو الطريق الا منه ومنها ــ التقارب الحميم لا هذا التضارب الذميم بين حكامه للابتعاد عنها ٠

خابت آمالها وزالت الفرحة من على وجهها منذ يوم الميلاد للاسف البالغ ٠

***

ولما عمت الفوضى البلاد بعد الاستقلال وانتشر الاضطراب والقلق عندما استشرى استهواء الحكم للنفوس واستبدت شهوته بالاحزاب . اضطر الجيش بقيادة الجنرال ابراهيم عبود باشا الى ان يتدخل بالانقلاب فى نوفمبر ١٩٥٨ بعد ثلاث سنوات تقريبا من اعلان الاستقلال ٠

وحل عبود البرلمان والغى الاحزاب فسقطت على يديه التجربة الديموقراطية (١٤٥) وأية تجربة !

وهكذا دخل السودان مرحلة جديدة من الحكم العسكرى لم يسجل التاريخ لها الا الوصف بمرحلة التمزق الداخلى ٠

وكما كان جوردون ليس بأحسن من بيكر لم يكن عبود بأحسن من الازهرى ٠

---

(١٤٥) يراجع المؤلف النفيس لرئيس الوزراء السابق المرحوم محمد احمد محجوب بالانجليزية عن محنة الديموقراطية فى العالم العربى والافريقى ١٩٧٤ ٠

وكما حدث للازهرى حدث لعبود فقد ثار الشعب فى ٢١ اكتوبر ١٩٦٤ هاتفا زاحفا « الى القصر حتى النصر » • ولعله يجدر بالذكر هنا ان الملازم جعفر نميرى كان من اكثر المتظاهرين حماسا فى صفوف الشعب فى هذا الوقت • وقد اضطر عبود باشا ازاء هذه الثورة الى حسم الموقف بالتنحى لاسماعيل الازهرى الذى عين رئيسا للجمهورية ابتداء من ١٠ يونيو ١٩٦٤ •

وأخذ اسماعيل الازهرى يعالج الامور محاولا الاصلاح ولكن الوضع كان أسوأ من أن يعالج سريعا فبدأت محاولاته بتغيير الوزارات الواحدة تلو الاخرى الى ان ظهر بالسودان تيار جديد أخذ يتبلور تحت اسم الحزب الاشتراكى مناديا بخط جديد على أساس اندماج السودان فى كيان الامة العربية ومحاربة الرجعية والاستعمار •• الخ فقد كانت النفوس بالسودان تغلى وقتئذ على حرارة الاحداث بمصر •

واستمر الوضع بين شد وجذب على هذا النحو القديم مصطدما بالتيار الجديد الى أن قام ضباط الجيش مرة أخرى فى ٢٥ مايو ١٩٦٩ مع أعضاء الحزب الشيوعى السودانى بثورة عنيفة هدفها هذه المرة كان الاستيلاء على الحكم • فأقصت الازهرى وتولى عدد من الضباط ادارة البلاد (على النمط الناصرى) عن طريق مجلس ثورى من عشرة ضباط برئاسة البكباشى جعفر نميرى الذى وصفه الناس فى السودان وقتئذ بفتى السودان • (١٤٦) •

---

(١٤٦) قامت الثورة الليبية بزعامة معمر القذافى فى أول سبتمبر ١٩٦٩ بعد ثلاثة شهور من ثورة نميرى الامر الذى دعاه وقتذ الى وصف الثورة الليبية بالثورة الاخت • ويحكى ان الرئيس نميرى فى احدى المناسبات فى بداية الثورة حاول ان يبصر القذافى بتجاربه الثورية ولكن القذافى لم يرتح لذلك وقال لنميرى كيف يمكن ان تعلمنا ؟ ان ثلاثة شهور اقدمية لم تقنع القذافى بحق النصح •

وبثورة الرئيس جعفر نميرى فى ٢٥ مايو ١٩٦٩ دخل السودان مرحلة جديدة هى مرحلته الحالية ٠

وفى عام ١٩٧٣ صدر الدستور الدائم لجمهورية السودان الديموقراطية (١٤٧) وكان من سماته الاولى قيام الجمهورية على اساس تحالف قوى الشعب العاملة المتمثلة فى الزراع والعمال والمثقفين والرأسماليين الوطنيين والجنود وفق ميثاق العمل الوطنى ٠ وقرر الدستور ان الاتحاد الاشتراكى السودانى هى التنظيم السياسى الوحيد (١٤٨) ٠

كذا تضمن الدستور احكام اتفاق الوحدة مع الجنوب المعروف باتفاق أديس أبابا الموقع فى ابريل ١٩٧٢ حيث نص الدستور على اعتبار نظام الحكم الذاتى الاقليمى فى الأقليم الجنوبى على اساس السودان الموحد وفقا لقانون الحكم الذاتى الاقليمى للمديريات الجنوبية لسنة ١٩٧٢ قانونا أساسيا لا يجوز تعديله الا وفقا لنصوص الدستور ٠

***

عرفت الرئيس نميرى شخصيا عن قرب (بحكم الوظيفة) وحاولت بكل ما أوتيت ان أقف على اتجاه سياسته بالداخل أو بالخارج وأدرس فكره ازاء مصر بالذات ولكنى أعترف بعد خمس سنوات انى لم أصل الى تحديد ارتاح اليه ٠

ان الرئيس نميرى ـ وأدعو من أجل السودان أن يوفقه الله ـ عرف كيف يوفق على الرغم من انواء السودان الفوقية والتحتية فى أن يسير بالسودان منذ ثورته حتى اليوم ، مدة

---

(١٤٧) صدر فى ١٤ ابريل ١٩٧٣ وعدل فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٥ فيما يتعلق بالمواد الخاصة بحرية الاقامة والتنقل وحالات الاعتقال وسلطات رئيس الجمهورية من حيث اتخاذ قرارات لحفظ الامن ٠

(١٤٨) أسس الرئيس نميرى الاتحاد الاشتراكى فى اكتوبر ١٩٧١ ٠

ثلاثة عشرة سنة ، فى سلام واستقرار لم يعرفهما السودان منذ اعلان استقلاله ٠

استلهم الرئيس نميرى من مصر فى بداية عهده أسلوب الحكم فالغى الاحزاب والوائف ليسكبها كلها - من قبيل الامتصاص - فى بوتقة الاتحاد الاشتراكى ٠ وانتهج النهج السائد وقتئذ حتى كاد ان يكون السودان فى وقت من الاوقات الطبعة السودانية لمصر ٠

وقد كان الرئيس نميرى فى انتهاجه هذا النهج واعيا بقدر مصر ووزنها تحت حكم جمال عبد الناصر ٠ ثم كانت ذكرى زيارة جمال عبد الناصر للخرطوم للمشاركة فى مؤتمر القمة العربى فى سنة ١٩٦٧ (١٤٩) مازالت تملأ خاطره عندما بدأ ثورته ٠

فلم تستقبل الخرطوم زعيما فى تاريخ السودان قاطبة حتى اليوم كما استقبلت الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ٠ لقد كان الشعب السودانى كله - كما قيل لى - يبدو وكأنه مجتمع فى الخرطوم لتحيته ٠

ان هذا الشعور الذى شارك فيه الرئيس نميرى قبل ان

---

(١٤٩) وهو المعروف بمؤتمر اللاءات عقد خلال الفترة من ١٩ الى ٢٩ اغسطس ١٩٦٧ ٠ وقد جاء فى قراراته « الاولوية للوسائل السياسية فى النضال من اجل حمل اسرائيل على الانسحاب من الاراضى المحتلة ٠ غير انه نص فى ختام هذه القرارات على أن الدول العربية :

١ - لن تعترف باسرائيل ٠

٢ - لن تجرى مفاوضات ٠

٣ - لن تعقد صلحا معها ٠

٤ - لن تتخلى عن حقوق الشعب الفلسطينى ٠

ولعلنا نذكر انه فى هذا المؤتمر تقرر تعويض مصر (كذا الاردن) عن خسائرها فى حرب ٦٧ بفضل مبادرة الملك فيصل ٠ وقد قدر مجموع ما تقرر لمصر مائة مليون جنيها سنويا ٠

بالاسلوب الناصرى نفسه عندما تولى الحكم فقد كان فكـــر يتولى الحكم دفعة تلقائيا الى السلوك الناصرى نفسه والتفكير ناصر مصدر الهامه وأساس منهجه ٠

لقد اعترف الرئيس نميرى بمعاونة الحزب الشـــــيوعى السودانى الذى كان وقتئذ محدود العدد ولكنه جم النشــاط ، فـــين فى اول حكومة له بعض أعضـــــائه كذا بمجلس قيادة الثورة وعين السكرتير الاول للحزب أحمد سليمان ســــفيرا للسودان بموسكو لدعم العلاقات وكانت مصر لدى صـــعاب التمويل والتسليح خير وسيط بين السودان والاتحــــــاد السوفيتى فى كثير من الاحيان كما كان يقول (السفير)القدير أحمد سليمان ٠ واستمر الوضع كذلك لمدة ســـنتين ٠ وكان يمكن ان يستمر طويلا ٠

ولكن يبدو أن الشيوعيين تسرعوا أو أخطئوا التقدير فقــد ظنوا فى ١٩ يوليو ١٩٧١ أن الوقت قد حان لقلب نمـــيرى وتولى الحكم فثاروا عليه بغتة واعتقلود ولكنه افلـــح فى الافلات من قبضتهم ليمسك بزمام الحكم من جديد ٠

فى الحق أن العودة الى الوراء ، الى الاحداث المحيطـــة بهذه الفترة قد توحى بأن الخطأ فى توقيت الثائرين الشيوعيين لم يكن وحده المسئول عن فشلهم ٠

والقصة جديرة بأن تروى (١٥٠) فقد حدث عندما استولى عدد من الثائرين برئاسة هاشم العطا فى ١٩ يوليـو ١٩٧١ على مركز قيادة الجيش واعتقلوا الرئيس نميرى أن علم بذلك كل من بابكر النور (رشحته الثورة لرئاسة الجمهـــورية) وعثمان حمد الله وكانا فى لندن وقتئذ فهرعا الى أول طائرة بريطانية متجهة للخرطوم غير انهما قد احتجزا باحتجـــاز

---

(١٥٠) « الطريق الى رمضان » و « ابو الهول والقوميسير »للاستاذ الكبير محمد حسنين هيكل و « محنة الديمقراطية » لمحمد أحمد محجوب ٠

الطائرة لدى طيرانها فى الاجواء الليبية بأمر من الـــــرئيس القذافى الذى لم يسمح للطائرة أو لهما بمعنى أصح بمواصلة السفر الا بعد ان علم ان الرئيس نميرى قد أفلت من قبضـــــة الثائرين وتمكن من الاجهاز على حركتهم ، مما مكـــــنه من اعتقالهما لدى وصول الطائرة الى الخرطوم لتنفيذ حكـــــم الاعدام فيهما مع هاشم العطا واخرين من القيادات الشيوعية (شفيع احمد الشيخ وعبد الخالق محجوب) بعد محاكمـــــة عاجلة (١٥) ٠

لقد قضى هذا الاعدام الجماعى على أول تجمع شـــيوعى منظم أصيل فى العالم العربى أو الثانى بعد العراق على رأى٠

***

بطبيعة الحال كان رد الفعل من جانب الرئيس نميرى فى هذا الوقت ٠ ان يقلب ظهر المجن لمن تبقى من الشيوعـــيين أو من يحتمل ظهوره منهم ، كذا للاتحاد السوفيتى ٠

وقد كان موقف ليبيا والمتغيرات التى طرأت على مصر على يد الرئيس الراحل السادات الذى عارض على الفـــور ثورة هاشم العطار (١٥٢) من أقول الدوافــــع التى يسرى على الرئيس نميرى التخلص من الحركة الشيوعية ومن ثمة التحول عن الاتحاد السوفيتى فى سياسته الخارجية ٠

وقد عرض الرئيس نميرى لموقف مصر من هــــذه المؤامرة

(١٥١) لايزال التساؤل قائما كيف عرف الرئيس القذافى عن هذه الطائرة وركابها وموعد عبورها للاجواء الليبية ؟

(١٥٢) محنة الديمقراطية فى السودان لمحمد محجوب وعن هذه الابادة الجماعية للزعماء الشيوعيين بالسودان بدا من تعليق الاستاذ محمد حسنين هيكل وقتئذ انه عارض المذبحة ولكنه تساهل فى القول لدى نقد الــــرئيس نميرى واعاب على السودانيين حركتهم ولكنه فى نفس الوقت حذر الاتحاد السوفيتى ٠ (وثائق القاهرة للاستاذ هيكل) ٠

الشيوعية بقوله أنه بعد ساعات من بدء المؤامرة هبطت طائرة مصرية خاصة فى مطار الخرطوم لم يكن بها الا راكبين نقــلا رسالة شفوية من السادات الى المتامرين مؤداها أن أمــن السودان هو أمن مصر وأن مصر تعنى ما تقول فى هذا الشأن ولا تتلاعب وأن الرئيس السادات يتحمل مسئولية شخصـية بالنسبة لحياة الرئيس نميرى وزملائه · وفى نفس الـوقت قابل خالد حسن عباس أحد أعضاء مجلس الثورة القــدامى وكان وقتئذ بمصر فى مهمة ــ قابل الرئيس السادات ليعلم منه انه يرى أن الجبهة المفتوحة حاليا فى السودان ليست أقــل خطرا من الجبهة المتفجرة على ضفة قناة السويس وانه على استعداد · ولم يكن رد الرئيس السادات على السوفيت الذين عبروا عن غضبهم لموقفه الا رده عليهم : « ان فى السودان أهلى · »

***

واصل الرئيس نميرى بعد ذلك مسيرة التقدم بالسـودان على منهج جديد اساسه اتفاق الوحدة مع الجنوب وحســن الجوار مع الدول المحيطة بالسودان والتعاون مـــع مصر اقتصاديا من خلال جهاز للتكامل اتفق على أن يمتد نشاطه الى جميع نواحى الحياة فى البلدين ·

***

بطبيعة الاحوال لم يسلم الرئيس نميرى من معارضــة الانصار منذ ضربته لهم الضربة القاسمة فى مارس سنة ١٩٧٠ عندما ثاروا ضده بجزيرة أبا وقتل نتيجة اخماد ثورتهم الامام الهادى (أو فر هائما على وجهه الى أن مات) · كــذلك لم يسلم من معارضة الاخوان المسلمين الذين تشــتتوا عقب الثورة · فقد تجمع زعماؤهم (أنصارا واخوانا) واخــذوا يقودون من خارج السودان عن طريق أتباعهم الحمـــلات الدعائية المستمرة مدبرين للسودان كل المكــائد الممكنة التى كان اخرها محاولة الانصار قلب نظام الحكم فى ٢ يوليــو

١٩٧٦ تحت قيادة الكولونيل حسن حسين وهى المحاولة التى سميت وقتئذ بالمغزو الليبى على اعتبار ان القائمين بها قدموا أساسا من ليبيا أو كانوا مسلحين بعتاد ومزودين بأمـــوال ليبية ٠

وهكذا رأينا ثورتين ضد الرئيس نميرى فى بحـــر خمس سنوات : الاولى أحبطتها ليبيا والثانية أشعلتها ليبيا ٠

ولقد راح ضحية هذه المحاولة الثانية من جانب الحكوميين وأسرهم ومن جانب الانصار أو أصحاب الجلاليب البيضـاء كما يطلق عليهم وكما بدوا فى شوارع الخرطوم اثناء ثورتهم المئات من القتلى وأصابنا نحن المصريون قتل أحد أبنـــاء العاملين بالسفارة اصابة الملحق العسكرى وسائق سيارته بجراح بالغة ٠

لقد هبت مصر على الفور ازاء هذه المحاولة ، أقامت جسرا جويا جسورا حمل الجنود السودانيين بعتادهم الذى كانـوا يحملونه على ضفة القناة الى الخرطوم ، ودارت الاتصالات منذ الساعات الاولى للثورة تحت وابل المدافع ورصـــاص الثائرين بينى كسفير لمصر ووزير الثقافة والاعلام بونا ملوال الذى لم يكن من المسئولين الاه لمواجهة الموقف فى ســاعاته الاولى ، واستطاع السودان أن يقهر محنته فقد كانت استجابة مصر أكثر من فورية حتى كدت أشعر أحيـــانا كأن الرئيس الراحل السادات نفسه هو الذى على الخط الاخر من لاسلكى السفارة للاستجابات السريعة وردود الفعل الانية لكل سؤال أو مطلب سودانى ٠ لقد كانت الرسائل المتبادلة بين الرئيس الراحل السادات والرئيس نميرى واذاعة ركن السودان التى وجهت موجاتها على الفور الى الســودان بديلا عن اذاعة ام درمان التى عطلت ـ كان لهذا كله اكبر دور فى قمع الثورة فى أيامها الثلاثة الاولى واستعادة الرئيس نميرى لسـلطته نشطا على السطح بعد أن كانت اتصالاتنا تدور معه فى البداية عن

طريق طرف ثالث كان فى الايام الاولى بونا ملوال ثم أصبح محمد الباقر نائب رئيس الجمهورية ٠

وأملى كبير أن أتمكن من سرد تفاصيل هذه الفترة والجهد المخلص الذى بذله الوزير بونا ملوال لانقاذ الموقف فى الكتاب الذى أعده للعام المقبل ان شاء الله تحت عنوان « حكايات من مفكرتى » (١٥٣) ٠

***

لقد وفق الله الرئيس نميرى فى قمع هذه المحاولة من جانب الانصار ، والتى سبقتها من جانب الشيوعيين لقلب نظام الحكم وصمد قويا ازاء مشروعات أخرى لمحاولات عارضة قضى عليها على الفور ٠

على أنه لما سئم هذا الجهد المعرقل لمسيرة التنمية قرر التفاوض مع العناصر المعارضة (الانصار والاخوان وأتباع الشريف الهندى) وقد أفلحت مثابرته فى مفاوضتهم عندما توصل فى ١٢ ابريل ١٩٧٨ الى مهادنتهم أو كما وصف الاتفاق معهم فى لذن الى مصالحتهم ، عملا بالحكمة القائلة « ٠٠٠ آخاهم ان لم تستطع ضربهم ٠٠٠٠»

***

بدأ الرئيس نميرى بهذه المصالحة حقبة جديدة سجلت للسودان لاول مرة بعد الاستقلال وحدة وطنية شملت جميع أبنائه فقد عاد السيد الصادق المهدى زعيم الانصار الى

---

(١٥٣) ومن مذكرات الرئيس نميرى عن هذا الغزو الليبى قوله انه خلال ساعات منذ بدء المؤامرة تم الاتصال بينه وبين الرئيس السادات وان هذا الاتصال قد استمر طوال الازمة الى ان سافر الى الاسكندرية بعد سيطرته على الموقف لمقابلة السادات الذى ابتدره قائلا : « ان تقارير سفيرى فى الخرطوم حملت الينا تفاصيل مذهلة ٠٠ لم يكن المطار مؤمنا ٠٠ لم تكن هناك حراسة كافية ٠٠ كانت المعلومات متوافرة عن احداث متوقعة ٠٠ المهم حمدا لله على السلامة ٠ »

الخرطوم من ليبيا ليكون عضو بالمكتب السياسى للاتحاد الاشتراكى ، كذا عاد السيد حسن الترابى مرشد الاخوان المسلمين ليكون عضوا بالمكتب ايضا ونائبا عاما بحكومة السودان (وهو ما يعادل بالسودان وزير العدل) .

أما رجال الختمية فعلى الرغم من أنهم لم يكونوا ابدا مصدر شغب للحاكم الا أنهم عوملوا نفس المعاملة تطبيقا لمبدأ المعاملة بالمثل أو استلهاما من الشرط الشائع « شرط الدولة الافضل معاملة . »

على ان الوحيد الذى لم يتيسر للرئيس نميرى التصالح معه ـ وان أنجز القدر المهمة حيث توفى فى يناير الماضى ١٩٨٢ ـ كان السيد الشريف الهندى ابن السيد يوسف الهندى صاحب الطائفة الثالثة ذيوعا فى الفكر السياسى السودانى بعد المهدية والختمية . (١٥٤)

وقد كان فيما فعله الرئيس نميرى نتيجة لهذه المصالحة حلا اخر لمشكلة أخرى باتت تقض مضجعه مؤخرا وهى مشكلة احتكار ضباط الثورة للحكم رغم سبق حله للمجلس الثورى فى سنة ١٩٧٢ .

ولكن هل أمسك الرئيس نميرى بمصالحته مع المهدية الاسد من لبدته ، وهل ضمن سلامته منهم ؟

كذا الحال بمصالحته مع الاخوان المسلمين واحتوائهم مع الانصار من الداخل . هل أمن غضبتهم ؟

كذا الحال بمصالحته مع الاخوان المسلمين واحتوائهم مع الانصار من الداخل . هل أمن غضبتهم ؟

---

(١٥٤) كان يشغل منصب وزير المالية فى وزارة اسماعيل الازهرى التى اطاحت بها ثورة الرئيس نميرى فى الوقت الذى كاد ان يتولى فيه رئاسة مجلس الوزراء . هرب من السودان بعد الثورة مواصلا معارضة الرئيس نميرى فى مصر وليبيا والعراق واثيوبيا ثم اخيرا فى لندن حيث اخذ ينشر مجلة أسوعية باسم الدستور هدفها الاساسى كان معارضة الرئيس نميرى.

يقول بعض السودانيين ان الزمن وحده هو الكفيل بالرد على هذه الاسئلة وان كان الانسان لا يجب ان يطمع في صيد الاسد ان سلم منه يوما لسبب ما ·

ولعل أكثر ما يخشاه الناس فى المقام الاول بالنسبة للمصالحة سؤ الظن : ظن من جانب « بأن الذين يجاهرون بالمصالحة انما يسعون عبرها لتقويض اركان الحكم ، وظن من جانب آخر بأن النظام لا يسعى الا الى توازنات موقوتة يحقق بها كسبا موقوتا · (١٥٥)

***

بدأ الرئيس نميرى بعد مصالحته مع المعارضة يوجه كل جهود حكومته نحو المشاكل العديدة الاخرى التى تواجه السودان كدولة نامية واضعا فى حسبانه ان السودان بالذات له ظروفه الخاصة النابعة من تركيبه وتركيبته ـ كما سبق البيان ـ الامر الذى جعل اقتحام الرئيس نميرى لمشاكله ليس دائما طوع رغبته أو فى منال تمنيه ·

على ان الجهود اسمرت ـ مع ذلك ـ وكان أول ما اتجهت اليه بحث وسائل الانتفاع بمياه النيل ومشروعاته والاستفادة بمياه المطر وتوجيه مساراتها للزراعة أو للشرب ·

كذا كانت جهود التحديث فى كل مجالات الحياة بالقدر المتاح رغم الطموح بالنسبة للصناعات والزراعة والنقل والمواصلات والخدمات ·

وبالنسبة للنقل بالذات بوسائله البرية والنهرية والبحرية والجوية تكاثفت الجهود لاتساع رقعة السودان والاهمية الحيوية لربط انحائه للتعمير والاتجار ولم أطرافه اداريا وسياسيا ·

---

(١٥٥) دكتور منصور خالد ـ « لا خير فينا اذا لم نقلها » من سلسلة مقالات فى الايام السودانية ابتداء من ١١ مارس ١٩٨٠ ·

ويأمل السودان أن تسفر أبحاثه المتواصلة للكشف عن البترول عن سد احتياجاته للطاقة التى بات ــ يستحيل بدون الحصول عليها انتاجا أو شراء أن تخطو اية دولة ــ ولا سيما السودان لاتساع رقعته ــ أية خطوة على طريق التنمية ·

يسعى السودان للحاق بركب المدنية الحديثة · الاتجاه الى كل مكان محاولا استغلال كل طاقاته ، منفتحا فاتحا ذراعيه لاى استثمار · ولكن يبدو أن المشاكل أقوى من جهوده فضعف بنيته الاقتصادية المصابة بأنيميا مزمنه لا تعاونه على التقدم دون أن يتعثر ، لا يكاد يشرع فى بناء الا وتدكه معاول فقر الموارد المادية والبشرية فى كل ميدان فيخر مرهقا ·

وقد تقدم طابور المشاكل الداخلية شح البترول بعدم القدرة على استيراده وبالتالى أزمة الكهرباء بانقطاع الكهرباء والمياه والنقل والاختناقات فى المواد التموينية وبالتالى التذمر والضجر ·

ومما زاد الطين بلة والطنبور نغمة ــ كما يقولون فى السودان ــ ارتفاع الاسعار الى السماء بسبب التضخم المريع من جهة وارتفاع أسعار البترول على مستوى المقدرة الشرائية من جهة أخرى مما أدى الى انتشار الفساد نتيجة المعاناة وبات النفاق والرياء والوساطة والعمولة والتعامل فى السوق السوداء والاثراء السريع وغياب القدوة والمرشوة واستغلال النفوذ ــ كما هو الحال فى مصر مؤخرا ــ أبجدية لغة العيش لدى الناس مع أمية متفشية وطائفية بغيضة جرفت الكثيرين معها نحو التوافه والنوافل ·

وعن هذه المظاهر من الفساد قال دكتور منصور خالد وزير الخارجية السودانيةالاسبق ومن اذكىمفكرى السودان(١٥٦) « أنه ليس فى قضايا الوطن من سر فالازمة التى تمسكبخناق

---

(١٥٦) « لا خير فينا اذا لم نقلها » المرجع السابق ·

الناس والتى يحياها ويعايشها الناس فى المنزل والمتجـــــر والطريق والمدرسة والمستوصف وموقع العمل ٠٠ تدفع نفسها بالتساؤل من التصاقها بحياة الناس اليومية ٠ والحديث عن الفساد لا نقصد منه التشهير بقصد ما نقصد منه تحـــــليل ظاهرة لها انعكاساتها الاجتماعية الخطيرة وأخطر مافى تلك الظاهرة ليس هو حجم الفساد وانما هو التجاسر به ٠٠ وهو تجاسر كاد يصل الى حد الانتهاب حتى فى صغيرات الامور والنفس الشرهة دوما يضيق عنها كل متسع ٠٠ مما يتطلب ضرورة سن قوانين لتنقية الحياة السياسية لا عقابا للفاسدين وهم قلة وانما حماية للاطهار وهم كثرة ٠ »

وقد سبق للدكتور عون الشريف قاسم وزير الشئون الدينية السابق ومن أعلم علماء السودان (١٥٧) التعرض لموضوع مشاكل السودان أيضا فى كتابه القيم عن معركة التراث عندما قال « لقد الت أمورنا الى أيدينا ولكننا نعيش فى كثير مـــن جوانب حياتنا وكأننا ما نزال تحت وطأة عهود الظـــــلام البائدة ٠ ان الاوان آن لجمهرة المتعلمين والمثقفين لـكى يستعيدوا ثقة الشعب بهم بان يتحملوا مسئولية البنـــــاء والتطوير فى قوة وشجاعة بدل هذا التهالك المقـــيت عـــلى المناصب والتشبث بالالقاب ٠٠ فالسودان من الناحية البشرية بلد متعدد الولاءات من أقلية وعنصرية وطائفية وقبلـــية ٠٠ والسودان من الناحية الحضارية بلد موغل فى التخلف تبلـــغ أمية سكانه الثمانين فى المائة وتسكن غالبيته العـــظمى فى البوادى والقفار نهبا للعطش والجوع والفقـــر ٠٠ المجتمع السودانى الحديث غير موجود وهو لن يوجد قبـــل أن تزال أميته ولن يوجد قبل أن يستقر البدو والرحل وهو لن يوجـــد قبل ان تنتظمه كل وسائل الحياة الحديثة من مستشـــفيات

---

(١٥٧) « فى معركة التراث » ٠ الدار السودانية ١٩٧٢ ٠

ومدارس وغيرها من أدوات الحضارة وهذا يستغرق جهود الاجيال من الرجال والنساء فى هذا البلد الكبير . »

والمشاكل السياسية للسودان الحديث لا ترحم هى الاخرى فهى تحيط بمشاكله الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من كل جانب . فلايزال جنوب السودان ـ على الرغم من اتفاق الحكم الذاتى والوحدة ـ يشكل عبئا اقتصاديا بالغا على ميزانية الشمال . انه ينعم بثروة حيوانية لا حد لها ولكنها موقوفة لاسباب اقتصادية واجتماعية ودينية تأكل وتستهلك الجهد دون أن تعطى أو تفيد . يزخر بالاف اللاجئين من كل الاجناس لايعودون الى بلادهم ولا يعملون ، لا تسد حاجتهم بنود الميزانية الاستثنائية ولا أموال آلاغاثة الدولية . وقد نشرت هيئة الامم المتحدة لغوث اللاجئين فى يناير ١٩٨٢ بيانا نقلا عن المصادر الرسمية فى الحكومة السودانية جاء فيه أن عدد اللاجئين فى السودان يقرب من ٥١٥ الف شخص معظمهم فى الجنوب الشرقى من السودان وهم من أصل أثيوبى . وقال البيان ان تدفق اللاجئين القادمين من أوغندا الى جنوب السودان مازال مستمرا ويبلغ عددهم حاليا ٩٠ الف . وهناك خمسة الاف لاجىء من زائير فى الجنوب بالاضافة الى الاف لاجىء قادمين من تشاد .

ذلك كله بجانب صراع المسئولين فى الجنوب على السلطة من جانب وصراعهم مع المسئولين بالشمال من جانب اخر فلا يزال امام التالف الحميم وقت طويل .

والقول هنا يعلو بالتساؤل كيف يعقل أن يعايش الاسد الجمل بمجرد اتفاق ؟ وتتلاءم سبل الحياة فى الغاب مع سبل الحياة فى الصحراء نتيجة اجتماع بين الناس فى الاقليمين من وقت لآخر ؟

من الخطأ فعلا أن يستغرق الوهم المسئولين فى الاقليمين فيحسبوا ان اتفاق الوحدة مع الجنوب الذى وصفوه باتفاق السلام يمكن أن يكون نهاية الاحزان .

ان الجنوبيين يتطلعون الى أفريقيا أكثر من تطلعهم الى الشمال لا للاسباب العنصرية أو الدينية فقط ولكن للاعتبارات المعيشية فى الدرجة الاولى فهم أقرب الى كينيا وأوغندا من مراكز الامداد بالخرطوم · والخشية كل الخشية فى أن يعجز الشمال فى يوم من الايام عن سد احتياجات الجنوب التقصير فيها اذ عندئذ لا يكون هناك أمام الجنوب من مفر الا الاتجاه نحو كل مكان الا الشمال ، والخشية كل الخشية أيضا فيما لو تفجرت فى يوم من الايام قريبا ابار البترول التى يجرى التنقيب عنها الان فى أرض الاقليم الجنوبى أو على مقربة من داخل الحدود الادارية التى رسمتها حكومة الشمال للجنوب مؤخرا تحرزا واستشعارا · ثم أن الامر ليس بالبساطة التى قد تبدو فى الوقت الحاضر فان الجنوب بقوات الانيانيا (١٥٨) التى استمرت تشن حرب العصابات ضد جيش الشمال (المسلم) لمدة سبعة عشرة سنة قبل اتفاق الوحدة يحاول كل من الجنوبى والشمالى خلالها اصطياد الآخر - لا تزال تكمن فى نفوس قبائله - على الرغم من جو الهدنة الحالى - تفرقة دينية بغيضة بين المسيحى والمسلم ، يتحدث المسئولون الجنوبيون عنها بأنهم عندما وقعوا اتفاق الوحدة نسوا الحقد والكراهية وتنازل الشماليون عن الخيلاء والعناد ولكن الجيل الجديد - ان لم تبث فيه هذه الروح الحالية - فمن المستحيل ان نتوقعه فى المستقبل الا عائدا للقتال وبالتالى الى القبلية والانقسام من جديد · (١٥٩)

وقد بزغت فكرة تطبيق مبدأ اللامركزية فى الحكم على

---

(١٥٨) سميت منظمة الجنوبيين باسم منظمة الانيانيا نسبة الى حشرة سامة بهذا الاسم ·

(١٥٩) أنباء العالم الجديد للكاتب بيتر افرنجتون « بعد ثمانى سنوات بجنوب السودان » · المجلد ٢٩ عدد ١٤ فبراير ١٩٨١ ·

نطاق السودان كله بتقسيمه الى أقاليم متساوية فى الوضع مع الاقليم الجنوبى كوسيلة لنزع الفتيل من هذه القنبلة الزمنية على اعتبار ان تقسيم السودان كله اقاليم تتســــاوى فى نظام الحكم المحلى مع نظام الحكم المحلى فى الاقليم الجنوبى تنزع عنه الخاصية التى تميزه كاقليم منفرد قــائم بذاته ـ بجانب أن هذا التقسيم الى أقاليم يمكن ان يضـــعف دواعى الانفصال لدى الجنوب فيما لو ظهر بترول ـ والاحتمال قائم ـ فى احدى مناطقه لا سيما وأن هناك تفكير فى الوقت الحاضر فى تقسيم الاقليم الجنوبى نفسه الى عدة أقاليم ٠ (١٦٠)

★★★

تحارب الحكومة مشاكلها فى صبر وجلد مؤمنة بأن التعليم خير وسيلة للتغلب على كل الصعاب فتوسعت فى كل مراحل التعليم الفنى والعام وأخذت تنشىء الجامعات الاقليمية (فى جوبا والجزيرة) بجانب جامعة الخرطوم وجامعة أم درمان الاسلامية وجامعة القاهرة فرع الخرطوم ٠

على أنه فى وسط هذا الزحام من المشـــاكل ومحاولات الاصلاح فى كل جانب أخذت الصـــفوة من بين المثقفين تتفلسف كأن الكون بالسودان قد استوى حاله ولم يعـد له الا التلهى بالنقاش ٠ لقد ظهرت ـ مواكبة للمشاكل ـ عوارض فكرية عديدة ٠ رأينا من نادى (بالأصـــالة) حتى الوشم والشلوخ داعيا الى التحجر والجمود ومن لهث وراء (السلفية) بعثا للتراث أو تطويعا له ٠ ومن طلا الالحاد ونزعة الجنس بطلاء أسماه (الليبرالية) ومن نادى بالقديم ممزوجا بالجديد

---

(١٦٠) فى تصريح للرئيس نميرى عن الموقف فى جنوب السودان قال ان من يلعب على وتر جنوب السودان لا يستطيع ان يفعل شيئا فان ســت حكومات اقليمية فى السودان تحول دون اية اطماع صحيفة العـكاظ السعودية فى فبراير ١٩٨٢) ٠

معتقدا فيما أسماه (بالازدواجية) ومن استنكر جهد الفرد مدينا استغلال الانسان للانسان مؤمنا (بالجماعية) ومن رأى عودة الاسلام بحرفه ونصه كما نزل منذ اربعة عشر قرنا كسبيل للخلاص فى عصرنا الحاضر ناسيا أو متناسيا ان من عبقرية الاسلام روحه ويسره وانه قبل كل شىء ثورة اسلامية ٠

ومـــن رفض القــــديم أساسا مناديا (بالمعاصرة) ومـــن قرض الشعر على طريقة القوا فى الانجليزية من قبيل المعايشة الببغاوية ، ومن تعالى وناصب العـداء لورق الكربون تحت تعبير العودة الى الجـــذور ، ومن نفر من كل ما هو مصرى خشية (الذيلية) ٠

***

وقد لخص الرئيس نميرى المشاكل الاقتصــــادية الحادة التى واجهها السودان فى بدء ثورة مايو فى عبـــارة بليغة عندما قال :

« تركنا الاستعمار وغربنا سجين العطش وشــمالنا أسير الفقر ، وشرقنا رهين المجاعة ، وجنوبنا مخضب بالدم محكوم عليه بالتخلف » ٠

والسؤال الآن هل بعد ثلاث عشرة سنة من الثورة ، وست وعشرين سنة من الاستقلال وطرد المســـتعمر ؟ روى الغرب عطشه وقتل الشمال فقره . وقضى الشرق على جوعه وخطا الجنوب على تخلفه ؟

ثم هل استقرت الصفوة على حال ؟

***

واذا حاولنا استجلاء دوافع مختلف اتجاهات السـياسة الخارجية للسودان الحديث منذ الثورة . لرأينا (الحاجة) هى الجامع المشترك لكل دوافع هذه الاتجاهات ٠

ولعل تقاربه مع مصر حينا ومع ليبيا حينا آخــــر ثم مع السعودية عندما تتفر امامه المسالك لسبب أو لآخر مع مصر

أو ليبيا ، من أقرب الأمثلة الى الذهن فى وقتنا الحاضر لهذه المرونة السياسية وراء الحاجة · ولعل السودان فى علاقاته على هذا الأساس يأخذ بالحكمة القديمة « جـــــاور ملكا أو نهـــرا » (١٦١) ·

وقد يجدر بنا فى هذا المجال ان نذكر على سبيل المناسبة الاجتماع الثلاثى الذى عقد فى طرابلس فى ٢٧ ديســــمبر ١٩٦٩ للاتفاق على اتحاد ثلاثى بين مصر (عبد الناصر) والسودان (نميرى) وليبيا (القذافى) والاجتماع الثلاثى الآخر ـ من قبيل ضرب المثل على (المرونة) السياسة وراء الحاجة ـ الذى اجتمع فى الخرطوم بعد سبع ســـنوات فى ٢٧ فبراير ١٩٧٧ بين مصر (السادات) والسودان (نميرى) وسوريا (حافظ الأسد) للاتفاق على اتحاد ثلاثى آخر ·

كذا كان الحال مع دول الشرق والغرب والصين وأمريكا . صاغ السودان معها ويصوغ حاليا معها صداقاته على محاور المصلحة وقدر ما تحققه اتصالاته معها أو عن طريقهـــا تلبية حاجته ·

دعت هذه السياسة بطبيعة الحال الى بداية تطلع أجنبى الى السودان كشف عن وجود قبيحة هال أصـــحابها ما فى السودان من امكانيات المســـتقبل فطافوا حوله كالذئاب يمتصونه أو يكتشفونه من جديد على أحســـن الفروض كما قالوا بدون خجل ·

---

(١٦١) اعلنت الخرطوم فى فبراير ١٩٨٢ ان السعودية وافقت على تزويد السودان بمواد بترولية تكفى حاجة السودان لمدة ٣ شهور بلا مقابل لوضع حد للاختناقات البترولية التى اخذ يعانى منها السوادن منذ عدة شهور· كذا نشر فى فبراير ١٩٨٢ انه قد اتفق بين مصر السودان على ان تشحن مصر للسودان ١٥٠ الف طن من البترول المصرى الخام على ٣ شحنات وهو ما درجت على فعله مصر من وقت لاخر ·

على أن الامل فى أن السـودان الذى عايش تجـارب الاستعمار وعانى من مراميه واع لخطورة ما يفعلون مفتوح العينين حريص على قطع دابر أى اجنبى يشعر منه الامتداد فى أى مكان أو فى أى وقت ·

وقد كان للدكتور منصور خالد وزير خارجية السـودان الاسبق تعليق قديم على الوضع العام فى السودان قد لا يضير تكرره طالما أننا بسبيل تقييم هذا الوضع ولا سيما أن بعضه ـ على ما يبدو ـ لايزال قائم المضـمون (١٦٢) · جاء فى التعليق :

« لاشك فى ان الوضع فى السـودان فى حالة تدهور خصوصا الوضع الاقتصادى وهذا الامر تعترف به السلطة القائمة لكن الذى لا تعترف به السلطة أو تكاد توحى به هو ان معاناة السودان سببها كوارث طبيعية (السـيول ·· اللاجئين) اكثر منها أخطاء سياسية وهذا غير صحيح ·

فهناك سوء ادارة وفساد مسئولان عن هذا الانهيـار الاقتصادى · وهناك مكابرة أو اصرار على عـدم الاعتراف بهذا الانهيار » ·

« فى الواقع ان الامر يجب أن يسبقه الاعتراف بالانهيار الاقتصادى وتحديد مسئولية كل شخص بدلا من البحث عن كبش فداء · وأعتقد أن الحقائق يمكن ان تظهر اذا سـمح للمؤسسات القائمة بالتصرف بحرية ولكن هـذه المؤسسات مأساتها أنها اصبحت مؤسسات ورقية » ·

وعما اذا كان ارتباط السودان بمصر قد أثر على الواقع السودانى الحـالى يقـول دكتور خالد « لا أظن فموقف السودان من كامب ديفيد جاء نتيجة قرار فردى على مستوى

---

(١٦٢) مجلة الحوادث اللبنانية فى ٢٣ نوفمبر ١٩٧٨ من تعليق للدكتور منصور خالد على كتاب له عن أفريقيا نشر بامريكا بمعرفة المعهد القومى للعلوم ·

الرئاسة رغم مواقف سائر الاجهـــزة المعارضة لهذا الموقف فمثلا الصادق المهدى كان موقفه الاساسى حول كامب ديفيد ليس من ناحية تأييد أو رفض الاتفاق · انما الاهم بنظـــرة كيف يتخذ قرار بهذا الحجم ضد رغبة الاجهزة الســياسية التى تملك أن تصدر القرار » ·

***

ولعله يمكن ان يضـــاف الى ذلك ما جاءت به الانباء فى ٢٦ يناير ١٩٨٢ من أن الرئيس نميرى ـ ازاء المشاكل التى تعترض طريق الســودان فى الوقت الذى يجتاز فيه منعطا حيويا ـ قد أصدر قرارا بحل الاجهـــزة العليا للاتحـــاد الاشتراكى السودانى وتعيين لجنة شعبية من ٤١ عضــوا لمباشرة مهمة اعادة تنظيمها على كافة المســـتويات بغرض تمكين الشعب من المشاركة فى عملية ارســاء صرح الوطنية وتطبيق مبدأ المسئولية الجماعية ·

وقد أصدر الرئيس نميرى فى نفس اليــوم قرارا باعفاء الفريق أول عبد الماجد خليل النائب الاول لرئيس الجمهورية ووزير الدفاع والقائد العام للقوات المســـلحة من جميع مناصـــبه ·

وقد أعلنت وكالة الانباء السودانية بعد ذلك بيومين فى ٢٨ يناير ١٩٨٢ ان الرئيس نميرى قـــد أحال ٢٢ من كبار ضباط الجيش السودانى الى التقاعد ·

وفى اطار سلسلة هذه الاجراءات عقدت الدول التى تقدم مساعدات للسودان وهى الســـعودية والولايات المتحدة الامريكية والمانيا الغربية وفرنسا وهولندا وايطاليا واليابان بالاضافة الى صندوق النقد الدولى واللجنة التنفيذية للسوق الاوربية المشتركة اجتمـــاعا طارئا فى باريس لبحث الموقف المالى والاقتصادى فى السودان لتقديم معونة مالية عاجلة له قدرت بـ ٣٥٠ مليون دولار خلال عام ١٩٨٢ وقد قـــدرت ديون السودان فى سنة ١٩٨١ امام اعضـــاء هذا التجمع

الاقتصادى (ويطلق عليه نادى باريس الاقتصـــادى الدولى) بحوالى ١٣٠٠ مليون دولار ٠

وعلى سبيل اجراء عملية نقل دم فورية قدم صندوق النقد الدولى قرضا للسودان قيمته أكثر من مائتى مليـــون دولارا يبدأ استخدامه له خلال عام ١٩٨٢ ٠

صاحب هذه الاجراءات كذلك مقابلة فجائية بين الـرئيس نميرى والرئيس مبارك فى أسوان فى يناير ١٩٨٢ بعـــد أقل من شهر من لقاء سابق بينهما فى ديسمبر ١٩٨١ فى أســوان ايضا ٠ وقـــد قام نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية كمال حسن على بزيارة الخرطوم لعدة ســـــاعات فى وقت توسط لقـــائى القمة الســـابقين والمتوقع لقاءات اخرى قريبا ومتصلة بين الرئيسين فى الخرطوم والقاهرة على المـــدى المتبقى من عام ١٩٨٢ ٠

***

وكما ينص دستور السودان على أنه « جـــــزء من الكيان العربى الافريقى » فقد عاهد السودان القارة الافريقية وبصدق ـ وهو يمتد على حزامها القاصل بين شمالها العربى وجنوبها الافريقى ـ أن يوائم فى سياسته بين انتمائه العربى والتزامه الافريقى ٠

وفى بورصة السياسة الافريقية كان لهـــذه العملة ذات الوجهين أبواب صرف عديدة سجلت للسودان رصيدا ثمينا من الصداقات الدولية ٠ بل يمكن ان يقال ان السودان يمثل نقطة التقاء لعوالم ثلاثة : العربى والافريقى والاسلامى ٠

وقد حظيت شخصيا أثناء وجودى بالسودان بمتابعة زيارات رئيس زائير ورئيس فرنسا ورئيس الصومال ورئيس نيجيريا وأمير الكويت وياسر عرفات ورئيس السنجال سنجور ورئيس تايلاند ورئيس الهند ورئيس اليمن والملك خالد ٠

كما عقد بالخرطوم اجتماع الاتحاد الثلاثى بين الســودان ومصر وسوريا فى ٢٧ فبراير ١٩٧٧ بحضور الرؤساء نميرى والاسد والسادات ٠

واستضافت الخرطوم مؤتمر القمة الافريقى فى شهر يونيو من عام ١٩٧٨ ٠

أما زيارات الرئيس الراحل السادات والرئيس مبارك بشأن العلاقات الثنائية فقد كانت تتم ـ كما سـبق البيان فى مجال سابق ـ على مدار السنة وعلى نحو يكاد يكون دوريا (١٦٣)

★★★

وأدخر لكتاب آخر « حكـايات من مفكرتى » ذكرياتى مع اصدقائى من مفكرى السـودان واقتصادييه وعلمائه وكتابه وشعرائه وأدبائه وفنانيه وسـاسته فقد تعلمت وعلمت عنهم الكثير الذى أمسك عنه الآن ابقاء لمادة هذا الكتاب الجديد . واغراء لقارئه (١٦٤) ٠

---

(١٦٣) قد يجدر بنا ان نذكر للتسجيل من قبيل المقابلة زيارة محمد على باشا للخرطوم عقب الفتح فقد سافر من القاهرة فى ١٥ اكتـوبر ١٨٣٩ ووصل الخرطوم فى ٢٣ نوفمبر بعد شهر ونصف تقريبا ٠ كذا زيارة الخديوى عباس باشا حلمى الثانى للخرطوم فى ٣ ديسمبر ١٩٠١ ٠

ومن الزيارات الهامة فى العهد الحديث زيارة على ماهر باشا سنة ١٩٤٠ وزيارة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر فى ١٩٦٧ كما سبق البيان ٠

(١٦٤) أعد له وسيلة اغراء اخرى بتقديم اتطلع اليه بقلم الكاتب الكبير مصطفى امين ٠

١٣

هبة النيلين

عند التقاء النيل الابيض بالنيل الازرق أو لدى عناقهما بما عرف باسم المقرن كانت تقع قرية صغيرة (أو حلة) كما يقول السودانيون وجد المصريون لدى دخولهم السودان منذ مائة وستين سنة انها تصلح لان تكون عاصمة البلاد لموقعها المتوسط بقلب السودان فوق حزام المطر ٠

وتذكر بعض كتب التاريخ فى هذا الصدد « ان هذه القرية قد سميت بالخرطوم لانها تقع على لسان داخل بين النيلين يشبه خرطوم الفيل اتخذها عثمان بك أول ولاة الفتح مركزا عاما للسودان لحسن موقعها وقد بلغ عدد سكانها سنة ١٨٨٢ نحو ٧٠ ألف (١٦٥) من جميع أجناس السودان والاجانب من أفرنج ومصريين وسوريين وأحباش ويهود وغيرهم » ٠

ويصف نعوم شقير (١٦٦) الخرطوم القديمة بأسلوب واقعى لا يخلو من الشاعرية عندما يقول أن هذه القرية عندما

---

(١٦٥) يبلغ الان مع ام درمان والخرطوم بحرى مليون تقريبا بالنسبة لتعداد سكان السودان البالغ ١٨ مليون تقريبا ٠

(١٦٦) المرجع السابق ٠

أصبحت عاصمة البلاد انتشرت فيها « الابنية العظيمة المبنية بالحجر أو بالطوب والتى كان منها سراى حكمدار السودان التى أسسها مختار باشا تاسع ولاة السودان ودار الحكومة والاستبالية والاشوان (المخازن) والوكالات (المحال التجارية) والزوايا والقباب والمقامات وجامع بمأذنة عظيمة · ومدرسة لتعليم القرآن والعربية وكنيسة فخيمة متينة البناء للرسالة الكاثوليكية المصوية وترسانة لاصـــــلاح الوابورات وبناء المراكب تتخللها حدائق غناء من أشجار الفاكهة » ·

لقد ازدهرت الخرطوم فعلا أيام الفتح المصرى حتى أنهـا أضحت مركزا لتجارة السودان كله تجد فى اسواقها «جميع اصناف البضائع السودانية والافرنجية والحجازية والهندية والمصرية حتى جرى على الالسنة القول « ايش معـــدوم فى سوق الخرطوم » ·

واستمرت الخرطوم كزلك تزهو على كل انحاء الســودان الى ان سقطت على يد المهدى فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ فخربهـا هو والخليفة من بعده تخريبا ما من بعده تخريب (كمـــا قالوا) وبنيا بأخشابها مدينة أم درمان على الحافة الغربية لضلع المثلث الذى يرســمه التقاء النيلين (أو المقرن) لتكون عاصمة المهدية أو كما سماها المهدى « بقعة المهدى » ·

غير أنه عندما استردت القوات المصرية الانجلـــيزية الخرطوم فى سبتمبر سنة ١٨٩٨ عقب استرجاع ســـائر السودان ولدى بدء ما ســـمى بالفتح الثانى اخذ الميجور جنرال جينولد وينجت باشا (١٦٧) بعـــد أن تولى منصب

---

(١٦٧) كان يتولى من قبل مسئولية المخابرات الحربية البريطانية وعرف عنه العلم والمقدرة حتى لقب برب السيف والقلم · ومن مؤلفاته القيمـــة عن السودان كتاب « المهدية والسودان » ١٨٩١ وكتاب « عشر سنوات فى معسكر المهدى » ١٨٩٢ ·

سردار الجيش المصرى وحاكم السودان عقب لورد كيتشنر فى سنة ١٨٩٩ مهمة اعادة تنظيم المدينة وتوسيع نطاقها وقيل انه خطط شوارعها الجديدة على نحو تماثل مع تصميم خطوط العلم البريطانى • (١٦٨) وقد بدأت الخرطوم فى وقته أن تكون « من كبرى المدن مرة أخرى عامرة بالقصور الشامخة والابنية الفخيمة والثكنات الحصينة » • أقيمت فيها الاسواق التجارية ودور الحكومة الضخمة التى كان من أبرز مبانيها سراى الحاكم العام وقد قيل وقتئذ انها كانت تضاهى أجمل السرايات فى مصر ومقار الوزارات المختلفة ورئاسة الجيش ومدرسة جوردون والجامع واللوكاندة • »

وكانت اكبر الشوارع تحمل اسماء فيكتوريا ومحمد على والخديوى رعباس والسردار •• الخ •

وكان فى ابرز اماكن المدينة تمثال لكتشنر واخر لجوردون وقف فخورا بما فعل متطلعا بنظره الى الجنوب ، ولكن يبدو أن تدبيرات القدر كانت أقوى من تطلعاته فما نال السودان استقلاله سنة ١٩٥٦ الا وازيل هذا التمثال مع تمثال كتشنر واسماء فيكتوريا والسردار وكيتشنر التى كانت تحملها شوارع الخرطوم •

ومن الطريف قول الشاعر السودانى عزيز القوم فى هذا التمثال وصاحبه :

ترجل فهذا الجواد الاصيل
يود الصهيل ولا يصهل
فلس على ظهره فارس
من النيل فى درعه مثقل
أناخ اللجام على فكه
وناء بما يجد الكلكل

---

(١٦٨) قيل ان ذلك لم يكن الا لتسهيل مهمة المدفعية •

فلا أنت راكبـــــه فى الزحـــــام
ولا أنت فارســــــه المفضـــــــل
ترجـل وسر فى زحـام العبيـــــد
الى ســـــاحة عندهـــا تفتـــــل
تطــل على النيـــــل فى جرأة
كأنك مرســــــله المنعـــــم
كأنك فجــــرت ينبـــــــوعه
أو أنك حارســــــه القيـــــم
ترجل والا جـــرى محنقــــــا
وسال على شـــــــاطئيه الـــــدم
فما ألف الذل عـــــبر الدهـــور
ولا هـــــزه الارقـــم المعـــــلم

على أن موجة الاستقلال لم تبق فى فورتها كذلك عــــلى اسماء محمد على وعباس والخديوى ٠٠ الخ ٠ (١٦٩)

ولا أدرى لماذا كان يحضرنى دائما وصف عمرو بن العاص لمصر كلما كنت اروح واغدو بالمقرن (قارب مقر السفارة) فقد كنت دائما أرى هذه المنطقة وكأنها جزء من القاهرة الحديثة والقديمة معا ٠ وكانت تغمرنى مشاعر غريبة لا هى بالفـرح أو الحزن عندما كنت أرى النيل يفيض فى موسمه فى هـــذا المكان ويغيض ، يخفى الجزر فى مجراد عندمـــــا يفيض ويظهرها بارزة للعيان يجول فيها الناس عندما يغيض ٠ كانت هذه المشاعر دائما تهز كيانى وهى داخل نفسى تردد مع عمرو بن العاص « تربة غبراء وشجرة خضراء يخطر وسطها نهـــر

---

(١٦٩) لا يحمل اى شارع بالخرطوم اسما مصريا حتى اليوم رغـــم انه بالقاهرة شارع مصر والسودان وشارع السودان واكثر شارع باســـم على عبد اللطيف ٠ ولم أوفق بعد توقيع اتفاق التوامة بين القاهرة والخرطوم ان يطلق اسم مصر على الشارع الذى به دار السفارة لا سيما وانه لا يحمل الا رقما (٣٩) ٠

ميمون الغدوات مبارك الروحات يجرى بالزيادة والنقصان».

كنت بقدر ما اسعد عندما أرى النيل فى هـذا المكان يعلو وتفيض مياهه حمراء بلون الطوب هادرة مضطربة ، بقدر ما كنت أحزن لانحساره وشحوب لونه وانكسار حدته فى نفس المكان أيام (التحاريق) .

ان افتقادى لظاهرتى الفيضان والتحاريق بمصر بعـد السد العالى كان هو مصدر هـذه المشاعر الغريبـة فى نفسى . كنت دائما أتعجب بالمقرن (١٧٠) كيف يمكن للانسان بقدر ما تسعده الزيادة يفتقد أحيانا (النقصان) .

هذه الخرطوم القديمة ببيوتها التقليدية المتناثرة على هيئة البيوت فى الامام والغفير بالقاهرة تداخلت بالخرطوم الحديثة وأمست مع أم درمان تمثل الخرطوم الكبرى عاصمة السودان الحديث .

تجول خلالها اليوم فتجد من العمارة بجانب بيوتهـا التقليدية ما يذهل لحداثته : دور مكاتب وفنادق واستراحات حكومية ومنازل على أحدث تصميم ومبان ضخمة تعلـو قائمتها قاعة الصداقة للمؤتمرات والاجتماعات (اكبر قاعة لهذا الغرض بافريقيا من بناء الصين) ومبنى مجلس الشعب (اجمل واحدث مبنى لبرلمان فى أفريقيا من بناء رومـانيا) ومبنى منظمة الشباب (من بناء كوريا الجنوبيـة) ومبنى فندق الضيافة الحكومية (من بناء كوريا الشمالية) ، بجانب مبان قديمة لا تزال تمثل عراقة التاريخ (وان قرب عمقه فى السودان) مثل القصر الجمهورى (دار الحاكم العام سابقا) ومبانى الوزارات وجامعة الخرطوم (كلية جوردون سابقا) والسفارة المصرية (دار الخبير الاقتصادى المصرى سابقا)

---

(١٧٠) ابتداء من المقرن يبدأ النهر فى الجريان نحو الشمال كنهـر واحـد .

ومبنى دارة الرى المصرى ومبنى مدرسة جمال عبد الناصر الثانوية (مدرسة الخرطوم ثم فاروق سابقا) والجامع الكبير (جامع فاروق) ٠

على أن اكثر ما يثير الزكرى فى النفس القصر الجمهورى الضخم الجوتى الطراز دار الحاكم العام السابق فما دخلته وصعدت أو نزلت على درجات سلمه الرخامى الا وتذكرت أنه على درجات هذا السلم قتل انصار المهدى الحاكم العام جوردون عند سقوط الخرطوم فى يناير ١٨٨٥ ٠

لقد وصف مقتل جوردون بانه كان وحشيا اذ يقال أنه بعد أن طعنه نوباوى قائد الحملة ضد القصر أمسكه الثوار من رجليه وجروه على السلم ثم قطعوا رأسه وحملوها الى المهدى ٠ على أنه يجدر ان نذكر بهذه المناسبة أن جوردون فضل فى هذا الوقت أن يستقبل الثوار وحده بثيابه العسكرية٠

ولكن هذه الشجاعة لم تمنع الثوار فى قمة انفعالهم من النظر اليه كدخيل أجنبى مغتصب رقصوا حول جثته رقصة الموت بجنون أكتسح أمامه كل السودان فيما بعد (١٧١) ٠

هذه الذكرى التى يبعثها القصر الجمهورى تؤدى بزائر الخرطوم الى أم درمان القديمة قدم المهدية فهناك تشم رائحة القرن الماضى ، خليط من العطور والتوابل والسمك واللحم٠

ان أم درمان المدينة الاخت للخرطوم وان كانت فى تاريخ انشائها أحدث من الخرطوم الا أنه يبدو أنها توقفت عن التطور بنفس معدل تطور الخرطوم اذ هى تبدو اليوم وكأنها الاقدم انشاء من الخرطوم نفسها ٠ ولعل طابعها العربى الغالب هو ما يدفع بالمرء الى هذا الاحساس بأنها مازالت صورة محنطة للماضى ٠

---

(١٧١) ولعل تعاليه على السودانيين حرمه من الشعبية لا سيما وقد عرف عنه قوله عن السودانيين : « شاورهم ثم خالفهم » فقد كان لا يثق فيهم ٠

ومن أبرز معالم أم درمان سوق الجمال التى تؤكد طابعها العربى وقبة المهدى التى وصفت وقت اقامتها بأنها أعظم قبة بنيت فى السودان وقد ذكر ان المهندس الذى صمم بنائها مصرى الجنسية يدعى اسماعيل (١٧٢) وقد أقام المهدى هذه القبة ـ كما قال نعوم شقير فى مؤلفه عن السودان ـ فوق قبره لتصرف الناس الى حجها بدل الكعبة ٠

أما السوق العامة فلا تزال عربية خالصة تزخر بالسلع بالمخازن وعلى الارصفة حبوبا وتوابل وتمر وعطور وعطارة وأوانى وأقمشة ومأكولات ٠ وكل ما يخطر على البال من أدوات والات كهربائية حديثة ومفروشات ٠ ومن المصنوعات اليدوية المميزة العاج المشغول والابنوس المنحوت والمصنوعات من الذهب والفضة ، والجلود من الثعابين والتماسيح والقطط الوحشية ٠

وقد عاصرت بالخرطوم الاعتراف بالبغاء قبل ان يحرمه الرئيس نميرى ويضمه الى جرائم قانون العقوبات ٠ كان يخصص أحد الشوارع بوسط المدينة لهذا الحب الحر ٠ رأيت الناس فى هذا الشارع تقف فى الصفوف والطوابير أمام بيوته متراصة دون حرج أو ربما عن فطرة لا تزال محكومة بالغريزة ٠ وكانت نجوم هذا الشارع الحبشيات والصوماليات والارتريات المعروف عنهن الرفاهة والخبرة فى فنون المتعة الجنسية وأوضاع الحب وتقاسيم ممارسته ٠

وبالخرطوم اليوم ملهى ليلى واحد يرقص فيه الناس وترقص فيه محترفات الرقص الشرقى والاوربى على انغام موسيقى صاخبة وفى جو دامس الضوء ينادى بالجنس ٠ وقد ذكر لى بهذه المناسبة أن البغاء الذى بدأ باجازته الانجليز كانت تمارسه الكثيرات من الاجنبيات من مختلف

---

(١٧٢) المرجع السابق ٠

الجنسيات الا الانجليزيات فقد حظـــرت الحكومة الانجليزية عليهن الابتذال فى الخرطوم ·

***

هذه العاصمة المثلثة (أم درمان + خرطوم + خرطوم بحرى) هى مقر الحكم والادارة تزخر بالحياة وتعج بالنشاط سعيا ولهوا متعه وعنفا (١٧٣) · وصفت بأنها قلب السودان وفى الحق فان السودان كله قلب هو الخرطوم نفسها ·

فهذا القلب كما ينبض بالحيـــــاة بالنهار ينبض بها خلال الليل أيضا فالليل بالخـرطوم أمتع اذ تحلو خلاله (الونسة) وهى سهرات للعمل وتبادل الرأى كما هى ســـــهرات للانس والطرب ·· فى الهواء الطلق بحدائق المنازل المتناثرة تحت قبة سمـــاء الخرطوم الصـــافية فى حراسةالنجوم الوهاجة القريبة منك كأنها تدعوك للسمر ·

***

هذه الخرطوم التى تنبض نبض كل السودان هى أيضا مركز الاشعاع الثقافى والعلمى اليه كله ، ففيها تصـــــــدر جريدتا الصـــــحافة والايام اليوميتين ومجلة وزارة الثقافة والاعلام شهريا ومجلة الوادى (تحت ادارة مشتركة سودانية مصرية) ومجلة السودان الجديد بالانجليزية وقد كانت فى بداية انشائها تحت رئاسة تحرير الوزير الجنوبى الشجاع وزير الثقـــافة والاعلام بونا ملوال مرجع الجميع لموضوعيتها وجـــــدية الموضوعات التى تعالجها · ومجلات أخرى غير منتظمة ·

وبها أكبر عدد بالمقارنة بأية مدينة سودانية أخرى من دور السينما المفتوحة فى الهواء الطلق وقد أضيفت اليها أخـيرا

---

(١٧٣) ذكرت الانباء مؤخرا ان السلطات السودانية القت القبض على ٥٢٨ شخصا من العاطلين والمتشردين بالخرطوم الـــذين بدءوا يعيثون فى البلد فسادا مستعملين العنف ·

أول دار مقفلة بقاعة الصداقة الجديدة بعـــد أن كانت دار العرض بالقنصلية المصرية هى الدار المقفلة الاولى والوحيدة الى عهد قريب بالخرطوم ٠ (١٧٤)

وهناك بجـــانب مسرح أم درمان المفتوح فى الهواء الطلق مسرح بقاعة الصداقة ومسرح لوزارة الاعـلام كمسرح للجيب للبروفات والعروض الخاصة لفرقة الرقص الفولكلـــورى ، وتقدم هذه المسارح اليوم مسرحيات سودانية تحاول جاهـدة شق طريقها ،وعروض السيرك وعروض المرقصات الفولكورية، التى بلغت ـ فى الحق مستوى عال ـ من الاداء ٠

والاذاعة والتلفزيون يبثان من الخرطوم قلب السودان الى جميع انحاء السودان اليوم برامج سودانية بعضها عـــلى مستوى وبعضها الاخر لا يزال يعتمد على البنود المستوردة ولا سيما من (الشقيقة مصر) ، والافلام المصرية (وتوصف بالسودان بالافلام العربية) من أنجح أفلام التلفـــــزيون بالسودان ٠

ومما يجدر بالذكر هنا ان ركن السودان الذى يعمـــل من ستوديو معد خصيصا للتسجيلات بدار السفارة ، كان يمـكن ان يكون له دور أكثر فعالية فيما لو نظر اليه بجدية أكـــثر لتحقيق العديد من أوجه التعاون فى ميدان الاذاعة والتلفزيون والكتاب السودانى بدأ يشق طريق انتشاره وسط الـكتب

---

(١٧٤) من المؤسف انها لاتزال معطلة منذ اكثر من عشرين سنة حتى ان الاستاذ عبد المنعم الصاوى عندما رأها اثناء زيارة له للخرطوم كـــوزير للثقافة والاعلام وصف الامر بانه جريمة وفتح الاعتمادات اللازمة واصدر الاوامر المشددة ولكن من الغريب اننا لا نزال مقترفين لهذه الجريمة ٠

العربية (١٧٥) فالشباب الســــــودانى قراء ومتطلع للثقافة والكتاب والشعراء والقصصيون السودانيون من خــــريجى الجامعات السودانية والمصرية والاجنبية بات لهم مــــــع أساتذتهم من الجيل الاسبق أكبر الاثر فى خلق أدب سودانى متميــــز ٠

والخرطوم بلياليها وايحاءات ماضيها الممزوج بحاضرها الفتى أخرجت فنانين تشكيليين عديدين يفخر بهم العالم العربى ويعتز ٠ بدءوا يعبرون عن مشاعرهم منذ بداية الخمسينات حتى بلغوا اليوم درجة عالية من التقدم (١٧٦) ٠

وقد عجبت ان أجد بالســــودان الحديث فنانين على هذا المستوى الرفيع ويترك لفنان أجنبى يعبر عن (الوحــــدة بين الشمال والجنوب) بأكبر تمثال ــ لعله الوحيد حتى اليــــوم بالخرطوم ــ تقيمه الحكومة بالساحة الكبرى أمــــام القصر الجمهورى ٠ وياليتها ما فعلت فالتمثال لم يحسن التعبير ٠

وقد شهدت بالخرطوم اقامتى بها انتاج أول فيلم ســـودانى حمل اسم « عرس الزين » من تمثيل الصدق الفنان السودانى على مهدى والممثلة العزيزة الجميلة تحية زروق ٠ وقد كنت أرجــــــو أن يتعاون فى الاخراج أحد كبار فنانينا ولكــــن يبدو أن مشاكل التمويل قد أحالت دون ذلك ٠ لقد أخــــرج الفيلم مخرج عراقى لم يجد فى السودان سيئة أو عادة مرذولة

---

(١٧٥) حسب احصائية لليونسكو فى سنة ١٩٦٥ اصدرت مصر ٣٢٥٥ كتابا على حين ان السودان لم يصدر الا ٨٣ كتابا ٠ ولغياب الاحصــــاءات الحديثة يمكن بالقياس اذا علمنا ان القاهرة اصدرت سنة ١٩٨١ خمسمائة كتاب فقط ان نقول ان السودان لا يحتمل ان يكون قد اصدر فى نفس السنة اكثر من اثنتى عشرة كتاب فقط ٠

(١٧٦) لما كانت هوايتى الشخصية الرسم فقد ربطتنى بمعظم الفنــــانين بالسودان صداقات عديدة اعتز بها تاركا مجال الحديث عنها فى كتابى القادم عن « حكايات من مفكرتى » ٠

أو عملا فاضحا الا ورصده فى الفيلم كأن السودان قد خـــلا من المحاسن . وظنى أنه لو كان المخـــرج مصريا لهاجت الدنيا بالسودان وماجت وتأزمت العلاقات بين البلدين .. فلا تزال بين البلدين بقية عقدة لم يحلها الزمن بعد .

وعن الغناء بز فيه الكثيرون فالليالى الجميلة الطـــوال تدعو للسهر والطرب . وتعرف السودان من المطربين اليـوم المحافظين على القديم ويطلق عليهم مطربو الحقيبة أى حقيبة الاغانى القديمة والمحدثين الراغبين فى مواكبـة العصر دون فقدان الريتم السودانى المتميز . والنساء لا يغنـــين الا فى مناسبات الافراح وان ظهرت فرقة حديثة مؤخرا من ســــبع شقيقات أسمين أنفسهن البلابل جميلات جـــريئات شـــققن طريقهن سريعا فى ميدان الاغانى القصيرة الخفيفة .

وقد لا يمضى وقت طويل بالخرطوم ازاء هذا التطور حتى نشاهد مغنيات الافراح وعلى رأسهن شهرة اليوم حـــــواء الطجطاجة (من طق الطبلة) قد بدأن فى التوارى .

أما عن الناس فالرجال فى الخرطوم متطورون لاتصالهـم بالحياة العامة : الصفوة منهم تعيش عصرها الحديث فكـرا وأســــلوب حياة . اما (الكافة) فلايزالون يكافحون للقمة العيش بالاسلوب القديم يتجمعون فى الصباح جماعـــــات جالسة القرفصاء للفطور وفى الظهيرة يستلقون تحت الاشجار تحسبهم نياما وهم أيقاظ من هول القيظ ولسعته .

ومع ان الهجرة بين أقاليم السودان أمر مألوف عـــلى اعتباره يمثل مجتمعا رعويا قبليا عشائريا الا ان الملاحظ ان معدلات الهجرة قد ازدادت مؤخرا الى حد كبير وقد تكـــون الدوافع الى ذلك اقتصادية . وقد لوحظ على نحـــو خاص ازدياد الهجرة مؤخرا من الجنوب الى الخرطوم كذا من غرب السودان الى الخرطوم بأعداد غفيرة متلاحقة مما بات يشكل مشكلة اقتصادية واجتماعية وسياسية للخرطوم بدأت تمارس ضغطا عنيفا على الحياة فيها .

أما النساء التى والعيون اللواتى كما يقول الشـــــاعر فيوصفن بالعسالى لجمالهن كعسل النحل حــــلاوة ولونا أو كالنحل يأخذ رحيقا ويعطى شهدا ·

ان المرأة فى الخرطوم مدللة سيدة بيتها أثيرة لدى الرجل، لها سلطة فى الاسرة واقتدار ·

وكأنى بالخرطوم بنهريها الازرق الفائر والابيض الغائر قد أوحت للمرأة السودانية كل فنون الدلال والجمال لتكون مصدر الالهام لكل الفنون السودانية ·

انها أفريقيا التى كما أحببتها سوداء احببتها ســـمراء حتى يت اليوم على البعد أنشد :

اذا جرت الافواه يوما بذكراهـــــا

يخيل الى أنى أقبــــــل فاهـــا



١٤

عود على بدء

هذا السودان : هذا الصندوق من الابنوس المطعم بالعاج حوى داخله الكثير من وثائق التاريخ المصرى ·

ان المناخ الجديد الذى يحيط بالسودان الحديث بقياداته ومسئولياته والشخصية السودانية المتطورة التى باتت تشكل رأيا عاما متميزا للسودان ، هذا المناخ الجديد مهما قيل عنه ما كان الا امتدادا لتداخل قديم بين اقليمى وادى النيل ، بدأ بهجرة من الشمال الى الجنوب وانتهى بهجرة من الجنوب الى الشمال ·

وللارتباط العضوى الذى وثقته على مدى الحقب منذ فجر التاريخ وشائج الأخوة وصلات الرحم وشهدت عليه من مختلف الاجيال قبور الشهداء السودانيين بمصر حديثا وقبور الشهداء المصريين بالسودان قديما ، لهذا الارتباط عشنا معا يفتدى بعضنا البعض الآخر وسنعيش كذلك الى آخر أيام الزمان ·

فى بعض مراحل تاريخ السودان الحديث كان يصيح البعض فيه : « لولك يا مصر ما راعوا لنا خطرا » ولو علم هؤلاء اننا كنا دائما بمصر نقول ولا نزال « ولولاك يا سودان ما كان لنا جذرا » ·

تشهد أحداث التاريخ ان علاقات مصر بالسودان منذ بدأت فى العصور الاولى لم تكن الا ثمرة اختلاط الناس على رقعة فسيحة من الارض دون تحديد لمصر أو لسودان · كذا شهدت الأحداث فى بداية تاريخ السودان الحديث عندما بدأ ما سمى بعصر الفتح المصرى ، عندما كانت مديريات خط الاستواء ضمن مديريات الدولة الموحدة ، أنه ما كان بين مصر والسودان خط حدود دولى أو فاصل سياسى ·

ولولا التفجر الاستعمارى وأود أن أقول العهر الاستعمارى وقتئذ لبقى الحال كما كان : دولة موحدة شعبها يعيش على رقعة موحدة شمالها الاسكندرية وجنوبها جوبا ·

ولولا النزعات الحديثة والنظرة المادية التى طغت على الفكر منذ بداية هذا القرن وأنانية بعض الساسة لا ستمر الحال أوعدنا به الى عهود الالتحام الحميم ·

ولكن اسلوب الواقعية والموضوعية وما سمى بالذاتية كان له فى تسيير الأحداث ما حطم الواقع القديم ودمر الأمل والتمنى عندما استقل السودان وانفصلت عنه مصر ·

ولكن الاستقلال والانفصال تعبيران التقدير فى مفهومهما نسبى متحرك يتغير بتغير الزمان والناس والمكان ·

وقد أسفرت الايام تطورها الاخير الى تقدير مشترك بيننا وبين السودان فى فهم الاستقلال والانفصال ·

لقد فتح الله علينا بصيغة التكامل كأفضل رباط يربط مصر المستقلة بالسودان المستقل ، كأفضل جهاز متشعب فى كل مرفق بالبلدين يمكن به أن تتماسك اليد اليمنى مع اليد اليسرى منفصلتان دون التصاق ولكنهما مع البدن فى وثاق ·

ان اتفاق التكامل بين البلدين ـ وقد سبق لنا البيان ـ مبنى

أساسا على هدى تبادل المنافع والمصالح والتجارب والخبرات تحقيقا للخير المشترك ·

لم يعد ينظر السودان الى مصر ــ ولا يجب ــ على أنها الشقيقة التى يجب أن تعطى فقط المال والعمران والعلم والثقافة والأمن ، ولا يجب ان تنظر مصر الى السودان كما فعلت فى الماضى على أنه مصـــدر العاج والابنوس وريش النعام وأنفار الجيش أو أنه الخزان الذى يمدها بالماء منذ بدأت مشاكل العصر ·

لم يعد لنا أن نعيد ما كان يوصف بعصر اســتغلال مصر للسودان أو استنزا السودان لمصر ·

والتراث الذى خلفته مصر منذ بدأ (الفتح) من عمـــارة (مبانى السودان ومنشآتها وثكناتها القديمة ···) وخدمات (تعليم ورى وصحه وصناعة وزراعة ودفاع وقضاء ···) وعلم (رواق سنار ورواق دارفور ورواق النوبة بالازهـــر والمنح العلمية ···) كل ذلك الميراث خلفته مصر للسوادن سعيدة كتركة منها له دون أن يكون فى حســبانها فى يوم من الأيام أن تحصل منه على ضريبة أو رسم على الأيلولة كما تقضى بذلك أحكام المواريث ·

أن الانفاس المصرية التى شهقت بها صدور السودانيين فى عهده الحديث ما كانت الا استنشاقا طبيعيا لرياح الشمال التى هبت من كتابات الصحف المصرية (السياسة الاسبوعية ــ الرسالة ــ أبولو ــ المقتطف ···) وشعر احمد شوقى وحافظ ابراهيم (شاعر النيل أو شاعر مصر والسودان) وعبد العزيز فهمى باشا ولطفى السيد باشا (معلم الجيل) واحمد حسن الزيات صاحب الرسالة وعبد القــادر المازنى ومحمد حسين هيكل باشا ودكتور زكى مبارك وعباس محمود العقاد وسلامة

موسى واحمد أمين وطه حسين (الذى أبدى اهتماما بالغا بالسودان (١٧٧) وتوفيق الحكيم وجـــــلال الدين الحمامصى بكتاباته عن السودان ولويس عوض وحسين فوزى والاباظية جميعا ٠٠٠٠ الخ (١٧٨) ٠

---

(١٧٧) دعا الى انشاء كرسى للسودان بالجامعة ٠ واقترح منح الاستاذ دكتور عبد الله الطيب استاذ الادب العربى بجامعة الخرطوم وقتئذ وعضو مجمع اللغة العربية جائزة الدولة التقديرية من مصر ٠ فياليت ما اقترحـه طه حسين منذ قرابة الثلاثين سنة يجد له آذنا صاغية الان بالنسبة لادخال أهل الفكر والادب والعلم من السودان معنا فى مضمار هذه الجوائز واذكر بهذه المناسبة ما كتبه دكتور منصور خالد وزير خارجية السودان الاسـبق فى احدى حلقات سلسلة له عن الاوضاع بالسودان نشرت بجـــريدة الايام السودانية فى بداية عام ١٩٨٠ عندما قال انه يذكر دائما طه حسين عندمـا قارن عملاقى الشعر شوقى وحافظ بمناسبة رحيل شوقى الى اسبانيا وحافظ ابراهيم الى السودان بقوله « التقى الشاعران فى ميدان واحد هو ميدان الشعر وكان احدهما قد تعلم ولكن فى عز ونعيم وارتحل ولكن الى حيث اللهو واللذة ٠٠ وكان الاخر قد تعلم ولكن فى فقر وبؤس وارتحل ولكن الى حيث الكد الذى لا يفيد والعناء الذى لا يغنى ، الى حيث الشمس المشرقةابدا المحرقة ابدا الى حيث الطبيعة المظلمة الى حيث الجمال الجافى الغليظ ـ ان صح أن يكون الجمال غليظا ـ الى حيث الجهل الذى لا غور له والظلمة التى لا يتميز فيها شىء » ٠ على ان طه حسين وان تذكر له دكتور منصـــــور خالد هذه العبارة ـ ما كان يعنى من هذه المقابلة فى مثل هذا المقـــام الا الدعابة الادبية فالتاريخ يشهد لطه حسين موضوعيته فى الحماس للسودان وجهده فى خدمته استاذا ووزيرا مسئولا ٠

(١٧٨) سافر العقاد الى السودان فى ١٩٤٢ على اثر هجوم الالمــــــان والايطاليين على حدود مصر الغربية فى شهر يونيو ١٩٤٢ وقد قال لـدى عودته الى مصر :

التقينا

والتقينــــا

عجبا كيف صحونا ذات يوم فالتقينا

بعد ما فرق قطران وجيشان يدينا

ومن قبلهم عمالقة الوطنية والادب مصطفى كامل ومحمد فريد وحافظ رمضان والصـــوفانى وعبد الرحمن الرافعى وفكرى اباظة وعبد العزيز على وعبد الله النديم وقاسم أمين وآخرون كثيرون ٠

ان هذه الانفاس المصرية التى أيقظت النهضة الســـودانية نفثتها مصر طواعية دون مقابل بل انها سرت الى الســـودان على طول مجرى النهر بحكم الطبيعة وحتمية هبوب الريح ٠

وقد حكى لنا دكتور ابراهيم الحاردلو الاستاذ بجـــامعة الخرطوم فى كتابه عن الرباط الثقافى بين مصر والســـودان قصة انشاء المدرسة المصرية الثانوية على نحو يجدر بناجميعا ان نتمثله دائما أمام أعيننا ٠

عندما فكرت مصر فى انشاء مدرسة ثانوية حديثة اعترضت الادارة البريطانية وتأزمت لاعتراضها العـــلاقات بين مصر والسودان منذ بداية الثلاثينات حتى سنة ١٩٤٦ عندما تقرر اخيرا افتتاحها رسميا بحضور وزير المعارف وقتئذ دكتور عبد الرزاق السنهورى باشا يصحبه وزير الاشغال ٠ وقد بدأت الازمة بين النحاس باشا وطه حسين من ناحية والانجليز من ناحية أخرى وقد كان يجب ان يخضع تعيين مدير هذه المدرسة لموافقة الانجليز كما كانت تراقب اسئلة الامتحانات ونشاط المدرسين الطلبة فيها ٠

وكان من المصريين الذين كتبوا فى السودان قبل الاستقلال صفحات من نور فى مجال التعليم محمد عبد الهادى بك مراقب

فتصافحنا بجسمينا وعدنا فالتقينا
لا تراعى بعد هذا من فراق او فوات
قدر الله كفيل لك فى ماض وات
كلما فرق شملينا دعانا فالتقينا

وللعقاد قصائد اخرى عرض فيها للسودان كما كانت له مشـــاركات فى مهرجاناته الادبية السنوية ٠

التعليم المصرى فى السودان الذى كم يتمنى كل مصرى أن يرى له الآن تمثالا بالقـــاهرة او الخــــرطوم بجانب عمر طوسون وطه حسين والمراغى والجارم ومحمد عبده والطهطاوى وغيرهم من الكثيرين الذين خفقت اسماؤهما بالسودان فى مطلع تاريخه الحديث ·

لم تقف مصر عند الحقبة السابقة للاستقلال أو بعدها عـــن العطاء فقد واصل رجال الفكر فيها حتى اليوم بث نتاج أذهانهم الى السودان المعاصر فى كل مجـــالات العلم والفنون والآداب بالتأثير والتأثر · وكان من الاسماء التى راعنى تأثيرهـــــا خلال اقامتى بالخرطوم على نحو خاص دكتورة نعمات أحمد فؤاد التى لها اتصالات وثيقة برجال الفكر والادب بالسودان وكتابات متصلة عن النيل وشخصية أهله ودكتور محمد محمود الصياد عميد معهد الدراســـــات الافريقية وعالم الجغرافيا الدولى وصاحب المؤلفات العديدة عن السودان ودكتور عبد المجيد عابدين (وله مؤلفات عديدة أيضا عن الســــــودان) والسيدة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء ودكتور مصطفى الشكعة عميد كلية آداب عين شمس ودكتور حسين فوزى ودكتور لويس عوض ثم السيد دكتور مصطفى أبو زيد والمرحوم فضيلة شيخ الازهر عبد الرحمن بيصار عندما شهدت لهمـــا جامعة أم درمان الاسلامية أعواما دراســــــية حاضرا فيها استاذين غير متفرغين (١٧٩) ·

وجمال السجينى وحسين بيكار وشفيق رزق وهبة عنايت من رسامى مصر العظام · كما لمست قدر مصر عظيماً عندما رأيت فخورا السودان يستقبل فضيلة الشيخ متولى الشعراوى ملتفا حوله فى كل مرة حظيت الخرطوم فيها بزيارته ·

---

(١٧٩) لا اذكر للاستاذ الكبير محمد حسنين هيكل زيارة للخرطوم وان كانت له زيارات معروفة الى اوغندا واثيوبيا ضمت جنوب السودان ·

وكما قالوا ان دموع ايزيس لم تذهب هدرا ضم فـــرع الخرطوم لجامعة القاهرة اليوم بعد عشرة سنوات مــن انشائها قراية الخمسة عشرة آلاف طالب أضعاف أضعــاف طلاب جامعة الخرطوم نفسها ٠ (١٨٠)

وزيارات الرئيس نميرى والزراء وضباط الجيش السودانى ورجـــال الاعمال الى مصر دون دعـــوات ، وآلاف الطلبة السودانيين بمصر اليوم بالجامعات المصرية والمعــاهد ودور التدريب خير شاهد على هذا الالتحـــام الفريد بين الدولتين ٠ وقد أكد الرئيس نميرى مؤخرا حرصه على هــذا الالتحام بقوله (١٨١) « أن مصر هى أمن الســودان وان السودان هو أمن مصر وأن القيادات التى تتحمل المسئولية فى السودان والتى تعمل لتعميق العلاقات المصرية السودانية انما هم (جيلا بعد جيل) خريجو جامعات مصر » ٠ وذكران فى جامعات مصر الان ١٤الفطالب وطالبة من السودان٠ (١٨٢)

وعلى غير معاملة مصر للطلبة الاجانب تخصص الجامعات المصرية وبالخرطوم مساكن خاصة لاقامة الطلبة والطــالبات من السودان ٠

وقد كان للنوادى المصرية المنتشرة بارجاء السودان فضلها الكبير فى التقاء الوطنيين بالسودان خلال فترة كفاحهم ضــد الانجليزة وتقوم هذه النوادى اليوم بنشاطها للسودانيين قبل المصريين الذين باتوا أقلية بين روادها ٠

---

(١٨٠) دموع ايزيس هى التى تنزل فى النيل فيفيض النهر بها ٠ وايزيس هى اخت وزوجة اوزيريس اله المحصول والنهر وواهب الحياة والخصب ٠ حكم مع ايزيس كل وادى النيل ٠

(١٨١) وكالات الانباء فى ٢٥ـ١ـ١٩٨٢ ٠

(١٨٢) طلب وزير التعليم السودانى مؤخرا زيادة هذا العدد لا سيما فى مجال الدراسات المهنية والتطبيقية وتدريب المعلمين وطلب زيادة عدد المعلمين المصريين بالسودان من ١٢٠٠ الى ١٨٠٠ معلم خلال سنة ١٩٨٣ ٠

ومن اكبر هذه النوادى نشاطا اليوم نادى ناصر الثقـــافى بالخرطوم (وقد احتفظ باسمه هذا بعد أن كان النادى الثقافى المصرى والنادى الرياضى العربى بالخرطوم وكان قبل الثورة ناصر يسمى بالنادى الرياضى المصرى وبقية النوادى) العربية) فى الشجرة وجبل الأولياء وبور سودان والأبيض وملاكـــال وعطبرة ٠

ولا يمكن لأحد ان يغفل فى الخرطوم مدى انتشار الكتاب المصرى والصحيفة المصرية والفيلم المصرى والمسرحية المصرية والرقصة المصرية والنكتة المصرية ٠

ان مصر الولود التى أنجبت ولا تزال دءوبا على الانجاب سوف تكون دائما للسودان ـ كما هى للعالم العربى كله ـ الأم بكل ما تحمله كلمة الأم من أبعاد ٠

وقد صدق المرحوم محمد عثمان يس وكيل وزارة الخارجية السودانية والسفير الأسبق عندما أهدى الى قبل وفاته فى مارس سنة ١٩٧٦ كتابه (باليه الشاعر) وهو المعروف طوال حياته بحدته فى الدعوة الانفصالية (١٨٣): « تحية لمصر التى قال عنها الأخطل الصغير بشـارة الخورى فى القصـــــيدة المستوحاة لهذا الباليه :

يا مصر ما انفتحت عين على حسن
الا وأنبت فيضـــا من بواكرهْ »
ولا تفتقت الافكـــار عـــن أدب
الا وأنبت فيضـــا من بواكره

بوركت مصر التى بهذا الفكر الدافق قد أعطت السودان

---

(١٨٣) وهو صاحب عبارة كان دائما يردد ها قبل وفاته من قبيـــل المداعبة ذكرنى بها مؤخرا دكتور لويس عوض الذى ودع بها بعد زيارة له فى الخرطوم « المصريون ينقشعون »!

دائما طواعية وعن حب ودون مقابل · ولكن هل لمصر وقـــد فعلت ما فعلت تلقى من السودان الحب نفسه ؟

« هل يمكن الحديث اليوم عن مصر منفصلة عن السودان أو سودان منفصل عن مصر ؟ » هل افتقدنا حسن الجوار ؟ هل العلاقة بين الشعبين علاقة نسب ام جوار ؟

« هل لا يزال يحدونا نفس الاهتمام القديم بالسودان ؟ هل لدينا اليوم شخصية كشخصية عمر طوسون تتبرع بالمـــال والوقت أن تكرس الجهد والعلم لخدمة الســـــودان وابراز شئونه ؟ » ·

« هل صاحب جهاز التكامل جهاز اكاديمي مهمته البحث والتجميع والدرس والتمحيص والتحليل والتحقيق لكل ماتعلق بالسودان : تاريخه وجغرافيته ومشـــاكله من واقع الوثائق والتقارير الرسمية ودراسات المتخصصين ؟ » ·

« هل أدى التكامل رسالته · واصبح فوق الاحداث ؟ أوباتت التقلبات السياسية تعلو وتهبط به ؟ هل ينظر الســـودان الى التكامل نظرتنا اليه فلم يعد هتافه « يا شقيقتى لبى حاجتى » هو شعاره للتكامل ؟ هـــــل المقصود بالتكامل الفعل من الطرفين أو مجرد الكلمة من طرف والفعل من الطرف الاخر ؟ هل فكر السودان فى تمثيل الجنوبـــيين فى اجتمـــاعات التكامل ؟ » ·

« هل آن لنا آن نحطم السدود والقيود الحكومية والادارية التى لا تزال تقف أمـــــام نهر التكامل تحد فيضانه عـن الناس ؟ » ·

« هل آن الوقت أن نفصل وزارة شئون السودان عن وزارة شئون الرى أو الزراعة ؟ فلم يعد الرى أو الزراعة وحدهما محور علاقاتنا بالسودان ·

« هل سيفتح السودان ذراعيه لنا كما ترحب مصر بأهلـه صناعا وتجارا وزراعا وملاك عقارات ؟ » ·

هل ما يقال فى السودان الآن من « أن السودان للسودانيين والمصريون أولى بالمعروف » مرحلة جديدة لتحجيم التكامل اقل طموحا من مرحلته الأولى ؟

ان مصممى العلم السودانى الذين آتخذوا من لونه الازرق رمزا للنيل والاصفر رمزا للصحراء والاخضر رمز للزراعة لم ترق لهم ألواننا الابيض والاسود والاحمر لدى بدء الاستقلال (١٨٤) فتكلموا معنا بلغة الالوان ٠

أرادوا بالعلم أن يرفعوا راية الانفصال منذ البداية على الرغم مما بذلته مصر لهم ٠

هكذا أراد السودانيون ان ينفردوا بشخصيتهم ويؤكدوا ذواتهم ، قال البعض عن عزة غريزية فى النفس وقال البعض انما عن عقدة نفسية فى العقل ٠ والحق ان ما فعلوه كان عن أصالة الفكر السودانى الذى لمسته فى معايشتى للناس بالسودان فى الجدال المنطقى أو النقاش الجاد أو الحديث الهادىء معهم كبارا أو صغارا ٠

ان الشخصية السودانية الحديثة (بالشمال) وان تأثرت بالشخصية المصرية الا انها انفردت فى مقوماتها منذ سطعت المهدية بنورها ونارها على السودان ، تميزت وانفردت ولكنها لم يشذ وتنحرف فقد كانت قبلتها دائما مى كل المراحل القاهرة قديما وحديثا ٠

كانت الشقيقة فى السودان ــ ولا تزال ــ لا تعنى الا مصر ٠ أنك لن تجد مصر فى السودان الا مقرونة بصيغة الشقيقة (١٨٥) ٠

---

(١٨٤) تعدل العلم لدى ثورة نميرى وتماثل مع العلم المصرى مع اضافة مثلث أخضر قاعدته موازية للسارى كبديل تحاشوا به ــ للتفرقة ــ النجمتين الخضراوتين اللتين كانتا بالشريط الابيض بالعلم المصرى وقتئذ ٠

(١٨٥) الحردلو ــ المرجع السابق ٠

هذا الحديث عن شخصية السودانى وشخصية المصرى ذكرنى بكلمات أوردتها دكتورة نعمات أحمد فؤاد فى كتابها « شخصية مصر » فى نثر كالشعر جرى كالآتى :

ان طبيعة تفكيرنا ، التكامل لا التصارع الذى هو أساس الدراما ‥ ومن هنا كان سر افتقاد الدراما عندنا ٠

ان مصر حين تتصارع تفىء الى الوحدة فحروب الشمال والجنوب أنتهت بوحدة الوادى ولبس مينا تاج الوجهين ٠

ان ذلك التكامل تفتقده الشخصية الاوربية التى تهوى التقسيم والتصنيف ٠

اننا فى مصر نسمى التكامل اللمة ٠٠٠ العزوة ‥ وذلك يصنع الأمة ٠

وعن النيل تقول دكتورة نعمات ـ وهى للنيل عاشقة ـ تقول فى نفس الكتاب :

ان النيل له ضفتان
وعن يمين وشمال سهلان
تكتنفهما من شرق وغرب صحراوان
والوادى وجهان
والنيل نفسه فى تصورى نيلان
طبيعته معطرة مقطرة كأنها قصيدة منظومة من بحر النيل
كلماتها خضراء
وحروفها مذهبة ٠
يمثل هذا التلاقى أسلوب التماثل والتناغم
المعبد المصرى فيه المقاصير صفان
مقاصير الشمال ومقاصير الجنوب
والآلهة نوعان أرباب وربات
أزواج وزوجات
حتى الروح لها قرينة

فالعالم عندنا عالمان
والاسم لدينا اسمان
ولكل شخص حياتان
المطباق فى الادب العربى لفظ وضده
ولكن المقابلة فى الادب المصرى ، نظير ونظير يتناغيان ·
وأرانى أضيف لما قالت دكتورة نعمات :
والنظير والنظير لدينا ، هما مصر والسودان ·

سعد الفطاطرى
مايو ١٩٨٢

كلمة شكر

أرجو من القارئ العزيز قبل ان يطوى غلاف هذا الكتاب ، أن يتقبل شكرى • وآمل أن يكـون قد وجد سردى لقصة السودان على النحو الذى حاولته جاهدا ، سهل المأخذ قريب التناول •

كما أرجو الاذن لى بكلمة شكر أخرى أوجهها لمؤسسة روز اليوسف التى رحبت بنشر هـــذا الكتاب على الفور مؤكدة من جديد رســـالتها التقليدية نحو السودان •

وأضيف أن الاستاذ عبد العزيز خميس رئيس مجلس الادارة والاستاذة سعاد رضا العضــو المنتدب كان لهما الفضل الاكبر فى اصدار هذا الكتاب فى موعده بمناسبة ثورة الســودان التى قادها الرئيس جعفر نميرى فى ٢٥ مايو ١٩٦٩ ، وسار بها منذ ذلك التاريخ حتى اليوم منصــورا بعون الله على طريق التنمية والتقدم •

والشكر كل الشكر لمن ساهموا فى اصـــدار هذا الكتاب ، رسما واخراجا وطباعة •

سعد القطاطرى

فهـــرس الكتـــاب

الموضـــــوع	الصفحة

الغلاف : هبة عنابت

الرسوم الداخلية :

آمنة عوض

أحمد ابو القاسم على

الاخراج : زينب أبو طالب

كتاب روزاليوسف

يصدر عن مؤسسة روزاليوسف

رئيس مجلس الادارة

عبد العزيز خميس

العضو المنتدب

سعاد رضا

روز اليوسف القاهرة ٨٩ ، ١١ شارع القصر العيني تليفون ٢٠٠٠٠

مكتب الاسكندرية شارع شيبة ٤٤ث

تليفون ٨٠٠٧٣٤٠ ، ٨٠٩٣١٠ ، ٨٠٩١٢٤

رقم الايداع

٨٢/٣٣١٤



الثمن ٧٥ قرشاً

هذا الكتاب

المؤلف السفير سعد الفطاطري صاحب تجربة طويلة في الخدمة الدبلوماسية فقد تدرج بعد عمله معيدا بكلية الحقوق بالاسكندرية من سنة ١٩٤٣ الى سنة ١٩٤٦ في عدة مناصب بالخارج في باريس ولندن وبون وأديس أبابا وبونس ايرس وقد تولى منصب سفير مصر في برلين عاصمة ألمانيا الديموقراطية مدة سبع سنوات عهد اليه بعدها بمنصب المستشار السياسي لنائب رئيس الوزراء وقتئذ دكتور عبد القادر حاتم عندما نشبت حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

وبعد أن وقع اتفاق التكامل بين مصر والسودان في فبراير ١٩٧٤ عهدت الحكومة اليه منصب سفير مصر بالخرطوم .. وقد مكث بها حتى استدعائه للظروف السياسية القاهرة التي أصابت العلاقات المصرية السودانية با... نهاية سنة ١٩٧٩ .

ومن واقع تجربة المؤلف في الخرطوم وعمله ب... سنوات كان ذلك الكتاب ، بعد أن نشر مؤخرا كتـ... افريقيا « هذه السوداء أحببتها » مسجلا فيه ذ... رحلاته الافريقية خلال سنتي ١٩٨٠ ، ١٩٨١ . نتشر له قريبا الكتاب الذي وعد به عن ذكرياته الديموقراطية عن سنواته السبع بها ضمن السلسلة أن يختتمها بكتاب عن « حكايات من مفكرتي » .

